ذاكرة الكتابة

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

ألمع ساعات الحرج
في تاريخ الإنسانية

محمد مفيد الشوباشي

الهيئة العامة لقصور الثقافة

أمع ساعات الحرج في تاريخ الإنسانية

محمد مفيد الشوباشي

ذاكرة الكتابة (٥٧)

المراسلات: باسم مدير التحرير
على العنوان التالي ١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني
رقم بريدي: ١١٥٦١

- الكتـــــــاب : ألمع ساعات الحرج فى تاريخ الإنسانية
- المــؤلـــــف : محمد مفيد الشوباشى
- الطبعــة الأولى : دار الفكر العربى
- الطــبعة الثانية : الهيئة العامة لقصور الثقافة - يوليه ٢٠٠٤م

مقدمة

بقلم المغفور له الأستاذ الجليل أحمد بك أمين

من أهم أنواع النثر الفنى ، التاريخ الأدبى ، وأسلوبه من أصعب أنواع الأساليب ، فهو ليس أسلوباً علمياً خالصاً يعتمد فيه على نقل المعلومات إلى ذهن القارىء فحسب ، وليس أسلوباً أدبياً صرفاً يعتمد فيه على إثارة مشاعر القارىء فحسب ، بل هو آخذ بطرف من هذا وطرف من ذاك ، وعلى من عاناه مراعاة واجبات من هذا وواجبات من ذاك . فعليه أن يكون مؤرخاً صادقاً دارساً موضوعه فى دقة وأمانة ، معتمداً فيما ذهب إليه على البراهين القوية ، والتحليل الدقيق ، وظروف الزمان والمكان وما تتطلبه ملابسات العصر الذى يؤرخه ونحو ذلك . وعليه ألا يقتنع فيما يكتب بالظن والحدس والتخمين ، هذا من ناحية وعليه من ناحية أخرى أن يكون ذا خيال خصب يمكنه من أن يحلق فى سماء العصر الذى يؤرخه ، ويكمل النقص الذى يشعر به من غير أن يخل بالأمانة العلمية أو بغير الحقائق الواقعية . ثم عليه أن يعرض كل هذا عرضاً جميلاً جذاباً ، مازجاً فيه الأحداث الخارجية بانفعالاته النفسية ، والحقائق التاريخية بعواطفه الشخصية ؛ فهو مؤرخ فى درسه وصدقه وتحليله ، وشرح الأسباب والنتائج ؛ وهو أديب فى تعبيره وفى أسلوبه القصصى ، وفى التزامه التشويق والإمتاع ؛ وهو أديب أيضاً فى خياله ، ولكن خياله ليس من قبيل خيال الروائى

يخلق أشخاصه ويخلق أحداثه ، ولكن خياله خيال تصور الحقيقة فحسب ، وخيال عرض جميل حتى يُرى الماضى كأنه حاضر ، والبعيد كأنه قريب ، والميت كأنه حى .

وهو أديب فى حرارة عواطفه ، يجمع حفنة من المعلومات ثم ينفخ فيها من روحه ، ويفيض عليها من شعوره ، فإذا هى قلب ينبض وحياة تتدفق ، وحرارة تلتهب .

وهو أديب فى ذوقه يعرف مواضع الإطناب فيطنب ، ومواضع الإيجاز فيوجز ، ومواضع الحذف فيحذف ، ويعرف بذوقه مقدار التناسب بين أجزاء الصورة ، فيؤلف منها وحدة منسجمة ، وأغنية متناغمة .

لذلك كله كانت مهمة الأديب المؤرخ مهمة شاقة لأنها تستلزم واجبات عسيرة ، وقد تبدو — أحياناً — متناقضة ، ولصعوبتها كان النجاح فيها أندر من نجاح المؤرخ الصرف أو الأديب الصرف . وقد حاولها مؤرخو العرب ، فنرى بعض قطع فى تاريخ الطبرى وأغانى الأصفهانى وغيرهما تعد بحق تاريخاً أدبياً ، ونرى تاريخ العتبى فى ابن سبكتكين تاريخاً أدبياً أو أدباً تاريخياً ، ونرى فى العصور الحديثة أمثال « حماة الإسلام » و « أشهر مشاهير الإسلام » ، نحا فيها مؤلفوها هذا النحو ، فزججوا الأحداث التاريخية بالأسلوب القوى الذى يثير العاطفة ، ويهيج المشاعر ، ويحث على النهضة والتأسى ويعرض الحقيقة فى تشويق وترغيب .

وارتقى هذا النوع فى الأدب الغربى الحديث إلى حد بعيد فعمدوا إلى عظماء الرجال وعظام الأحداث ، فدرسوها دراسة عميقة ، وصاغوها

صياغة أدبية طريفة ، لجمعوا بين جلال الموضوع وجمال العرض . وتبغوا فى درس الظروف الاجتماعية والبواعث النفسية التى تتصل بموضوعهم . ثم تفننوا فى الإخراج حتى كأن عملهم رواية تمثيلية أو قصة خيالية ، لا تبدأ فى قراءة ما يكتبون حتى تنسى نفسك وزمانك ومكانك ، وتستغرق فى متعة ولذة كأحسن ما تكون المتعة العقلية واللذة النفسية .

فى هذا الباب وضع الأستاذ مفيد كتابه الذى نقدمه اليوم . فقد اختار مواقف تاريخية مثيرة ، كما اختار شخصيات تاريخية بارزة ، ثم أعمل فيها قلمه وخياله وأسلوبه وعواطفه ، فلونها لوناً أدبياً جميلا مع الاحتفاظ بمعالم التاريخ .

قرأت هذه الفصول فأحسست نشوة ولذاذة كما أقرأ رواية جميلة ، ورأيت أسلوباً صافياً يتجلى فيه الوضوح والجمال ، ورأيت خيالا يعبك الوقائع وذوقاً يرتبها وينسق أجزاءها ، فتخرج كأنها صورة طريفة فى إطار طريف .

قد يشعر القارىء بعدم الوحدة فى الموضوع ، وعدم التجانس بين فصل وفصل ولكن ربما كانت وحدتها هى اختيار الكاتب للمواضع الصالحة لقلمه ، كما يختار الفنان المناظر الصالحة لتصويره . وقد يأخذ عليه القارىء عدم التقصى فيما تعرض له من المسائل التاريخية ، ولكن هذا شأن التاريخ الأدبى غالباً . إنما يختار كاتبه المعالم البارزة ، والأقوال الراجحة ، والروايات التى تجمّل الصورة . ولا يهمه من شجرة الورد إلا زهرتها ، ولا من الحديقة إلا المنظر العام الذى يُشعر بجمالها ،

أما التفاصيل فللمؤرخ المحترف كما أن تفاصيل شجرة الورد للنباتي المتخصص .

لقد وفق الأستاذ « مفيد » إلى حد بعيد في اختيار موضوعاته كما وفق في عرضها .

وأرجو أن يتابع الكتّاب الكتابة في هذا النوع من التاريخ الأدبي ، فيكثروا من عرض عظماء التاريخ وكبار الأحداث شرقاً وغرباً ، ففيها اللذة والمتعة ، وفيها المثل والقدوة ، وفيها غذاء العقل وغذاء الروح . والله الموفق .

أحمد أمين

كلمة المؤلف

لا يتجه القصد من كتابة هذه الفصول التاريخية إلى زيادة واقعة من وقائع التاريخ بحثاً أو تقصى أسبابها ونتائجها درساً ، أو استخلاص حكمة أو عظة من حكمها وعظاتها ، وليس الغرض منها كذلك نقد الشخصيات التى أثرت فى مجرى التاريخ ، وتبين موضع الصواب وموضع الخطأ من أعمالها العامة . والتنقيب عن دوافع هذه الأعمال ومراميها الخافية ، وإنما القصد منها عرض القصص التاريخية عرضاً أدبياً بحيث تكون أقرب إلى التصوير والتلوين منها إلى التمحيص والتحليل .

تصف هذه الفصول ساعات الحرج التى مرت بالإنسان فى بلاد مختلفة وعصور متباينة ، وتذكر ماتمم به أوشق من أمل ويأس ونعيم وشقاء ، وحبة وبغضاء . ولا تعنى بشخصية من الشخصيات التاريخية إلا على أن صاحبها إنسان يأمل ويقنط ، وينعم ويشقى ، ويحب ويبغض . فالقارىء الذى يتناول هذا الكتاب على أنه بحث فى فلسفة التاريخ يخطىء مرماه ، وعليه أن يلتمس بغيته فى كتاب آخر . لأننا لا نحاول هنا إلا أن نرد لأبطال هذه الفصول الروح ، ولتفاصيلها الجدة ، وننقل القارىء إلى عهدها . ونحيطه بجوها ، حتى لكأنه يعيش بين أهلها ويخبر ما خبروه .

على أننا تحرينا الأمانة فى سرد أخبارها ، واستوثقنا من صحتها على الرغم مما يبدو من غرابة بعضها وشبهه بالقصص الخيالية ، فمن هذه الناحية يستطيع كل حريص على سلامة التاريخ أن يطمئن باله .

وعلينا أن نشير إلى أن بعض فصول هذا الكتاب مقتبس. والفصول المقتبسة هي «سقوط قسطنطينية»، و«كشف المحيط الهادي»، و«موقعة واترلو»، و«الزحف إلى القطب». وإذا كان كاتب التاريخ لا يستنبط وقائعه، وإنما يقتصر فضله على ما يضيفه عليها من خواطره ومعانيه، فإني في الفصول التي أشرت إليها جاوزت حد اقتباس الوقائع من مراجعها إلى اقتباس بعض معان من بعض المؤرخين.

وإني أقدر ما لقيت من عون على وضع هذا الكتاب وطبعه من إخواني؟

كليوبطرة

لقاؤها الأول لانطونيوس

جلس بطليموس الثالث عشر ، فرعون مصر ، فى شرفة من شُرَف قصره «ريبيا» القائم على ساحل الإسكندرية ، عاصمة مُلك البطالسة ، وأطبق شفتيه على طرف مزماره ، وأجرى أصابعه على ثقوبه فأرسل نغمات مرنانة مرقصة ، وأجال نظره فيمن حوله ليتبين تأثير ألحانه فيهم ، فرأى « بيرينيس » كبرى بناته متجهمة كعادتها كلما رأته ممسكا بمزماره ، فأعرض عنها متململا ، وهبطت نظرته إلى ابنته كليوبطرة ، فرأى شفتيها الأرجوانيتين تفترّان عن ثنايا ناصعة نضيدة ، وعينيها النجلاوين تشفان عن حنان صادق ، فشاعت فى وجهه دلائل الابتهاج ، وعكف على آلته فأنطقها بكل مبهج مطرب .

وجلس إلى جانب الأميرة «بيرينيس» كل من «تيودوتس» المؤرخ الفيلسوف أستاذ الأمير الصغير بطليموس ابن الملك ، و«بوتين» أمين الملك ، وظهرت على وجهيهما أمارات الضيق والكدر ولم تطربهما الألحان المفرحة ، وإنما زادتهما أسى وكآبة . لأنهما أيقنا أن مليكهما سوف يدفع صولجان ملكه ثمناً لتعلقه بفنه واشتغاله به عن مصالح رعيته .

وكانت الشرفة تطل على طريق المدينة الرئيسى ، ولا تمنع المسافة بينها وبينه من وصول الألحان الملكية إلى آذان السابلة ، ومن تعالى ضوضاء السابلة إلى المسامع الملكية . ولكن فرعون مصر الذى اعتاد

أن يطرب زائريه فى حفلاته الرسمية بأهازيج مزماره ، لم يحرجه تجمهر الغوغاء تحت شرفته لسماع ألحانه .

على أن الشعب الذى تجمع تحت الشرفة لم يتجشم المجىء فى ذلك اليوم إلى أسوار القصر ليملأ أذنيه من النغم الشجى ، وإنما جاء ساخطاً على عاهله اللاهى الطروب ، السادر فى ملكوت فنه غير عابىء بما ابتليت به بلاده من محن ، وما تدخره لها الأقدار من محن أخر .

فقد قويت شكيمة روما فى ذلك الأوان ، وطغى عليها الروح العسكرى ، واشتد نهمها الاستعمارى . وكانت جيوشها التى انحدرت إلى بلاد الإغريق من ساحل الأدرياتيك وقضت على سلطان ملوك مقدونيا ، وزحزحت دعائم الدولة الرومانية الشرقية ، قد اقتحمت آسيا الصغرى ، وتاخمت أملاك مصر فى الشام ، وأخذت تناوش الجيوش المصرية هناك .

كانت المنافسة بين روما والاسكندرية على أشدها ، ولكنّ كلتيهما صاولت الأخرى بسلاح من نوع مختلف ، فكانت روما تعتز بقوتها الحربية ، والاسكندرية تفاخر بمكانتها العلمية وثروتها المادية ، وبدت بوادر طمع الأولى فى ثروة الثانية ، وخوف الثانية من بطش الأولى ، وأنفتها من أن تذل لقوتها الغاشمة . وبينما كان المصريون يرقبون فى حنق ووجل توسع الرومان الاستعمارى الذى شمل كافة دول البحر الأبيض المتوسط ، شغل فرعونهم عن هذا الخطر الداهم بأفانين مزماره .

والخائف يضطرب لأى طارىء . وقد اضطرب الإسكندريون الوجلون إذ وصل إلى علمهم نبأ إغارة الجيش الرومانى على أملاك مصر

فى الشام واقتطاع بعضها . فاشتد حقدهم على أميرهم ، وتضرمت مراجل الثورة فى المدينة ، وتصاعد نداء السخط من الطرقات المحيطة بالقصر إلى شرفة الملك . ولكن رنين المزمار ألهى الملك عن صياح الساخطين ، ومتى عبأ الفنان برضا العامة أو بسخطهم ؟!

وأخذ العرش يميد ، فلم تحجم الأقدار عن التعجيل بثله . إذ غزا الأسطول الرومانى جزيرة قبرص . وعزل القائد الغازى حاكمها المصرى وضمها إلى أملاك روما . فما ذاع النبأ فى الاسكندرية ، وقابله الملك بالاستخفاف ومواصلة الزّمْر ، حتى جُنّ جنون الشعب ، فاقتحم حرم القصر الملكى واقتض على مقصورة عاهله ، فقطع عليه فيض أنغامه وعكر صفو أحلامه ، وحطم قصبة مزماره وطرده من قصره ، ونصب ابنته بيرينيس ملكة على مصر مكانه .

لجأ الملك الزمّار إلى روما . وهبط هناك من علياء الفن إلى معترك الحياة الدنيا . وأغفل مطالب روحه فى سبيل مطالبه المادية . ولم يعد يعنى إلا باسترجاع حقه المغتصب والانتقام من مغتصبيه . أمنيتان حرص على تحقيقهما أشد الحرص ، فبذل فى سبيلهما مالا يجوز بذله . بذل مالا يعدله حتى ملك مصر . أراق ماء وجهه ، وذل لأعداء بلاده واستعدام عليها . ووقف على أبواب مجلس أعيانهم وديار حكامهم وساستهم وقادتهم ، يستجدى عطفهم ومعونتهم ، ويمنيهم بوافر الجزاء إذا مكنوه من العودة إلى قصره ، ومن تسلم المفاتيح الخاصة بخزائن الدولة المصرية .

وأمضى أربعة أعوام يتمسح فى ذيول العباءات الرومانية . ولكن

الصراع الذى كان قائماً بين زعماء الرومان فى سبيل السلطان ، وماتخلله من مصاولات وملاحم أهلية ، حال دون اهتمام روما بمروضه السخية، رغم طمعها القديم فى ثروة الديار المصرية .

ورضى يوليوس قيصر أخيراً بأن يتوسط لدى جابيانوس حاكم الشرق الأدنى الرومانى ، وحمله على تجريد جيش لغزو مصر ، وإعادة الملك المخلوع إلى عرشه ، فى مقابل مبلغ جسيم يتعهد الملك كتابة بدفعه لكل من الوسيط والنصير .

ووقّع الملك وثيقة الدين غير عابىء بما يترتب على توقيعها من إرهاق بلاده . وضحك وهو يذكر شرقة قصره وأيام كان يوقع فيها ألحانه هاتفاً بنعيم الملك ومتعة الفن . وسافر إلى الشرق . ولم تقم صعوبة فى سبيل اتفاقه مع جابيانوس لانه أذعن لكافة شروطه بغير مراجعة . وسار فى حمى جيش رومانى شديد المراس ليؤدب الخوارج من رعيته .

وكان « ماركوس أنطونيوس » . الفارس المشهود له بقوة البأس فى الحرب . يتولى قيادة الكتيبة الرومانية الغازية . فلم يصادف عناء كبيراً فى قهر الجيش المصرى الذى جندته الملكة المتعصبة ، وولت عليه زوجها الأمير « أرشيلوس » ، وبعثت به إلى الشرق لصد الغزاة .

رأى أهل الإسكندرية طلائع الجيش الغازى قبل أن يتوقع أحد مجيئه . فلم يجد الحسان الفسحة من الوقت ليخلعوا ملابس التقشف التى ارتدوها فى عهد الملكة « برنيس » ، ويستبدلوا بها الثياب البيض الشفافة استعداداً للرقص على نغمات مزمار مليكهن المنتصر .

وحخل الملك عاصمته التى غادرها ثائرة عليه ضائقة الفرع به ، فإذا

بها ترحب بمقدمه أجل ترحيب ، وإذا بالطرقات تكتظ بجموع الشعب الهاتف ، والأسطح والشرف تغص بالحرائر ذوات الوجوه المشرقة الصباح . ولم يُبق الشعب على وردة أو زهرة فى حدائق المدينة إلا جاء بها لينثرها على الركب الملكى . وشاع فى الطرقات عبير الند المتضوّع من المباخر الموقدة فى كل مكان . واختلط بنفحات الورود والرياحين . وبهرت الإسكندرية الغزاة الرومان . وخلب لبّهم سحر جمالها الشرقىّ . وسحر عطورها الشرقية . وخفق قلب « أنطونيوس » أوّل ما خفق لفتنة الشرق فى ذلك اليوم الزاهر الأريج .

ولم يضمّ هذا المهرجان المنطوى على الفاكهة والرياء فرداً واحداً صادق الشعور يضمر مثل الذى يظهر من غبطة وطرب برجوع المليك من منفاه غير ابنته كليوبطرة التى أحبته كما أحبها ، وحفظت عهده فى غيبته كما حفظ عهدها .

عاشت أثناء غيبته وحيدة منبوذة من الكافة ، تظهر تعلقها بوالدها المنفىّ غير عابئة باضطهاد أختها الملكة . وكم جلست فى شرفته تذكر أنين مزماره فيعتصر الألم والحنين قلبها الرقيق . وها هى اليوم تطل من نفس الشرفة لتشهد عودة حبيبها المنتظر . ومما ضاعف جذلها فى ذلك اليوم السعيد ما بدا لها من تحول كراهية الشعب لأبيها إلى هذا التعلق به والإخلاص له .

وتهادى الموكب مقبلا صوب القصر . وتبينت الأميرة والدها واقفاً فى عربته الملكية ، فهالها ما شقه من وهن ونحول . ومما زاد نحوله ظهوراً وقوف القائد الرومانى « أنطونيوس » إلى جانبه . ذلك

الذي المرحى المشكين القوى العضل المتين البنيان الملقب « هرقل » .
فأظهر الضد تباين الضد .

وما اقترب الموكب من باب القصر حتى غادرت الشرفة راكضة .
وانحدرت من درجات السلم واثبة . وجرت إلى الطريق وتخللت من
صفوف الجماهير إلى عربة والدها ونادته صائحة . فالتفت وامتدى
بصره إليها حتى أشرقت حول وجهه هالة من البشر والنعيم ، وانحنى
ومدّ إليها يده وجذبها إليه ، فقفزت إلى العربة في رشاقة ، وبادلته
قبلات حارة ، ودارت بعينيها السوداوين الواسعتين إلى قيصر والدها
وحيّته خجلة . فاضطرب هيكله الضخم لتحية الفتاة الصغيرة ، وخفق
قلبه على نغم صوتها الموسيقى .

ولم يكن أنطونيوس قليل الخبرة بالنساء . بل كان معبود غادات
روما . يتهالك حسانهن عليه . ولكنه رأى اليوم . إذ رأى كليوبطرة
جمالا لا عهد له به . جمالا لا ينبت غرسه إلا في الشرق . يجمع بين
الطلاوة والعذوبة والخفة والنفاذ إلى سويداء القلب . وكانت كليوبطرة
في تلك الساعة باهرة حقاً . كانت خفاقة الصدر موردة الوجنتين
مؤتلقة العينين من أثر الجرى والوثب ، ومن اغتباطها بلقاء والدها
المحبوب بعد غيبته الطويلة .

دخلوا القصر واجتازوا بهوه الكبير . ودخلوا قاعة العرش . فرأى
أنطونيوس مظاهر الأبهة . ورأى من الرياش الثمينة . ومن الزخارف
الفنية الرائعة ما لم يخطر له نظيره في أحلامه وتأملاته . وجلس إلى
جانب الملك مع أعضاء الأسرة الملكية والحاشية . ولحظ اهتمام

كليوبطرة به وإدامتها النظر إليه . وشعر بأنها هى الوحيدة الفرحة بعودة الملك . وهى الوحيدة الحافلة بجميل نصير الملك . فزاده هذا الشعور تعلقاً بها .

ومن كان يخطر له وهو يرى كليوبطرة متضية بجوار أنطونيوس ، أن هذه الفتاة الحيية الوديعة التى لم تتجاوز العام الرابع عشر من سنها سوف تعصف بهذا الطود الراسخ عصفاً . سوف تستعبد روحه الثائر الحر . وتملك عليه قياده . وتدفعه أنى تشاء فلا يستطيع العصيان أو النجاة منها . ولن يلبث أن يودع عيشة الهدوء والرخاء لينعم بقربها . ويبذل كرامته ومجده وشرفه ليحفظ عهد حبها .

يوليوس قيصر فى الإسكندرية

ما أسلم الملك ابنته « بيرينيس » وأشياعها إلى الجلاد حتى انتقم من البلاد التى تألبت عليه فيما مضى بإرهاق كاهلها بفرض ضرائب فاحشة أحالت رخاءها إلى ضيق ، ونعيمها إلى شقاء : ولم يشغله عن مزاوله إلا جمع الأموال وتكديسها ونقلها إلى روما والشام وفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه لقيصر وجابيانوس . ولكنه لم ينعم بملكه غير ثلاث سنوات أصابه الموت على أثرها ، فذهبت الدماء التى أراقها ، والأموال التى استلبها ، والحقوق التى استباحها ، واستعداء أعداء بلاده عليها ، ثمناً باهظاً لمتعة دنيوية غرّارة لم تدم غير فترة وجيزة :

ونصت وصيته على أن يخلفه على عرش مصر كل من ابنتــــه كليوباطرة وابنه بطليموس ، على أن يعقد عليهما طبقاً لسنة الفراعنة .

وسافر ووريثا الملك إلى منفيس حيث أجرى كهنة معبد « آمون » عقد زواجهما ومراسم تنصيبهما ملكين على مصر . وأميرين على السودان والحبشة والشام . وعاد إلى الاسكندرية عاصمة ملكهما فى موكب جدير بملكىّ مصر المحبوبين .

وما تولت كليوباطرة زمام الملك حتى أخلفت ظن وزرائها فيها . فقد عالوها فتاة غريرة بجمالها الفتان ، منصرفة عن مشاغل الحكم إلى نزعات نفسها . فإذا بها ملكة مستبدة برأيها ، معتزة بسلطانها ، بصيرة بأمور ملكتها ، لم يفلح واحد من وزرائها الدهاة فى التغرير بها ، وقضاء أربه على حساب مصلحة الدولة . فأوغرت صدور ذوى المآرب والنايات . ودفعهم حزمها وعدلها إلى التآمر بها ، والسعى إلى الخلاص منها ، وحصر السلطان فى يد الملك الصغير الذى يستطيع الوقوف فى سبيلهم .

وأتاحت الأيام لأولئك المتآمرين أسباب نجاحهم فى ثورتهم على ملكتهم . إذ جاء بعض أبناء « بيولوس » — أمير الشام الرومانى — إلى الاسكندرية . ليحملوا الفلول التى تخلفت فيها من جيش أنطونيوس على العودة إلى معسكرهم . ولكن هؤلاء استمرأوا العيش فى العاصمة المصرية ، مدينة الجذل والنعيم ، والخير العميم ، وأبوا الإذعان لأمر حاكمهم . وساعد الأهالى على عصيانهم ، وطال الأخـــذ والرد بين الطرفين المتنازعين ، وتحول إلى مشادة عنيفة انتهت باغتيال الرسل . فأبت كليوباطرة إلا أن تضع العدل فى نصابه ، وأن تقضى على القتلة بالإعدام ، ولم يرق قضاؤها العادل فى عين وزرائها . ورامهم منها أن

تصدر مثل هذا الحكم الجرىء ، مستخفة بثورتهم ، ومستهينة بميول الرأى العام . وانتهزوا فرصة نفور الأهالى من تصرفها . فأخذوا ينثرون بينهم بذور الثورة .

وأعقب هذا الحدث المثير حدث آخر أبلغ منه إثارة . جاء إلى كليوباطرة «جنيوس» — ابن « بومبى » الزعيم الرومانى الخطير الذى خرج على حكومة يوليوس قيصر وشنّ عليها حرباً شعواء — والتمس من ملكة مصر أن تشد أزر أبيه فى كفاحه . وكانت الحكمة تقضى بتنحّى مصر عن ذلك النضال القائم بين المتنافسين الرومانيين على تولى السلطة فى روما . ولكن الرسول الوسيم تحدث إلى الملكة الصبيّة عن محنة أبيها أيام منفاه فى روما . وعن تفرّد أبيه « بومبى » بالعطف عليه ، ومدّ يد المعونة إليه فى تلك الأيام العصيبة . وعن الصداقة التى توشّجت بينهما وظلت معقودة الاواصر حتى أيامه الاخيرة ، وعن توطد الثقة بينهما حتى أن الملك الراحل استودعه وصيته الناصّة على تنصيب ابنته كليوبطرة ملكة على مصر . فمن حق الصديق القديم وصاحب الفضل الاول أن يطلب رد الجميل . وكانت رقة الفتى وعذوبة صوته وطلاوة حديثه خير شفيع له فى طلبه . وأثّرت نظرات التوسّل فى نفس الملكة العظيمة وحركت شفقتها . فأجابت رجاء راجيها ، وأذنت له بأن يعود إلى أبيه بخمسين سفينة مصرية محملة قمحاً .

ورأى الشعب ملكته تخرج فى صحبة الفتى الرومانىّ للتنزه أو لزيارة المعالم الفرعونية أو دار الكتب الشهيرة . ولم تخف عليه نظرات الود التى كانا يتبادلانها . ثم تراءى إليه نبأ المنحة الملكية . وأبصر فى أحد

الأيام فلاح سفن القمح تدفعها الرياح غرباً . فأطاو هذا المنظر صوابه ، وأثار ثائره . وكانت الملكة تشاهد من شرفة قصرها نفس المنظر ، فجاش فى صدرها شعور يختلف عن شعور شعبها . شعور تبلو نظيره كل فتاة فى مقتبل عمرها وهى تودّع أول فتى جميل رفّ له قلبها المتفتح للحب والجمال .

وكلفها عطفها على الفتى الوسيم عرشها . إذ اعتمد وزراؤها على سخط الشعب وهياجه ، فاستعانوا به على خلعها ونفيها من عاصمة الملك كما نفى أبوها من قبل ، وخرجت صاحبة العرش من بلدها وحيدة ذليلة مشيّعة بصيحات الحنق والبغضاء .

فجاءت إلى ممفيس تستنجد الكهان الذين زيّنوا من قبل رأسها الجميل بتاج الإمارة ، ونادوا بها ملكة الملوك وخلعوا عليها لقب «حبيبة الشعب» ناشدتهم أن يميلوا إليها تاجها المغتصب ويحقوا حقها المهضوم ، ويرعوا فى كنانة الله أصول العدل السماوى . فلم تر توسلاتها غير عطفهم وإشفاقهم . ولكنها لم تقض قضيتها فتيلا . لأن كهنة ممفيس كانوا أحرص من أن يثيروا حرباً أهلية فى سبيل نزاع قائم بين ملكيها الشقيقين القرينين .

على أن كليوبطرة كانت ابنة أبيها العنيد الذى استطاع أن يسترد تاجه رغم ما قام فى سبيل استرداده من صعاب . فلم يوهن عزمها خذلان الكهان لها ، ولا خشيت الشدائد الحائلة بينها وبين غايتها . وطافت بالبلاد مستبسلة داعية رجال النخوة إلى نصرتها ، فتجاوبت على رنين ندائها بعض الأصداء وهرعت إليها طوائف من النصراء .

وتجشمت وعثاء السفر إلى الشام لتدعم أنصارها بعدد جديد. ولم تلبث أن التف حولها عسكر لجب زحفت به إلى الإسكندرية من نفس الطريق التى سلكها والدها من قبل على رأس أنصاره الرومانيين.

وأبى طالعها السعيد أن يلتحم الجيشان المتخاصمان، وأن تراق فى سبيل قضيتها الدماء، وأن يتعرض أتباعها لويلات الحرب ومفاجآتها غير المأمونة. فجرت فى الإسكندرية أثناء غيبتها حوادث مهدت لها النجاح من أهون طريق.

هزم يوليوس قيصر غريمه «بومبى» الذى هرب إلى الإسكندرية لائذاً بحليفه ملك مصر التى لم تضن على ابنه «جنيوس» بمعونتها الصادقة. ولم يكن يعلم بالكارثة التى دهمتها من جراء هذه المعونة. وبعث برسول يلتمس له الإذن فى دخول المدينة. فاجتمع وزراء الملك الصبى لينظروا فى ملتمسه. وكان رأيهم الغالب أن يوصدوا أبواب المدينة فى وجهه صوناً لحياد مصر، وتفادياً للزج بها فى نزاع لا شأن لها به. ولكنّ العلامة تيودوت المشهود له بالتبصر والدهاء لم ير رأى الأغلبية، وأظهر خوفه من أن يلتقى هذا القائد المغوار — إذا أخلىَ وشأنه — بحليفته كليوبطرة، فيحاول ردَّ جميلها، ويعاونها على تحقيق أربها، فلا بد إذاً من سد الطريق إليها فى وجهه.

ووقع اعتراض «تيودوت» أبلغ وقع من نفوس زملائه لأن مجرد اسم «بومبى» كان يلقى الرعب فى القلوب. كان الرومان يدعونه «إسكندر زمانه». كان سيد روما المتفرد بالسلطان منذ عام، وهو لما يزل ذا حول وطول، متمتعاً بثقة الأتباع والأشياع، فكيف

تترك الإسكندرية طليقاً ، وتتعرض لكرّة عليها وبطشه بها ؟!

ولكن إيواءه لم يكن كذلك من رأى الصواب . لأنه يغضب قيصر المنتصر . فلم يجد المتداولون مناصاً من الاتفاق على قتله ، ورأوا أن يأخذوه بالحيلة ، وأن يستدرجوه إلى الشاطىء . فابلغوا رسوله بأن فرعون مصر يرحب بمقدمه . ودخلت سفينته الميناء ، وألقت مرساها على مقربة من الشاطىء ، ووقف على ظهرها بين زوجه وأولاده ، ورأى الملك ووزراءه يستعدون لاستقباله . وجاءه قارب ليقله إلى البر حيث اصطف المستقبلون . وما اصطدم القارب بحاجز مرساه حتى تقدم إلى الضيف ضابط ليعينه على النزول ، وأخذ يده بيده اليسرى وجذبه إلى الشاطىء . وفى سرعة ومض البرق استلّ خنجره بيمناه وأودعه بين كتفى الزائر الآمن . ثم انكب على الجثة بعد همودها ، وجزّ رقبتها . وحمل رأسها من جدائله . وذهب به صوب مستقبليه .

واجه الملك ووزراؤه المشهد المروع واجمين . وشاهدته زوج الصريع وأولاده من ظهر سفينتهم صارخين نادبين . ونسى الملك هول ما رأى وهو يمنى نفسه ، فى طريق عودته إلى قصره ، بصداقة قيصر وتأييده . وظل أهل القتيل وأشياعه على حلمهم وشَدَهِهم . ولم يزدادوا إلا تقززاً من اغتيال عميدهم على هذا الوجه الدنىء . لأن مصرعه لم يكن إلا مصرع كل أمل لهم فى الحياة .

ولم تمرّ أيام على هذه الفاجعة حتى ظهرت سفن قيصر خارج ميناء الإسكندرية. كان يجدّ وراء خصمه المنهزم الهارب . فأنزل إلى الشاطىء رسله ليستخبروا أخباره ، فعادوا إليه بنبأ مصرع خصمه ، وبرسالة من

فرعون يعلن فيها صداقته ، ويدعوه إلى زيارته ؛ فلم يطمئن إلى هذه الدعوة . وبينما هو متردد بين إجابتها ومواصلة السفر ، خرج إليه « تيودوت » فى قارب يحمل رأس غريمه ليثبت حسن نية فرعون وولاءه .

وجُوبه الوزير المصرى بما لم يكن يتوقع ، إذ ما أبصر قيصر رأس بومبي المجذوذة الدامية حتى تحدرت عبراته .. كانت بينهما صداقة قديمة غطى عليها الطموح وتنازع السلطان ، وأذهلهما احتدام المنافسة بينهما عن كل ما عداه . فلم يفكر كل منهما إلا فى إصابة هدفه ، ولم تضطرم فى صدره إلا شهوة الغلبة والسيطرة . ولكن رأس بومبي أسدل على حين فجأة الستار على تلك المأساة ، فأفاق قيصر من غشيته ، وتكشف له الواقع على حقيقته ، ورأى على ضوء حكمة الموت ما تنطوى عليه مظاهر الحياة من خداع وتمويه ، ولذعت فؤاده حرارة الصداقة القديمة التى كانت تربطه بقتيل اليوم .

وسمع الوزير المصرى إجهاشه بالبكاء ، فانخلع قلبه فرقاً ، ودبت الرعدة فى مفاصله ، وانسل متوارياً عن بصره قبل أن ينتبه من غمته ، ويفكر فى الاقتصاص منه

قيصر وكليوبطرة

ـ مثل هذه المواعظ تحز فى الإنسان إلى أمد ، ثم تعود أعاديع الحياة إلى استلابه وصرفه عن اللباب إلى العرض ، وحثه على اقتفاء سراب المطامع الدنيوية .

ومرعان ماتسى قيصر صديقه الأنكد الطالع وسط مظاهر الحفاوة به فى الإسكندرية . نزل قيصر ربحيا لأن بطليموس كان يقطن فى ذلك الحين بقصره البحرى ، ورأى فى ذلك القصر مالاعهد لروما بمثـــله زخارف وتماثيل من أبدع ما نمنمته يد فنان ، ورياش مقتناة من أنفر ماأبدعته القرائح الشرقية العبقرية وآنية وتحف لايزدان بمثلها إلا قصر فرعون مصر ؛ وجلس سيد روما على الأرائك المصرية الوثيرة ، فاستطاب العيش الهنيء الرخى بعد معيشة روما الخشنة .

وأراد أن يصلح ذات البين ما بين ملـكى مصر المتنابذين حقناً للدماء التى مبج منظر نجيعها المسفوك ، فنادى بأنه على استعداد للتوفيق بينهما بشرط أن يجرد كل منهما جيشه من سلاحه ويسرحه . فلم تتوان كليوبطرة عن تلبية ندائه . وهل تحتاج كليوبطرة الساحرة الفاتنة إلى جيش تجابه به يوليوس قيصر ؟ ! ولـكن بطليموس أبى ذلك التوسط فى الصلح . وصمم على أن ينفرد بالملك .

وبادلت كليوباطرة قيصر الرسائل ، لتزيد حنقها وهل يجدى تبادل الرسائل فى أمر يحتاج تمحيصه إلى المحاجة والجدل ؟ ولم يكن للملكة المنفية صديق أمين يدافع عن قضيتها فى غيبتها . وخلا لشقيقها الجو ، فامتن على قيصر بأنه أراحه من خصمه المهيب . فى حين أن كليوبطرة كانت تعين ذلك الخصم عليه . وزعم أن الشعب المصرىّ ، صاحبَ الرأى فى اختيار حكومته ، يريده ملكاً عليه بغير شريك . ومنّاه برشوة غالية يؤديها إذا ما عدل عن تدخله فى النزاع القائم بينه وبين شقيقته . ورابطت كليوبطرة خارج أسوار الإسكندرية متململة متطيرة ، تحسب

حساب دس أخيها ، وتخشى انصياع قيصر له ، وتحترق رغبة فى لقاء قيصر واثقة من نجاحها فيما إذا أتيح لها لقاؤه ، ولكن من أين لها الوصول إليه وجيش أخيها يقطع عليها الطريق ؟

وشاورت أمينها « أبولودوروس » فى استنباط حيلة تنفذ بها إلى قصر « رتيجيا » . وكان أمينها اديباً خصب الخيال ، قرأ قصص كتاب الإغريق ومسرحياتهم المشحونة بطرائف الحيل الروائية . فأخذ يعرض عليها الفكرة بعد الفكرة مما أفاد من قراءاته حتى قرّ رأيهما على قرار .

وبينما ميناء الاسكندرية تضيق بالسفن التجارية والحربية وقوارب الصيد ، انساب بعد الأصيل زورق حقير ما بين تلك المراكب حتى وصل إلى مرفأ « ريجيا » ومَن كان يستطيع أن يحزر أن مصير هذا الزورق يغيّر تاريخ مصر وتاريخ روما على السواء ؟ لم يلتفت إليه أحد . ولو علم الناس أمره لتكالبوا عليه من كل صوب ، ولطارده أسطول بطليموس بأسره . وجلس فيه أبولودوروس متنكراً فى زى جندى من جند الملك وظهر عند قدميه كيس ملقى على الأرض يتحرك بين حين وحين . وما استقر الزورق عند مرساه حتى قام الجندىّ المتنكر وحمل الكيس على ظهره . ودخل به القصر بزعم أنه كيس مؤونته .

وما اطمأن داخل القصر حتى حلّ رباط الكيس فخرجت منه كليوبطرة ، وعمدت إلى صف شعرها ، وتجميل وجهها ، وإصلاح هندامها . ودخلت على قيصر غرفته ، ووقفت أمامه فارعة القدّ عالية الرأس . فرفع إليها بصره ، وما تبين ذلك الوجه الجميل — تلك السماء

التي جمعت بين العذوبة والجلال ، وبين الرقة والأنفة — حتى أدرك أنه في حضرة ملكة مصر .

رأى أبدع مثال للجمال الشرقيّ الذى سمع عنه ، رأى طلعة لم تمتز بقسامة السمات وتناسقها فحسب ، ولكنها تعتصر القلوب وتجذبها إليها جذباً . رأى الخفة والرونق والبهجة بما لم يشاهد لها نظائر في أوروبا ، فهب واقفاً مبهوتاً .

حيته بابتسامة خفيفة ، وتقدمت إليه في تؤدة ، وجلسا متجاورين . وحدثته بلباقة عن حاجتها ، فأنصت إليها مأخوذاً بحديثها ، وأسكره صوت له عذوبة الغناء على مافيه من جِدّ ، وبهرته معان لم يألف سماع أمثالها في مجلس الأدب في روما . وجد الفنون محشودة أمامه . من صورة لا تدانيها في الحسن صورة أبرع رسام ، إلى صوت لا تحاكيه أعذب موسيقى سمعتها أذنان ، إلى حديث ذى معان دقيقة لم تصل إلى سبحاتها قرائح الكتاب والشعراء . ولم يخف على الملكة الحصيفة أن الحكَمَ الذى لجأت إليه لينصفها ، لم يلبث أن وقع في حبائلها وصار تبيعها المطواع .

وإذا كان حسن كليوبطرة أذكى شعوره . فقد أثار احتكامُها إليه ، وهى الملكة المتعالية ، زهوه وغروره . زهاه أن يوكل إليه توزيع التيجان بين الملوك ، وأن يكون في قدرته رد صولجانها إليها ، وتزيين رأسها الجميل بتاج الملك .

وكان يجاوز حدّ الخمسين من عمره . فأرجعه صباها إلى ميعة الصبا وبثت فيه خفته وحرارته ، وما رفرف روحه المتعب حول طلعتها

الوسيمة ، واستراح فوق خدّها الأسيل ، وسبح فى أضواء عينيها اللألاءتين ، حتى احتواه جو عالم جديد ، وتضاءلت فى ذاكرته معاهد روما وعلاقته بها ، وامتد بينه وبينها بون مديد .

وجاء بطليموس فى الصباح يزور ضيفه . فوجئ إذ دخل عليه قاعة الاستقبال بما لم يتوقع . شاهد كليوبطرة ، زوجه وشقيقته ، متكئة على أريكة الملك إلى جانب قيصر . وأدرك من جلستهما ما توطد بينهما من ود وألفة ، فتولاه غضب كغضب الأطفال، ونزع تاجه فى فورة جنون وألقاه على الأرض قرب موطئ أقدامهما . وخرج يغتم غيظاً ، ويكيل لشقيقته السباب .

وهبط إلى الطريق . وأخذ يصيح كالمخبول ، ويتهم شقيقته بالكيد له ، وصهما يبيع نفسها وبلادها للرومانى الدخيل ، ويستعدى الشعب على الشقيقين الغادرين .

وجاشت سورة الغضب فى صدور الجماهير ، ودب دبيب الثورة فى مفاصلهم ، وهاجت نزعةُ الانتقام مهاجهم ، وتجمهروا حول القصر يتصايحون ويتوعدون الخائنين بأنكد مصير .

وأراد الزعيم الرومانى أن يأخذهم على طريقته ، ويجابههم بقوة عسكره ، فأمر حرسه بتشتيت شمل المتظاهرين بحد السلاح . فكان جهله نفسية الإسكندريين فاحشا . كان يؤمن بالقوة ، ولا يعرف غيرها وسيلة لردع خصومه . فإذا عجرفته تستثير فى الإسكندريين كامن عجرفتهم ، والعنف يهيج ساكن عنفهم ، وإذا هم ينقلبون أسود شرى ، ويشتبكون بحرسه ، ويقتلون منه عدداً غير قليل .

وحاصر الثائرون القصر فأصبح سيد روما وقاهر الملوك سجيناً قيناً بالشفقة والرثاء . وغدت حياته رهينة بهجمة جريئة يقدم عليها الإسكندريون . ولكن كليوبطرة تداركت الموقف قبل استفحال خطره. وهل يُعجز مِثلَ هذا الموقف مثلها ؟ علمت القائد المغوار أن السياسة قد تكون أمضى من حد السيف . ورسمت له خطة النجاة من ورطته فانصاع لرأيها . وهل كان له محيص عن اتباعه ؟ اقترح على الثوار الصلح ، وأعلن استعداده للمفاوضة فى أمره ، والموافقة على حل عادل يرضونه . وجاء رسل بطليموس لبحث شروط الصلح ، فأعاد على مسامعهم الدرس الذى تلقنه من أستاذته . ذكرهم بوصية مليكهم الراحل ، وحادثهم عن حرمة مشيئة الميت ، ثم جاءهم بأصل الوصية فقرأه عليهم . وتكفل بأن تعدل كليوبطرة فى حكمها فيما إذا رُدَّ إليها حقها . ووعد بأن تعيد روما إلى مصر جزيرة قبرص فيما إذا أبرم الصلح . وخرج فى صحبة الرسل إلى شرفة القصر ، وأعاد تلاوة الوصية على الملأ المحتشد ، وكرر وعوده وعهوده مقسما بكل يمين على توخى الإخلاص فى تنفيذها . وقبل بطليموس عروض قيصر بعدما رأى من انخداع شعبه فيها ، ونزل قصرَ ريجيا ، وأقيم هناك مهرجان باهر لمناسبة الصلح السعيد .

ولكن الغوغاء عادوا إلى إثارة الشعب . وروّج بعضهم الإشاعات عن استيلاء قيصر على كل ما حوته خزائن الدولة وطمعه فى الآثار وكنوز المعابد والمقابر الفرعونية ، وتحيّن الفرص لنهبها . وغلت مراجل حقد الشعب من جديد ، ودار القتال فى الطرقات بينه وبين

الحرس القيصرى» ، وعاد الخطر يتهدّد ضيف مصر . ونصحه أحد الوزراء المصريين بأن يرحل إلى بلده مشيراً بأن الصلح انعقد بين الملكين الشقيقين فلم يبق من داع لبقائه فى الإسكندرية . ولكن أنى له الرحيل ومفارقة كليوبطرة!

وأراد أن يدعم حقها ويؤيد ملكها بالقوة . فأرسل إلى آسيا الصغرى يطلب حملة عسكرية لإعادة النظام إلى نصابه فى الإسكندرية . ولكن حرج الموقف تفاقم فى فترة انتظار المدد . وأشعل وزراء بطليموس النار فى الهشيم ، وتمكنوا من إقناع «اشيلاس» قائد الجيش المصرى بمهاجمة معقل الأجنبي الفضولىّ . وكان طريق البحر لا يزال مفتوحا لقيصر ، فلم ير النجاة منه رغم تحرّج حاله . وجابه أمّة حانقة وجيشاً غاضباً فى سبيل عينىْ كليوبطرة الساحرتين . دعاه واجبه إلى روما ، وقضت أصالة الرأى بتراجعه عن موقفه . ولكن هل يستطيع أن يخذل كليوبطرة؟ هل يستطيع أن يهجرها؟ هيهات!

ولم يحمه فتكَ الجيش به غيرُ وجود بطليموس أسيراً فى قبضته وخوف الشعب على مليكه من غدره به إذا هاجم الجيش القصر . وفكّر الوزراء فى حيلة يستلّون بها الملك من أسره . فلجأوا إلى وسيلة قيصر السابقة . وتظاهروا بالرغبة فى الصلح . واشترطوا لعقده إطلاق سراح ملكهم . وتلكأ قيصر فى إجابة مطلبهم حتى يطمئن إلى اقتراب المدد المنتظر . وإذْ وصلت إليه أنباؤه سلّم إليهم ملكهم . واغتبط بأن يعيده إلى الثوّار ، وبأن يضعه فى موضع المعتدى حتى يستطيع مصارحته بالعداوة من غير تعرض للومة لائم .

وجاء المدد المرتقب . ووقعت الواقعة بين الرومان والإسكندريين ، وانتهت بفوز الأولين بعد نضال حامى الوطيس ، وبموت فرعون مصر غريقاً . فخلا الجو لكليوبطرة ، وانفردت بالعرش المتهالك عليه . وحقق قيصر أعزّ أمانيه .

ولكن كليوبطرة لم تقنع ، وإنما تجدّدت لها — بعد تحقق أملها — آمال أضخم منه وأعرض . فهي تريد أن تصير إمبراطورة تجلس على أريكة عرش روما إلى جانب قيصر ، وعند سلطان الماهلين من بلاد الفرس شرقاً إلى البرتغال ومراكش غرباً . وأفضت إلى قيصر هاوحامها بهذه الأحلام ، وعرفت كيف تظب له وتلهب صدره بسراب الأوهام .

وقضيا ليالى شائقة تحدّثا فيها عن مستقبلهما البسّام ، وحلا لقيصر أن يسترسل مع كليوبطرة وراء الأماني السعيدة ، وأن يفكر في تزوّج الملكة الصبيّة الجميلة ، والجلوس معها على عرش تدين له أمم الأرض بالطاعة . ولكنه كان يقدّر ما يقف في سبيل تلك الأماني من عقبات عسيرة التذليل ، ولم يكتم عن صاحبته خوالج شكه في نجاح مشروعها ، فبذلت قصارى جهدها لتبديد شكوكه ، وشدّ عضده ، وحفزه إلى غاية الجد .

واعتادا أن يقصدا معا إلى دار الكتب وأن يستمعا إلى حديث علمائها عن سيرة البطالسة وما تحقق في عهد تلك الأسرة من دعم حضارة مصر وتنمية ثروتها وتوسيع فتوحاتها مما أعاد لبلاد الفراعنة عزّها بعد أن أشرف نجمها على الأفول . وامتلأت الملكة ، وهي تنصت إلى سيرة أسرتها ، زهواً . وازداد عاشقها بها إعجاباً . وقرآ معا

كتباً عن حياة الإسكندر عالم تسمع عنها روما شيئاً . كتباً انفردت مكتبة الاسكندرية باقتنائها دون سائر المكاتب . فعرف القائد الرومانى عن أعمال البطل المقدونى وآماله ما لم يكن يعرف . كان معجباً به منذ صغره . متمنياً نفسه بالتمكن فى يوم ما من اقتفاء آثاره . وهو اليوم يقرأ سيرته مطولة . ويفهم معنى نظرات كليوبطرة المغرية . فيتقد رغبة فى إتيان ما لم يستطعه أحد قبله .

وجاب معها أرجاء المدينة . وطاف بالآثار الفرعونية التى نمت له عن أسرار حضارة لم تبلغ أمة من الامم بعض مداها ، حضارة أزرت روعتها بنهضة اليونان . حضارة طوت مجد البطالسة كما طوت من قبلهم الأمم التى غزت مصر . حضارة أصغرت روما فى عين فتاها فإذا هو يراها وبلاد البربر سواء .

وكان يجلس فى ليالى القمر إلى جانب صفيته فى الشرفة الملكية المطلة على بحر الروم . ويعد أمامه الخوان المنسق أجمل تنسيق ، والمجمل بأفخر الآنية وأزهى باقات الورد والريحان . وينصت إلى الموسيقى المطربة ، وأغانى الحب الشجية . ويرى القانيات يرقصن فى خفة توقظ النفس من ركودها فيدنله صبابة . ويترنح زهواً ، وتختلط فى نفسه خوالج الهوى بخوالج الغرور . ولا يعود يذكر روما الواقعة على الساحل المقابل ، بعد أن كانت أطيافها تتخايل له كلما رقصت فى عينيه غوارب البحر القائم بينهما .

وأقلقت الرومانيين غيبة زعيمهم الطويلة ، وهدد بلادهم نوء حرب أهلية . فتطلعوا إلى ربانهم الماهر الواقع فى حبائل الساحرة

المصرية . وبعثوا إليه بالرسل فى إثر الرسل يستقدمونه . ولكنه تصامّ على ندائهم ، وآثر أن يظل عبد الملكة فى الإسكندرية ، على أن يعود سيد شعبه فى روما .

اضطرب أصدقاؤه وأشياعه وراء بحر الروم ، وتخوفوا على أنفسهم كما تخوّفوا عليه مغبةَ ترك أعدائه يثبتون أقدامهم فى ميدان السياسة ويكسبون الأنصار . وكان يُعزّ أصدقاءه ولا يتأخر عن نصرتهم كلما أهابوا به . ولكنه اليوم يخذلهم ويتركهم لرحمة الأقدار .

إنه يهمل قضيته فى روما . وأى قضية تلك !! لقد أنفق عمره الطويل مجاهداً مناضلا فى سبيلها . كان يتوق إلى السلطان ، فصار سيد الرومان بعد أن بذل للوصول إلى أمده شرخ شبابه وصحته وقواه وراحته ونعيمه ، وركب أهول الأخطار ، وعرّض نفسه للموت مرة بعد مرة . فهو لم يرث ملك روما ، ولم يصبه مصادفة . ولكنه اكتسبه شبراً شبراً بعد أن بذل فى سبيل كل شبر أثمن التضحيات . وما ابتسمت له كليوبطرة ووجبت بمكثه معها حتى صغر فى عينيه ملك روما ، وهانت لديه جهوده وتضحياته ، وفطن إلى لون جديد من النعيم غير الشعور بالقدرة والسيطرة .

وأعدت كليوبطرة العدة للقيام مع ضيفها برحلة نيلية طويلة تستغرق أشهراً . ووصلت قبل بدء الرحلة أنباء من الشرق والغرب تقضّ المضاجع . بدأت الحرب الأهلية فى روما ووقعت بين الخصوم السياسيين وقائع دموية فى شوارعها ، واندلع لهيب الثورة فى آسيا الصغرى واستفحل شرها ، ونجح ابن بومبى فى تجييش جيش مرهوب

الجانب فى شمال أفريقيا الشرقى يحاول أن يقتص به من غريم أبيه . تعددت الأسباب الخطيرة التى تستحث قيصر على تدبر الموقف ، وتستثير فيه حميته ونزعته إلى القتال . ولكن فتنة كليوبطرة أخضعت كل جارحة نابضة فيه ، والتى جعلها ستراً على عينيه فلم يعد يرى غيره . وقد حاولت هى أن تثنيه إلى رشده وأن تصور له خطورة الحال ، وترغبه فى العمل على وضع حد للقلاقل الشائعة فى بلاده والضرب على أيدى الخارجين عليه . ولكنه لم يقو على انتزاع نفسه من أحضان النعيم والزج بها فى وهج الجحيم . كانت الملكة تضطرب خوفاً من مغبة تهاونه فى أمر ملكه ، لأن بناء إمبراطورية مثل إمبراطورية الإسكندر الأكبر والجلوس مع قيصر على عرشها كان غاية غاياتها . ولم يكن قيصر بأقل رغبة منها فى تحقيق هذه الأحلام الخلابة . ولكن أنى له الإفلات من الحبائل التى تشده إلى جانبها ؟.. لم يعرف التاريخ امرأة غير كليوبطرة استطاعت أن تصرف عظيماً مثل قيصر عن تحقيق أطماعه . وأن تشغله بمحاسنها الأنثوية عن مواصلة السعى فى سبيل المجد ، وتصم أذنيه عن غناء عصره الذى يحدوه إلى تحقيق غاياته .

وتهادى المركب الملكىُّ على صفحة النيل . يتبعه مائتا مركب تقل الحاشية والجند . وابتدأت رحلة آثر بها قيصر على ملك روما وعرش إمبراطورية أحلامه ، واستهان فى سبيلها بالمجد الخالد . ابتدأت الرحلة إبّان الربيع ، ووقف قيصر على ظهر السفينة يملأ عينيه من ألوان المروج الزاهرة ، ويستاف نفحات النور العابقة ، ويستمع إلى تغريد الطيور الطروبة ، ونسى الماضى البعيد والقريب ، حتى أذكره تمايلُ

سنابل القمح تماوج بحر الروم ، ولكن نظرة كليوبطرة استرجعته إليها من شروده ، فتأملها وقد رققت مباهج الطبيعة حاشيته ، فازداد تدلهاً في حبه . وكذلك زاد الحب رقة ، فضاعف إعجابه بالطبيعة وإحساسه بروعتها . وتشابهت المناظر ولكنها لم يملّها ، ولبث يشاهد تعاقبها . حتى إذا مالت الشمس للمغيب انجلى الأصيل عن أبهى صور الطبيعة . فقد نفضت الشمس الغاربة الفانية تبرها المتلألىء على الحقول على صفحة النيل ؛ فاكتسى النبت والماء غلالة ذهبية تزرى بكل ماحوت خزائن الأرض من معدن الذهب الذى أضل صواب الإنسان .

ولم يبرح مكانه بعد توديع الشمس الغاربة حتى أذن قرصُها الشروق فهبّ لاستقباله ، وكانت ليلة لم يمر به مثلها فى حياته . ليلة نُصب فيها المهرجان الملكى وسط مهرجان الطبيعة . ليلة حشدت الملكة فيها كافة أسباب الطرب ، من جوار حسان بينهن الراقصات والقيان ، ومن منشدين وملحنين ، ومن سحرة ومشعوذين . وبدأت الحفلة قبل غشيان الظلام بألعاب السحر والشعوذة ، ثم سجا الليل لايتخلل سكونه غير ترنيم المجاذيف ، فتعالت ألحان المعازف ، وحملها النسيم الطلق إلى الأجواء البعيدة . فأخرجت الليل من صمته ، ودار على وقعها رقص يحاكى الموسيقى فى رقتها وانسجامها . وانكشفت السماء عن نجومها الراقصة ، وتلألأ الضوء السماوى فوق صفحة الماء ، فبدا كأن الطبيعة تشاطر الإنسان جذله ومرحه . وطافت الساقيات بالدنان ، وامتلأت الأكواب والصحاف بكل ما يُشتهى . وفاح من المباخر شميم الند ، ومن أردان الراقصات وأذيالهن نفح الطيب ، فنالت كل حاسة غايتها

من متع النعيم . نالت العيون ما شاءت من حسن منظر ، والآذان من رقة مسمع ، والأنوف من طيب رائحة ، والأذواق من أفخر مأكل ومشرب ، ودبت نشوة الطرب فى الأعصاب حتى شفّت الحقيقة الواقعة ، فصارت كأنها زخارف أوهام .

ولم ينقطع قيام المهرجان فى ليلة من تلك الليالى النيلية . وقام مهرجان آخر للحب تحايل لقيصر ولكليوبطرة . وعرفت الملكة الجميلة كيف تزيد عاشقها تعلقاً بها ، فبهرته فى كل آن بالجديد الجليل من خلالها التى انفردت بها دون سائر النساء . وجمع حديثها إلى عذوبة الصوت طلاوة المعنى ، ونمّ عما أفادته من مراجعة الكتب الأدبية فى مكتبة الإسكندرية ، ومن مخالطة العلماء ومجادلتهم ، واستيعاب أطرف معانيهم . فاجتمعت لديها الفطنة والخبرة مع البهجة والجمال مما أكسبها سلطاناً على الرجال لم يتح لغيرها فى التاريخ .

وظلت المراكب تصعد فى مجرى النيل وتجتاز الكفور تلو الكفور ، وتتصاعد إليها هتاف الشعب المحتشد على طول الشاطىء لتحية الملكة وضيفها . ولم تلق مراسيها إلا إزاء الأهرام حيث نزل الركب وقصدوا إلى ذلك الأثر الخالد الذى يشهد كل حجر فيه بما كان للفراعنة من سطوة وجبروت ، وما كان عليه مهندسو عصره من علم وكفاية . وعرجوا على أبى الهول الصامت الناطق بقدرة صانعه . ثم أقلتهم السفن إلى منفيس عاصمة مصر القديمة . ودخلوا المدينة المقدسة فراعت قيصر النصب والتماثيل القائمة فى أرجائها . وأدهشه تمثال رمسيس الثانى الذى لم ير فيما رآه من آثار الإغريق تمثالا يدانيه فى

ضخامته ومبلغ إتقانه . ودخل مع الملكة معبد آمون فضلّ بصره فى أرجائه الفسيحة . وفتنته روعة تصاويره ، وضخامة أعمدته المزينة بأزهى الألوان وأدق النقوش . وتأمل الآنية البلورية منضّدة فوق أعمدة قصيرة من المرمر . وتقدم إلى الموقد فرأى على ضوئه لألاء المذبح المرمرى . وغشيت الحاضر غشاوة من الإبهام الدينى ومن غموض التاريخ ، فازداد روعة على روعته . وأثر فى قيصر روح الحضارة الفرعونية أعمق تأثير . فطأطأ رأسه خشوعاً . وعادت به ذاكرته كذلك إلى روما فهانت إلى جانب ما شاهده من حضارتها ، وصغر شأن قوتها العسكرية البربرية .

وأرادت كليوبطرة أن تقتضب الرحلة وتكتفى منها بهذا الحد ورجعت تحاول إقناع قيصر بأن يعود إلى الاهتمام بشؤون إمبراطوريته، وبأن يرى له رأياً فى أعدائه قبل أن يجدجدهم، وتقع كارثة مستعصية العلاج . ولكن أين قيصر الآن من الإمبراطورية الرومانية ؟ هيهات صعيد مصر من روما ! وهل يستطيع مفارقة الجنان طوعاً ليصلى نيران الحروب اللافحة ؟ ووالت المراكب صعودها إلى أعالى النيل ، ومرت بدندرة ثم عرجت على طيبة ذات المائة باب . ولم يترك قيصر هيكلا أوصومعة لم يطرق بابها . ورأى فى كل يوم من فنون المصريين ما زاده ائتلافاً بها وتقديراً لها . وخيل إليه إذ طال عهد الرحلة أنه قضى عمره فى تلك البقاع القدسية ، وأنه لم ير روما إلا فى حلم بعيد العهد اختلطت معالمه . وظلت السفن تمخر النيل مصعدة حتى توغلت فى مجاهل السودان ، واقتربت من حدود الحبشة .

ويأبى قيصر إلا مواصلة المسير كأنما يشاء أن تدوم الرحلة إلى الأبد . ولكنّ نعيم الإنسان لايدوم ، ولا بدّ له من مفارقته كما فارق آدم جنة الخلد . ودارت السفن وكرّت راجعة إلى الإسكندرية . ولم يذعن قيصر لرغبة كليوبطرة وبقبل العودة إلى بلاده إلا بنيّة تحقيق حلمها الضخم ، وتهيئة عرش الإمبراطورية المأمولة ، وتقديمه هدية جديرة بملكة الفتنة والجمال .

وحان يوم الفراق ، وذهبت الملكة إلى الميناء تودع ضيفها الحبيب . وأثارت لوعة الفراق حنانهما ، فذهلا عن وقارهما ، ولم يكتما حبهما . وشعر قيصر بنظرات كليوبطرة الشفيقة تنزع قلبه من بين جنبيه . ورأى الدمع حائراً فى عينيها ، فكاد يرجع عن سفره ، ويعود فيلق بنفسه فى أحضانها . وأقلعت به السفينة ، وظل واقفاً على متنها يشاهد مدينة أحلامه وهى تغرب وراء الأفق . وأذكرته السفينة رحلة النيل . فما أقربها منه الآن وما أبعدها ! لم تمرّ عليها إلا أيام ، وتكاد تحول بينه وبينها فسحة الأبد . ونظر إلى السماء فبدت غائمة على الرغم من إشراقها . وإلى البحر فبدا أدكن على الرغم من صفاء زرقته . ولولا التعلل بلقاء قريب تتحقق فيه أحلى الآمال لما استطاع المضىّ فى رحلته ، ومبادلة مباهج نعيمه فى عاصمة مصر وربوع النيل ، بأباطح روما الجدية .

كليوبطرة فى روما

أثار شجنُ قيصر وضيقه بفراق حبيبه حقده على أعدائه الثائرين

عليه . كان يذكر عهد هواه فى مصر فيتحرق شوقاً إلى مناجزة أولئك الذين حرموه متعة ذلك النعيم المفقود . ولم ينشط فى حياته مثل النشاط الذى تولاه إذ ذاك ، ولم تتقد بين ضلوعه حمية . ولم تشد أعصابه عزيمة ، مثل العزمة والحمية اللتين أقامتاه وأقعدتاه وهو يقاتل باسم حبيبته الفاتنة وفى سبيلها .

أسرع إلى آسيا الصغرى وغزا دساكرها ومعاقلها فى مثل ومض البرق . وبعث من هناك إلى روما برسالته الشهيرة التى أرقصت مواطنيه طرباً . تلك الرسالة الموجزة التى لم تتضمن ، على خطورة شأنها ، غير تلك الكلمات الثلاث : حضرت ، رأيت ، قهرت . ، ثم كر راجعاً إلى ثوار أفريقيا فحطمهم فى موقعة طبسوس ، وأورد كاتون وسيبيون مورد الهلاك . ثم خف إلى أوروبا ، ودهم بلاد الغال فى سرعـــة العاصفة وهولها . فأسر زعماءها ، وسبى نساءها . وعاد إلى روما تحفه به روعة الانتصار . فتبارى أشياعه وأعداؤه فى إعلان غبطتهم بأوبته . وتعددت الأسباب التى أيدت سلطانه ، فقد أثارت غيبته الطويلة شوق الجماهير إليه ، وزادتهم القلاقل الحزبية ، والفوضى التى قامت فى أعقابها ، ورغبتهم فى وضع حد لها ، فرحا بعودته . وأضرمت انتصاراته الباهرة نخوتهم الوطنية ونزعتهم الاستعمارية . فاجتمع رأى الكافة على الالتفاف حوله ، والانضواء تحت كنفه .

ومهد هذا الانتصار طريق الوصول إلى غايته . وأخذ يحشد جحفلا لجباً لفتح بلاد فارس ، وتوطيد أسس الجمهورية المبتغاة . ولم يكن إنشاء إمبراطورية أحلامه بالأمر الهين الذى يتم بين شروق الشمس وغروبها ،

وإنما هو يستغرق طول الزمن وطول الجهد . وأبطأت الأيام فى تواليها ، وعاوده حنينه إلى كليوبطرة . وبعثت له الذكرى صور عهدها . فرآها جالسة على عرشها فى قصرها المرمرى ، وركب معها النيل من جديد ، واستاف نسيمه المحمّل بأريجها العاطر ، وشعرت أنامله بملمس جدائلها الناعمة ، وخدها الأسيل . فغلبه الشوق ، ولم يعد يحتمل البعد عنها .

وتم فى ذلك الحين تشييد معبد أراد قيصر أن يخصصه لعبادة الإلهة الزهرة « فينوس » . وكلف الفنان النابغة أشيلايوس بنحت تمثال من المرمر للإلهة الجميلة . وأية مفاجأة ألمت فوجىء بها الرومانيون إذ رأوا تمثال كليوبطرة منصوباً فى المعبد ! ذلك لأن الزهرة « فينوس » لم تكن فى نظر قيصر غير كليوبطرة ولم يكتموا امتعاضهم من خشوعهم فى كل يوم لتمثال الملكة الماجنة الممقوتة وعبادته .

وفهم قيصر أن شعبه لا يطيق الحبيبة التى يؤثرها . فقد عانى ذلك الشعب من استبداد ملوكه به فى العهد الخالى ما جعله يمقت حكم الفرد ، ويتعلق بالحكم الجمهورى ، ويقدّس الحرية السياسية . وكان يسمع عن استبداد الفراعنة برعيتهم ما غرس فى قلبه النفور منهم ومقتهم . ولم يخف عنه ما كان لكليوبطرة من تأثير سىء فى نفس زعيمه مما بدل خلقه بعد طول عشرته لها . فصار يصبو إلى السيطرة والتحكم ، ويفتنه أن يظهر بمظهر صاحب الحول والطول ، وأن يحيط نفسه بمخايل الأبهة والعظمة .

أدرك أن شعبه يمقت ملكة مصر . ولكنه لا يستطيع نسيان مصر وملكتها . كان يعتزم أن يحتمل البعد عنها حتى يغزو فارس

وينصب نفسه إمبراطوراً فى روما ، ثم يستقدمها إليه ويفسح لها جانبا من كرسى الحكم . ولكنه لم يستطع الصبر على مضض البعاد . وقهرته لوعة حبه الجامح ، وأرغمته على تعديل خطته ، وأوحت بأن فتنة كليوبطرة لن تلبث أن تستهوى شعبه كما استهوته ، فينقلب نفوره منها إلى حب وإعجاب .

وفى غمرة من ضلال الهوى دعاها إلى زيارته فى روما . . .

وما أهول ضلال المحب إذا أطاش الحب صوابه ! ودخلت الملكة الجميلة الأنيقة عاصمة الدولة الرومانية المتقشفة فى موكبها الفاخر . ورآها أهالى روما تختال فى ردائها الحريرى الشفاف المنمنم بالذهب ، وتزهى بأندر الحلى والرصائع ، وتحطو بجيد مطوّق بأثمن عقود اللؤلؤ . وتهادى وراءها الوصيفات الوسيمات تخطف زينتهن الأبصار ، ويمشى خلفها وخلفهن الوزراء والأمناء والعبيد البيض والسود . . . ولكن دهشة المنظر الباهر لم تلبث أن تطايرت ، وأعقبتها فورة الضغينة والحقد .

ووجد الشعب فى كل يوم دواعى جديدة لغضبه . فقد بالغ زعيمه فى الاحتفاء بضيفاته ، وأهمل زوجته كالبورنيا إهمالا مذلا . وأبدل خدمه وأتباعه الرومانيين بمصريين . وجاء من الإسكندرية بمهندسين وفنانين أحالوا له منزله المتواضع إلى قصر ملكى فخم . وأنشأوا فى حديقته حوضاً مرمرياً رحباً يتساقط عليه الماء من نافورة مذهبة . ونصبوا له التماثيل والمسلات المصرية . وانبعثت من القصر روائح العطور الشرقية . ورنّ فى أرجائه كل مساء رنين العزف ينبعه

الرقص . وغفل الراعي عن شؤون رعيته ، وتهل من رحيق الحب متلهفاً بعد أن برّح به ظمأه .

وأراد أن يظهر لزائريه مبلغ جاهه وعزوته ، أو أن يدخل في روعها أنه آخذ في توطين الشعب على الإذعان لحكم الفرد ، وتهيئته لقبوله إمبراطوراً أعطيه مطلق السلطان . فقسا في أحكامه وأخذ معارضيه بالعنف . وقضى بإعدام جنديين جرؤا على انتقاده . وتحدى ميول الشعب فلبس الحرير وتزين بالحلى الذهبية على نفور الرومانيين من مثل هذه الأناقة . وراجت الإشاعات القائلة بأنه يطمع في تاج الملك ليعظم في عين الملكة المصرية ، وبأن أنطونيوس قائد جيشه سوف يضع على رأسه ذلك التاج في إحدى الحفلات العامة ، فلم يعن بتكذيبها .

وكان تعلق الرومانيين بحريتهم وبشكل حكومتهم الجمهورية يغلب على تعلقهم بزعيمهم . إذ لم يكن ولعهم بزعيمهم إلا على أنه بطل الحرية المناهض لكل من يناوئها ويفكر في النيل منها . فلم يلبثوا أن تناقلوا عبارات التذمر همساً . ثم جرؤ المتهامسون فأعلنوا تذمرهم ، وتضافروا فصاروا عصبة متآلفة لقيصر يطرّد خطرها .

وزادت كليوبطرة أجيج الحقد اضطراماً . فأعلم ذوو الحاجات بأن قيصر لا يرد وساطتها حتى جاءها كبراء روما يوسطونها في حاجاتهم . فسنحت لها الفرصة لتقتص من أولئك المتعجرفين لأبيها الذى ذل لهم أيام منفاه في روما فأوسعوه إعراضاً وإزراء . . فجازتهم اليوم على عجرفتهم من جنس العمل ، وأمهلت كلاً من الواقفين على بابها أياماً

قبل أن تأذن له بالمثول بين يديها ، فجرحت الكرامة الرومانية جرحا لم ينسه لها ذلك الشعب المعتد بنفسه .

وأربى عدد الجيش المعد لغزو فارس على ما كان متوقعا . وراقب الشعب تزايده بعين الريبة . ورأى فى أطماع قيصر الاستعمارية التى لا تقف عند حد ما يؤيد شبهة تطلعه إلى الملك . وعلم باهتمام كليوبطرة بأمر تلك الحملة العسكرية ، فأيقن أن الزعيم وزائرته يتآمران بحكومة البلاد .

وتصدّى رجل من قادة الرأى فى روما يدعى « بروتوس » لمطامع قيصر ، وكان أحد أعضاء مجلس السناتو الرومانى . فقاد الحملة على الزعيم ذى المطامع المريبة . وكثيراً ما تتخذ الأقدار من أتفه الأمور أسباباً تتوصل بها إلى مراميها . وقد لعب اسم بروتوس دوراً هاماً فى تاريخ حياة صاحبه وتاريخ الجمهورية الرومانية . ذلك أن سمياً له سبق أن حرر روما قبل أجيال من نير آخر أباطرتها . فتذرع أنصار الحرية بتوافق الاسمين ليدفعوا به إلى القضاء على قيصر . ودخل فى روعه أن تسمّيه باسم بروتوس العظيم يفرض عليه اقتفاء خطاه ، والاقتداء به .

وازداد خطر الحركة الثورية استفحالا . ولم يفطن الزعيم لحرج موقفه . وهو الذى اشتهر فيما مضى بالحيطة والتبصر وبعد النظر — لان كليوبطرة أسكرت حواسه بنشوتى الحب والطموح . وغالى فى امتهان الرأى العام ، وغفل إلا عن توفير أسباب التسلية واللهو لخدينته . والظهور أمامها بمظهر السيد الأوحد الآمر المطاع . فأعاد عرض

المشاهد المروعة التي كان يلهى بها ملوك روما الطغاة الأقدمون .
ورأت كليوبطرة في ملعب روما الكبير تقاتل الكماة حتى يجهز الغالب
منهم على المغلوب . وشاهدت في بركة واسعة ملحمة بحرية تصادمت
فيها السفن الحربية ، وأحرق الفريق المنتصر مراكب الفريق المخذول
وأفناه قتلا وتغريقا . وتصايح الناس في كل مكان . « ألم يكف قيصر
ما أراق من دماء في الحروب التي شنها من أجل مجده وسلطانه ليتمادى
اليوم في إراقة دماء جديدة بريئة ؟ أيستهين بالدم الروماني الثاني ويهدره
لغير ما سبب إلا تسلية امرأة شرقية من جنس خامل ؟ ! » .

وأيقن الشعب أن المرأة الشرقية أفسدت زعيمه . ونشرت في
روما الخلاعة الشرقية والمجون الشرقي . وأنها سوف تقضي على الخلق
الروماني والروح الروماني . وأحس ألا مفر من وضع حد لهذه الحال .

وفي إحدى الحفلات العامة تقدم ماركوس أنطونيوس قائد الجيش
من قيصر وتاج الملك في يده ، وعرض عليه تتويجه به ، ولكن الزعيم
تظاهر برفض العرض . . . فصل مسرحي أراد به أنصار قيصر إيهام
الشعب بتمسك أميرهم بالنظام الجمهوري ، وبعده عن كل مطمع
ذاتي ، ولكن الشعب توجس خيفة من الفصل المسرحي ومن عقبى
هذه الأحاديث .

وتعلقت الآمال بالنائب بروتوس ، ووجد في أحد الأيام تحت
حشية مقعده في مجلس الأعيان وريقة تضمنت هذه العبارة « ليتك
تعيش في هذا العصر يا بروتوس » ، ودس لمثل هذه الوريقة في كل
مكان قصد إليه ، وتنوعت عبارات التحريض فيها « أنائم أنت

يا بروتوس ! » ومنها « أما آن أوان العمل الفصل يابروتوس ! » وهتف به الناس فى الطرقات « نحن فى حاجة إلى بروتوس » . وكبر الأمر فى نفسه . وصمم على إجابة هذه الدعوات ، وارتكاب الأمر الجلل ، وإنقاذ الحرية الرومانية من غاصبيها .

ولم تفطن كليوبطرة إلى ما كان يبيّت لقيصر فى الخفاء . وظلت تدفع عشيقها وبطلها إلى الغاية المرسومة غير مهمومة إلا بتحقيقها . وأسلم لها زمامه ، وحلا له اتباع طريق الإسكندر الأكبر الذى أعجب به منـــذ صباه . وتاق إلى احتذائه وترسُّم خطاه . ولم يعد يستطيع مداراة مقصده . وفاز معارضوه فى كل يوم ببرهان جديد يدعمون به التهمة الموجهة إليه ، ويزيدون به ثورة الشعب الغاضب تأججاً .

ولم يعد « بروتوس » يحتمل الصبر والسكوت بعد أن رأى النظام الجمهورى موشكا على الانهيار . وكان الجيش المعد لغزو فارس على أهبة الزحف إلى الشرق . ولم يشك أحد فى أن أشياع قيصر سينادون به إمبراطوراً بمجرد استيلائه على تلك الدولة الشرقية الغنية . فكان على بروتوس أن يضرب ضربته قبل سفر الزعيم إلى ميدان الظفر . وقع فى ذلك الحرج الذى يعانيه كلُّ من يجشمه واجبه أجسم التبعات وأفدح التضحيات . حسب ألا مفر له من قتل قيصر . وكان رجلا شريفاً وديع النفس ، يستهول الجريمة وينفر من الغدر والاغتيال . فراعه ما هو مقدم عليه ، وتولاه الاضطراب . وران على وجهه الاكفهرار . وفطنت زوجته إلى الأزمة النفسية التى يعانيها ، فظلت تستوضح أمره حتى أفضى إليها بما أضمر ، فشاطرته قلقه واضطرابه ،

ولكنها مع ذلك شجعته على المضى فى الطريق الشريف الذى رسمه لنفسه . فراحت تشجع زوجها حزما وتصميما على إنفاذ خطته . وحدد مع أعوانه يوم فصل الخطاب . وتزايد قلقه باقتراب الأجل المتفق عليه . وقضى أكثر لياليه ساهداً . وأنفقت زوجه وقتها فى الصلاة والدعاء له بالتوفيق فى مهمته الجليلة . وما ذهب إلى مجلس الأعيان يوم ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد وفى ذهنه الفكرة الهائلة التى صمم على تحقيقها ، وفى نطاقه النصل الذى أرهفه ليصون بحده الجمهورية من خصمها الخطير ، حتى استحوذ على زوجته رعب شديد ، ولم تستطع الصبر ، ولم تطق الانتظار فى دارها حتى يصل إليها نبأ الحادث الجلل . فغادرتها جازعة ، وهامت فى الطرقات مخبولة هاذية ، وفقدت السيطرة على أعصابها ، ولم تعد تفكر إلا فى الخطر المحدق بزوجها العزيز عليها . فاندفعت إلى المجلس لتحول بينه وبين ما هو مقدم عليه . ولكن السهم كان قد نفذ ، ووصلت بعد أن خر قيصر صريعاً مثخناً بطعنات النصال الحداد .

وانتهت الأحلام الجميلة هذه النهاية المروعة ، وعاد جمال كليوبطرة على قيصر بالوبال . وفازت هى من علاقة الحب الذى ألف بينهما بتاج الملك ، ولم ينل هو غير سوء هذه العاقبة . ولكن الطعنات التى أصابت منه مقتله أصابت كذلك أمانيها فى الصميم . وأفقدتها النصير الذى أيد ملكها ، وحمى بلادها شر أطماع الطامعين .

التقاؤها الأول بأنطونيوس

قابل الشعب الذى كان يمقت لقيصر الشر نبأ مصرعه بذهول ،

وتلقى البيان الذى أذاعه بروتوس عن أسباب جريرته بصمت عميق ، وظلت جثة القتيل ملقاة ، حيث وقعت تحت وابل الطعنات ، مدى أربع ساعات ، حتى جاء أنطونيوس لحملها وخرج بها إلى الشعب ، وعرضها عليه فى ساحة المدينة الكبرى ، وسائل الجماهير المحتشدة حوله فى حزن وجزع ظاهرين : « لأى أمر اعتدى الجناة على سيّد روما وزعيم الرومانيين ؟! إنهم يتهمونه بالتآمر على نظام الجمهورية والنزوع إلى إحلال الحكم الفردى محله لينفرد بالسلطان ، مع أنهم لم يريدوا بقتله إلا أن يقصوه عن طريقهم ليخلوا لهم الجو، وينعموا هم وحدهم بالحكم المطلق . إنهم لم يبعثوا إلا لهاتف الطمع الدنيوى الدنىء ، فلا تسمحوا لهم ، بعد ارتكاب جريمتهم الخسيسة ، بأن يلوثوا بأكاذيبهم سمعة زعيمكم الراحل . كيف تصدّقون مفتريات أولئك المغتالين الغادرين ؟! ألم يهتمّ قيصر بشأن كل فرد منكم ؟ ألم يحْنُ بعاله على فقرائكم ويعطف على ضعفائكم ويغث ملهوفيكم ؟ ألم يجاهد فى سبيل روما ؟ ألم يحتمل الشدائد ويعرّض نفسه للمهالك ليزيدها أملاكاً وغنى وعظمة ؟ أيكون جزاؤه من أبناء روما الرضا بتمزيق صدره الجيّاش بحب روما ، وقلبه العامر بالعطف عليكم والإخلاص لكم ؟! » .

والجمهور الحاشد هوائىٌّ العاطفة . قد تطفىء الكلمات المعسولة أجيج غضبه . وقد تثيره العبارات الناريّة فتنقلب وداعته الهادئة إلى ثورة فرّاسة وفورة فتّاكة . ولم يكد أنطونيوس يفرغ من خطابته حتى تحوّل إعجاب أهل روما ببروتوس الذى نصب نفسه بطلا للحرية وحامياً لنظام الجمهورية إلى نفور من جريمته النكراء ، ونزعة

إلى الاقتصاص منه ، وزادهم حقداً عليه منظر الجثة الذليلة الهامدة الملطخة بالدم المتجمد . منظر أعاد إلى ذاكرتهم ما كان يمتاز به زعيمهم من مظهر العزة والقوة والصولة . فتفرّقت نفوسهم شعاعا ورقّت إشفاقاً على معبودهم القديم . ولم يبق فى نفوسهم أثر لعاطفة حقدهم عليه . ونسوا صولته وجبروته ، وعلاقة حبه بكليوبطرة ، وانضواءه تحت إمرتها . وعاودهم إعجابهم به وحبهم له . ونادى مناديهم بطلب الثأر ، فرددوا النداء . وتدفقت جموعهم إلى دار بروتوس متوعدةً بالويل والثبور .

ولم يجد بروتوس وأعوانه بدّاً من الهرب ، فنزحوا من روما هائمين على وجوههم . وشرقوا صوب بلاد الإغريق ليجمعوا الأنصار والمؤيدين ويستعدوا لمنازلة حزب قيصر الذى خلا له الجو فى العاصمة الرومانية فقام بدعاية حارة واسعة النطاق ألب بها كافة الأهالى على الجناة الهاربين .

ومما أيد حركة القيصريين عثورهم بين أوراق فقيدهم على وثيقة أوصى فيها بتنصيب « أوكتافيون » ابن أخيه رئيساً للجمهورية من بعده ، فقضت هذه الوثيقة على انقسام الرأى وتناحر الزعماء فى سبيل الوصول إلى منصة الحكم . وأبدى أنطونيوس الإذعان لمشيئة زعيمه الراحل ، وبادر إلى مبايعة الرئيس الجديد الذى لم يكن يجاوز العشرين من عمره .

ولبى فرسان روما دعوته إلى الحرب . وسار على رأس جيش يتعقب إثر الهاربين . والتحم جيشه بجيشهم فى معارك دامية تعادلت

فيها كفتا ميزان النصر . وفزع كل من الفريقين المختصمين إلى كليوبطرة يمت إليها برسله مستنجداً . ولو انبعث الملكة المصرية هاتف ضميرها وميل شعورها لناصرت أشياع قيصر . ولكن صاحب العرش لا يستطيع إلا أن ينزل على أحكامه . وما كانت كليوبطرة المجربة لتستطيع الإنصات إلى وحي قلبها فى أمر قد يؤدى إلى فقدان تاجها . ولم يسعها إلا أن توازن بين الفريقين المقتتلين وتنحاز إلى الذى تتوقع له الغلبة منهما . وأشكل عليها الأمر فتريثت لعل الأيام تكشف عن خفاياه . ولكن تريثها لم يجدها . ووقعت فى حيرة إذ تبينت تعادل القوتين المتطاحنتين . لم تر مناصاً من بذل الوعود لكل منهما ومديد المساعدة إليه خفية من غير علم الفريق الآخر . ولكن نجم بروتوس بدأ يأفل ، واندحر جيشه فى النهاية فآثر الانتحار ، ودانت أوروبا الشرقية للغازى الجبار ، وخضعت آسيا الصغرى له كذلك . وأصبح أنطونيوس ملك الشرق غير المتوج ، يتسابق إلى كسب وده ذوو البأس والجاه ، ويسعى فى سبيل إرضائه الملوك العتاة . وزهاه أن تدين له الرقاب . وانتظر أن تحذو كليوبطرة حذو غيرها من ملوك الشرق وأمرائه ، فتوافيه مذعنة ، ولكنه أخطأ التقدير ، فطال انتظاره على غير جدوى .

وتذكر يوم دخول جيشه الظافر الاسكندرية لتأييد عرش أبيها ورسم له خياله صورتها وهى تستقبل أباها الآيب من منفاه سعيدة مرحة . ولم ينس النظرة التى ألقتها عليه فى ذلك الحين ، وما قرأ فى عينيها الالاقتين من معانى الشكر وعرفان الجميل . وكيف ينسى يوم

التى بكليوبطرة أول مرة ؟ ! ومن ذا الذى تقع عينه على صورتها المنفردة الجمال فلا يذكرها إلى آخر العمر ؟ !

واطردت صور الذكرى ، فرأى الملكة الفاتنة تدخل روما مختالة فى موكبها الفخم ، مباهية بسحر جمالها ، مخمورة بمظاهر جاهها . وهبّ عليه أريج ذلك العهد العاطر ، وملأت أذنيه أهازيجه الراقصة . وذكر لهفته على الملكة الحسناء ، وكيف كان يغبط قيصر على تنعمه دونه بحسنها الفتان . وقد آن أوان تنعمه هو أيضاً بجنى ذلك الحسن الناضر . . . ألم يصبح اليوم أمير الشرق ؟ ! أما هو خليفة قيصر الفعلى ؟ ! إن أوكتافيوس ، لم يعدُ أن يكون تمثالا نصب فوق منصة الحكم . ولكنه هو الذى يصرّف زمام الأمور . وهو قاهر بروتوس ، وغازى الشرق ، ومنقذ الدولة الرومانية من فوضى الحرب الأهلية .

ولم تكن تنقصه الخبرة بالمرأة وطباعها . فقد اشتهر بأنه تبيع نساء ، وخدن لهو ومجون . ولكن النساء اللواتى عاشرهن يختلفن جميعهن عن كليوبطرة فى الفهم والقدر والخلق . وحاول أن يستهويها بالوسائل التى اعتاد أن يستهوى بها أولئكن الخليلات وهل يفهم مثله وسيلة يستبى بها العقول ، ويؤثّر فى النفوس غير العنف ؟ وحدته غريزته المزهوة بالقوة الناشئة إلى مطالبة كليوبطره بالحضور لديه ، والمثول بين يديه ، وتقديم حساب عن مسلكها مع أعدائه السابقين ، وتبرعاتهم بالعون والتأييد .

وهل تخضع ملكة لها جمال كليوبطرة ومقامها ، لغطرسة قائد غاشم مثل أنطونيوس ؟ ! ألم يقف فى عهد قيصر على بابها فى روما ينتظر

إذنها له بالدخول ؟ ألم تبدُ عليه لدى لقائها يومئذ أمارات التهيب والخشوع ؟ فكيف تقبل منه اليوم هذا التعالى ، وترتضى لنفسها الهون والخضوع ؟

على أن الإشاعات تواترت بأن القائد الرومانى يتأهب لغزو مصر . وأخذ الرعب مأخذه من خائرى العزيمة من المصريين . وانبرت حاشية الملكة تزيدها الإشاعات لعلها تقتنع بالسفر إليه واستدراجه إلى حبائل فتنتها . وكانت الملكة المضطلعة بمسئولية الحكم تستسلم لما ساورها من وساوس ، وتقبل مشورة ناصحيها . ولكن غريزة المرأة الفاتنة تنبهت فيها ، فآثرت خطة الصد والدلال ، واثقة بمضاء هذا السلاح .

وأثار تغاضيها عنه حفيظته عليها حيناً ، وحنينه إليها حيناً آخر . وضاق ذرعه بالوفود ورسل الملوك المزدحمة على بابه إذ لم يجد بينها رسولا من الملكة المرتقبة ، وكان كلما اشتد حنقه عليها ، وصمم على قهر بلادها وتحطيم كبريائها وإخضاعها عنوة ، عاد يخشى مغبة أخذها بالعنف ، وتوجس أن مثل هذه الخطة قد تنفرها منه ، وتصرف قلبها عنه ، فى حين أن اللين قد يجد طريقه ممهداً إلى القلب ، ورجع إلى مكاتبتها وحثها على المجيء إليه ، وألهب الانتظار شوقه إليها ولهفته عليها. وضاقت به لجاج آسيا الصغرى والشام ، وانصرف عن مجالس لهوها ، وطرائف مجونها ؛ ولم يشغل باله إلا ارتقاب زورة المعرضة الهاجرة . وعاد يذكر علاقتها بقيصر ، وما كان لها عليه من سلطان غير مألوف . ألم يرده صباها إلى ميعة الصبا ؟ ألم يدفعه حبها وراء أبعد الأحلام وأجرأها ؟ ألم يفقده جمالها الباهر صوابه ؟ ألم يسكر صوتها الرخيم حواسه ؟ ألم يسعَ إلى حتفه فى سبيل إرضائها وتحقيق نزوات خيالها ؟

وأكبرت هذه الخواطر مكانة الملكة المصرية فى نفسه . وازداد بها صبابة ولم يعد يطيق الصبر عنها . وأخذ يسائل نفسه عن سبب إعراضها عنه ألم ينصر أباها المنفى ويُعده إلى عرشه ؟ ألم يشملها وهى فى روما — بعد مقتل قيصر — بحمايته ورعايته ؟ ألم يعاونها إذ ذاك على الرجوع إلى بلادها آمنة سالمة ؟ فكيف تجزيه على إخلاصه الماضى بهذه القطيعة المرة ؟ أما تفكر حتى فى إرسال هدية إليه ؟ وإيفاد رسول من قبلها يبلغه تهانئها بما أحرز من انتصار ؟ ورغم أن هذه الذكريات أثارت شجنه ، فقد ألهبت حنينه إليها . وفى ثورة من ثورات حبه أوفد أحد ضباطه «كليوس» ليدعوها إليه . وأوصاه بأن يصانعها ويداهنها ويحايلها ولا يعود قبل أن ينجح فى مهمته .

وسافر الرسول وطالت غيبته . وثقل الانتظار على أنطونيوس ، واشتد وطأته . وأحسنت كليوبطرة وفادة الرسول ونفذ سحرها إلى لبه ، فباح لها بسر موفده . ولم يخف عنها شيئا مما يعانيه من تباريح الشوق المضطرم الثائر . واستبقته لديها مدة تستخبره أخبار سيده ، فلا يكتم شيئا يعرفه عنه . ثم سمحت له بالعودة إلى مقره ، ووعدت بتلبية دعوة أنطونيوس على أن تختار الأوان الذى تراه .

وكان وعدها على أن توافيه فى «طرسوس» . فخف إلى ذلك البلد . ولم يهدأ لوعدها روعه ، وإنما رزح تحت ثقل الانتظار . وطالت عليه لياليه . ولم يعد يطيق الصبر ، وازداد قلقه وتململه . وأخذ يرقب البحر ويخفق قلبه لخفوق كل شراع جديد يظهر فى أفقه ، ظنا بأنه يحمل إليه الملكة الحبيبة . ولا شىء أمر من الصبر على من اعتاد أن

يأمر فيطاع ، ويطلب فيجد ، ويقضى أوطاره بمجرد إشارة أو إيماءة .

وأخذ وهو فى سورة شوقه يبعث إليها الرسول فى إثر الرسول ليحثها على سرعة المجىء إليه . ولكنها لم تكترث لرسله ، ولم تعبأ برسائله . وأخذت تتأهب للرحيل على مهل . وأشرفت بنفسها على تجهيز تحفها النادرة وآنيتها الفاخرة ، وأدوات التجميل والزينة . وأطربها — وهى بعدُ صبية لم تجاوز العشرين إلا بقليل — أن تُعدّ طُرَفَ الفن لتبهر القائد الرومانىّ الصَّلِف ، وتتعالى عليه بجاهها وغناها .

ولم تغادر الإسكندرية إلا ساعة وافق السفرُ مزاجها . وتريث ركبها فى المسير ، ووجد فى كل محلة بعض رسل القائد اللهيف يحثونه على الإسراع . فلم يزده لجاجُ الرسل إلا إمعانا فى التراخى والإبطاء حتى كأن لم يكن هناك أمير مهيب الجانب ، مرهوب الحول ، ينتظر مقدمه وهو يعد الساعات .

وبعد أن برّح الشوق بأنطونيوس كل تبريح وبلغ منه الضيق والتبرّم كل مبلغ ، تحقق مأمله إذ كاد يتولاه اليأس . فبينما كان جالسا على مقربة من سوق طرسوس يقضى فى أمور الناس ، شاهد بين الجماهير المتجمعة هناك حركة طارئة . وبدا له أنهم يتناقلون نبأ يثير فيهم أكبر اهتمام ، ثم بدأ بعضهم يهرع إلى شاطىء النهر فى أثر بعض . ولم يلبث أن وصل سمعه النبأ الذى أضرم الوهج فى قطرات دمه ، وأشاع الاختلاج فى كيانه من رأسه إلى قدمه . وأسلم قلبه إلى خفقان كاد يقطع أنفاسه .

ورأى من بعد شراع السفينة التى تقل كليوبطرة إليه ، فتوزعت

نفسه بين الرغبة فى الإسراع إليها ، وبين ما يفرضه عليه موقفه من التزام التنطس والتصلف . وأخذت عيون حاشيته تتطلع إليه فاستحيا أن يُسلِّم قياده لخفة الحب وطيشه ، ويجرى إلى الشاطىء وراء الدعاء. فثبت فى مقعده ، واكتفى على مضض بأن يرسل أحد أتباعه إلى سفينة الملكة الزائرة ، ويدعوها إلى تناول الغداء على مائدته .

ولم تكن كليوبطرة لتهفو إلى أنطونيوس لأول إماءة تصدر منه. وأجابت الرسول بأنها متعبة من جهد السفر فلا تستطيع الذهاب إليه، وأنها ترجو منه أن يحضر إليها إذا ما أحب أن يلقاها . وانتظر المحب الواله عودة الرسول مضطرباً قلقاً . وما وقف على فحوى خبره حتى خانه جلده ، ولم يعد يطيق البعد عن فاتنته . فغادر مجلسه ، وأم شاطىء اليم ، فإذا به يراه على غير ما ألف . إذا الشمس تشع أضعاف أضوائها، وصفحة الماء يزداد ائتلاق لألائها ، وغلالة السماء تنضر زرقتها، والجو يرق ويلطف . وسمع أنات المعازف التى طال عهده بها ، تجتاز النهر إلى مسامعه ، واستاف عبير الندى الذى أحيا الذكريات الخالية ، وبعث صورة كليوبطرة فى خياله حيّة خلابة .

وكان على وشك أن يلقاها . وسبق خياله الزمن ، فصور له ذلك اللقاء الشائق . وتملكه الزهو حينا فزعم لنفسه أنه لن يلقاها تابعا أو صديقا ، ولن يخشع فى حضرتها كما كان يفعل فيما مضى ، ولكنه سيلقاها سيداً جديراً بالاعتبار والتقدير : وربما استطاع أن يحل من قلبها بمنزلة قيصر العظيم .

ركب النهر إليها ، وبهره وهو يتقدم صوبها منظر سفينتها الملكية

الثَّمينة ، كانت عارضتاها موشّاتين بماء الذهب ، ومقدمتها مرفوعة فى خيلاء كرأس الإوزّة ، ومؤخرتها معقوفة فى دلال كذيلها. واضطجعت كليوبطرة على متنها فوق مقعدها المستطيل الوثير ، ووقف حولها الحور والولدان ، من كل عُلوية الحسن، فارعة القد ، ومن كل وسيم الطلعة سبط القوام .

وصعد إلى ظهر السفينة ، وتقدم إلى الملكة المتكئة على أريكتها بادى الاضطراب . ومدت إليه يدها ، فتناولها وانحنى . وهشّت له ، فلم يسكن روعه ولم يأنس . بدت فى عينيه أجمل من عهد بها . تجلى له جمال فتان لا يستطيع مقاومته إنسان . وظهر لأول وهلة أن عاهل الشرق ، وقاهر الملوك ، لم يقو على مجابهة الملكة المصرية . ولم يجرؤ على مناقشتها الحساب كما كان ينوى ، ولا أن يعنُف عليها ويشتد . وابتسمت لما رأت من تهيبه . فهل هذا هو الجلاد الذى خشيت أن تلق القصاص على يديه ؟ !

وبادرته هى بالعتب والملام . لامته على إعراضه عنها بعد مقتل قيصر ، ومجاراته الرأى العام فى روما ، بدل الوقوف إلى جانبها جهاراً فى مأزقها العصيب ورد شماتة الشامتين بها . ولامته كذلك على قائمة التهم التى وجهها إليها ، وعلى الطريقة الجافة التى دعاها بها إلى موافاته . وأبلس القاضى الحَكَم ، ولم يدر كيف يجيب .

ولم يعد يفكر إلا فى استدرار عطفها والفوز برضاها . وفطن إلى وجوب الرجوع عن الكِبْر والصلف حتى يحقق أمنيته . فرقت نبرته ، ولطفت نظرته ، ودعاها فى ظرف وأدب إلى زيارته وتناول

طعام العشاء على مائدته . ولكنها اعتذرت بتعبها واقترحت عليه أن يعود هو إليها فى العشاء ويقضيا سهرتهما معاً . ولم يتردد فى إبداء اغتباطه بهذا الاقتراح . وانصرف نشوان من سورة الحب والجمال .

وطال عليه النهار ، وبُعد فى نظره المساء . وأخذ ينفق الوقت فى تخيل المتع التى سوف يجنى أطايبها . وذهب إليها فى الموعد المضروب ، تصحبه حاشية كبيرة العدد . وبالرغم من أن أولئك الزوار لم يجهلوا مظاهر عز كليوبطرة وبذخها منذ زيارتها لروما ، فقد أعدت لهم اليوم مفاجآت جديدة من فنون التنميق والتنسيق ، وطُرفاً عجيبة من التحف جاءت بها من قصرها الملكى بالإسكندرية .

وبدأ عرض برنامجها الضخم : فدوى العزف ودار الرقص . وتملت حاشية أنطونيوس من طيب ما سمعت ، وحسن ما رأت . ولكن الضيف العاشق كان مأخوذاً بفتنة مضيفته . كان يؤثر أن تصمت الآلات ، وتسكت القيان ، وينصت إلى حديثها الموسيقى . كان يتمنى أن يمحى هذا الحفل . فلا يسمع غير ألحان صوتها الرنان . ولا يرى غير جمال وجهها الفتان . وأمضى الليل ولا يتحول طرفه عنها ، ولا تفوته منها كلمة أو إشارة أو إيماءة .

ودَعَته وهو يودعها لينصرف ، إلى تكرار زيارته فى مساء اليوم التالى . فقبل دعوتها مغتبطاً ، وعاد إلى داره وفى أذنيه وفى عينيه عذوبة أبدع الألحان ، وطلاوة أفتن الأشكال والألوان . وكأنما سرت هذه العذوبة والطلاوة إلى الطبيعة فتجلت له السماء المرصعة بالنجوم فى أروع منظر . وهاجت رقةُ الليل حنينه ، وأشعلت نسائمه وجه هواه ، وحالت ذكريات تلك الليلة المسحورة بينه وبين غفوة النوم ، وقضى

اليوم التالى ينصت إلى تعليق أفراد حاشيته على ما شاهدوا فى أمسهم من بدائع وروائع ، وأمتع أذنيه بما أسبغ على الملكة الحسناء من آيات الإطراء . وبينما كانت تتناوبه لذة الذكريات السعيدة حيناً، وملل انتظار المساء حيناً آخر ، إذا برسول من كليوبطرة يحضر إليه ويخبره بأن سيدته تنتظر مدعويها فى قصر أعدته لاستقبالهم ، وأنه أتى ليرافقهم ويدلهم على مكانه .

وكان القصر واقعاً على شاطىء النهر ، وسط حديقة حالية بالورد والزهر وغُنى ، أمونيوس ، خادم كليوبطرة الفنان بإعداده لاستقبال العامل وأتباعه . فنثر فى قاعاته الرحبة الأرائك والمقاعد المتمنة بالعاج والمرجان ، ومد الأخونة الكاسية بأغطية الخز المطرزة الملونة، ونضّد فوقها الصحاف الذهبية والأكواب البلورية ، وكسا الأرض والحياض بالطنافس الزاهية الألوان .

ودخله أنطونيوس وقادة جيشه ، فبهرهم ما رأوا . لم يكن أحد منهم يعلم بوجود هذا القصر فى البلد ، فأيقنوا أن إعداده وتنتيشه وتزويقه على هذا الوجه الرائع فى ليلة واحدة هو من سحر ساحر . وما شاهدوا كليوبطرة جالسة فيه على أريكتها وسط حاشيتها حتى خيل لهم أن قصراً من قصور البطالسة انتقل إلى طرسوس . وأشد ما بهرهم سطوع الأنوار تُشِعُّها آلافُ الشموع . أنوار زادت إشراق الوجوه الحسان ، وضاعفت توهج العسجد والمرجان ؛ فزاغت أبصارهم من من فرط المحاسن الفـــاتنة الساطعة . وفاق رونق الليلة وبهاؤها كل ما توقعوه ، حتى تضاءلت إلى جانبها حفلة الليلة السابقة . وما لاحظت

كليوبطرة شدة إعجابهم بأثاثها وآنيتها ، حتى جادت عليهم فى نهاية الحفلة ببعضها . وعاد كل من ضيفانها إلى داره ووراءه جارية حبشية تحمل له الآنية التى أكل منها ، والمقعد الذى جلس فيه .

وفى الزيارة التالية تم الزوار بأفانين جديدة ، فقد رأوا قاعات القصر ، أرضها وجدرانها ، مغطاة بالورود والرياحين . وإذا كليوبطرة تستقبلهم وعلى رأسها وفى جيدها تاج وعقد من الياسمين . وإذا بها وبجواريها يرفلن فى أردية الدمقس والحرير ورقت أجواء القصر ، وعبقت بروائح الزهر ، وجلست الملكة وسط جنى الفردوس، فازدادت بينها نضرة وبهاء ، بل فاقتها بهجة ونضارة ، ورقص الخرّد الغيد حفاة الأقدام على الغلائل الوردية ، فخيل للنظارة أنهم يشاهدون الحور العين يرقصن فى جنة الخلد .

وتبدلت طرسوس فى عين أنطونيوس كما يتبدل القفر إلى واد من السحر . وعجب كيف كان يعانى فى ربوعها هموم الوحشة والملل ا ولم ينغّص عليه نعيمه إلا اضطراره إلى ردّ جمائل كليوبطرة ودعوتها إلى ولائم كولائمها ، وأنىّ له ذلك وهو لا يملك بعض ما تملكه من طُرَف الزينة الغالية .

ولم يجد مناصا من دعوتها إلى داره الرخيصة المتاع . وتوجهت إليها فى الموعد المضروب فى كساء بسيط أنيق زاد جمالها ظهوراً وإشراقاً . وما دخلتها فى موكبها ، حتى دخلتها البهجة والبشر والإيناس ، وأظهر الداعى خجله من عدم مناسبة الدار لاستقبالها . فهوّنت عليه الأمر ، ولكنها ازدادت مع ذلك اقتناعاً بأنه رجل لم تَنَمُ نفسُه ،

ولم يتهذب طبعه وذوقه ، حتى يمكن أن يجاريها فى أفانينها ، وأنه لن يصعب مثلها أن تظل صاحبة السلطان على مثله .

وأعلنت عزمها على العودة إلى وطنها . ولم يكتم أنطونيوس تعلقه بها ، وتشبثه يبقائها ، فلم تأبه لعاطفته ، ولم تذعن لمشيئته ، وأظهرت له عدم المبالاة حتى تزيده شغفاً بها ، وتشوقاً إليها . ولما بلغت لوعته غايتها عادت كليوبطرة فهدأت من روعه، وتكرمت فطلبت إليه موافاتها بالإسكندرية ، وشفت هذه الدعوة جراح نفسه فوعد مغتبطاً بإجابة طلبها . ووقف فى صباح يوم الوداع على الشاطئ يشاهد قلاع السفينة الملكية تبتعد بحبيبته إلى بلادها النائية . وأثرت فى نفسه رقة الوداع ولوعة الفراق . فلم تلبث طرسوس أن عادت كما كانت قفراء جرداء ، تجثم كآبتها على صدره وتملأه وحشة وهماً .

ڤالفيا زوجة أنطونيوس

بينما كان أنطونيوس يتذوق جنى النعيم فى ضيافة كليوبطرة بطرسوس ، عاودت زوجته ڤالفيا فى روما غصة الملل ، ووحشة الانفراد ، ولكن أموراً جساماً لم تلبث أن شغلت بالها ، وانتزعتها من ركن الوحدة والانزواء .

كان أوكتافيوس — ابن أخى قيصر ووريثه — يدرك أن أهل روما لاينظرون إلى هزائمه بعين الجد ، وأنهم ينسبون إلى أنطونيوس فضل الانتصار على بروتوس وإنقاذ بلادهم من ويلات الحرب الأهلية،

وكان الفتى بعيد الطموح ، يتوق إلى فرض إرادته على مواطنيه ، والقضاء على كل منافس له فى الحكم .

وكان الدهاء أبرز مواهبه ، فلم يدخر فتيلا منه فى سبيل الحط من قدر أنطونيوس وتحقيره فى عيون المعجبين به . وطفق يحرك الإشاعات عن توثق علاقة آثمة بينه وبين كليوبطرة ، وعن تعريضه مصالح بلاده للضياع فى سبيل الإبقاء على مودة الملكة المعروفة بعدائها لروما . وما صادفت دعايته هوى فى أفئدة بعض المستمعين إليها ، حتى أخذ يضطهد أعوان القائد الغائب ، ويقصى طائفة منهم بعد طائفة عن وظائف الحكم . ولم يجرؤ أحد على الانبراء له غير فالفيا التى وقفت تدافع علانية عن زوجها ، وتحق حقه ، وترد عنه غيبة المغتاب .

وبينما هى ممعنة فى دحض كل فرية تنسب إلى زوجها ، وردت الأنباء بأنه لحق بكليوبطرة فى الإسكندرية وألقى قياده إلى الشرقية الساحرة ، وأن مهرجان الهوى قام من جديد على قدم وساق .

وأحرجها النبأ أى إحراج ، وجرح عزتها ، وأثار غيرتها وحفيظتها . وإذ فطنت لسخرية بعض الناس منها هاج هائجها ، وصبت جام غضبها على « أوكتافيون » وناصبته العداء . فصارت تخطب الناس على قارعة كل طريق فى روما منددة به مهددة متوعدة . والتف حولها الأعوان والأنصار ، فلبت شعثهم ، وجندت منهم جيشاً زحفت به إلى مدينة « بريتيسق » والتحمت بالجيش المعادى هناك ، واقتحمت المدينة منتصرة ظافرة .

ثارت هذه الثورة الجنونية مدفوعة بدافع غيرة الزوجة المهجورة ،

ولعلها أرادت من إضرام نار الحرب الأهلية أن تلفت نظر زوجها إلى روما وإليها ، وأن ترغمه على هجر كليوبطرة والاهتمام بأمر بلده من جديد . غرض يهون لدى المرأة الغيور إهـــدار الدماء وتقتيل الأبرياء فى سبيله . ولكن أنطونيوس ظل مشغولا عنها فى سبحات هواه ، وظلت هى مشغولة به تعانى لظى غيرتها .

وظلّت الحرب الأهلية محتدمة حتى رجحت كفة النصر لدى جانب أوكتافيون ، وانتصرت جيوشه على أعدائه فى موقعة « بيروجا » ، ونكل بهم أقسى تنكيل . وتمكنت فالفيا من النجاة من قبضته ، وفرت إلى الشرق تنشد زوجها .

وألقى الرومان مسئولية هذه المأساة على عاتق كليوبطرة .

وفى هذه الأثناء كان أنطونيوس يقضى فى الإسكندرية أهنأ أيام حياته . أنزلته كليوبطرة القصر البحرى ، وشاهد فى حديقته الفيحاء تمثالا لقيصر من المرمر ، وفى ردهاته تماثيل أخرى له كذلك تصوره مفكرا أو غضوبا مقطبا ، وحدثته كليوبطرة عن ذلك الصديق الجليل الراحل ، وعن المودة التى تآصرت بينهما ، وعما تعاهدا على تحقيقه من أحلام ومطامع جسام . ونكأ هذا الحديث موضع الزهو والغرور من نفسه ، وبدا له أنه أجدر من يحل محل قيصر من قلبها ، ومن يحقق لها تلك المطامع والأحلام . وأجرى حديثه معها فى مجرى ينتهى إلى تبين مرماه ، وتوضيح خفى خاطره ؛ ووجدمنها كل تشجيع على المضى فيه ؛ وكل موافقة عليه وتأييد . وأقسم لها وهو غارق فى نشوة زهوه وهيامه ، أن يغزو لها بلاد فارس ، ويشترك معها — بعد زواجهما —

فى الجلوس على عرش إمبراطورية لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، ولم يحكم نظيرها ملك من قبل .

وأشعلت الأطماع والرغبة فى إرضاء كليوبطرة حماسته ، وسافر مسرعاً إلى أوروبا الشرقية ليعد العدة لغزو فارس وروما واستقر به المقام فى أثينا ، حتى هبطت عليه زوجته الفارة إلى هناك . وقصت عليه قصة صراعها مع أوكتافيون . فاضجرته روايتها إذ أيقظته من حلمه الخلاب ، وأرجعته إلى الحقيقة المريرة . فها هى ذى زوجته تثنيه عن غزو بلاد فارس ، وتدفعه إلى غزو روما لتأديب الخائن أوكتافيون . ولم يقابل رجاءها بفتور حتى أوسعته عتبا وتأنيبا ، ثم أمطرته دمعا سخينا .

وأولى أحلامه ظهره إلى حين . وسار على رأس جيشه فى طريق روما . ولم تهدأ ثائرة زوجته أثناء الطريق ، ووالت صخبها وضجيجها حتى صدّعته . وأخذ يقارن بينها وبين كليوبطرة . فهذه عنيفة هدّارة لا يقر لها قرار . وتلك وديعة أنيسة تتحلى بأجمل خصائص الأنوثة . وهفا قلبه وخاطره إلى ما وراء البحار حيث تقيم تلك الحبيبة الودود .

ومرضت زوجته أثناء الطريق وعجزت عن مواصلة السير . فخلّفها وراءه وواصل سيره عَجِلاً تائقاً إلى مقابلة جيش أوكتافيون والقضاء عليه والانتهاء فى أقرب وقت من مهمة إخضاع روما لأمره خشية أن ينتهز الجيش الفارسى فرصة غيابه عن آسيا الصغرى فينقض عليها ويغزوها ويقلب أوضاع خطته .

وكان أوكتافيون يعانى من ناحيته مضض القلق والوجل . كان يخشى بأس أنطونيوس وتقوم له الشواهد المتكررة على تعلق الشعب

الرومانى به . ويرى بعينه فرار رجاله من صفوفه للحاق بصفوف غريمه . فتهيأ للعريمين جو المصالحة التى تمناها كل منهما فى سره . ومشى وسطاء السلام بينهما . وجاء فى هذه الآونة نبأ موت فالفيا ، ففرّج كربة أنطونيوس ، ونفّس عن صدره ، وساعد على تكليل المسعى بالنجاح .

تقابل أنطونيوس وأوكتافيون ووراء كل منهما جيشه ، وإلى جانبه أسطوله . ومد كلٌ يده للآخر ، وتصافحا ثم تعانقا ، ووقعا ميثاق الصلح . وأثّر عناق الزعيمين فى الجموع المحتشدة ، فهتفت آلاف الحناجر هتافاً مدوّياً رددت أصداءه الصخور ، وكادت تهتز لدويّه الجبال .

وأراد أوكتافيون أن يضمن بقاء هذا الصلح ما دام يرى فى بقائه مصلحته . فعمد ذلك السياسى الداهية إلى تلك الحيلة التى اعتاد أن يلجأ إليها كلما حاول ترويض خصم من خصومه . عرض على أنطونيوس أن يزوجه بأخته « أوكتافيا » لتدعم آصرةُ هذه القرابة الجديدة آصرةَ الصداقة المبرمة بينهما . وصادف اقتراحه هوى فى نفس الشعب المتبرم بالنضال والخصام ، المتعطش إلى طمأنينة السلام .

ووقع أنطونيوس فى الشرك ، وعجز عن الإفلات منه إذ شعر بتوقان الشعب إلى إتمام هذا الزواج ، وبما يعلقه عليه من آمال سعيدة . فلم يقو على مناهضة رغبة الشعب ، وعلى تخييب ظنه فيه . وأبرم عقد زواجه وقلبه ينفطر أسى على فقدان كليوبطرة وعلى تضييع عهدها .

ولم يؤانس من نفسه القدرة على سلوان الفاتنة الشرقية . ولكن

تحدّبه على بنى جنسه ، واستعداده لتضحية نفسه فى سبيل خيرهم ، موطّنا عليه احتمال كربه والإذعان لهذا المصير . ولم يلبث أن أنس بزوجته ، واستراح إلى بساطتها وطهارتها وسذاجتها . استعذب فى ظلها الوريف عيشته الجديدة ، وهو توّاق إلى كل جديد . وكانت ملاعب اللهو ومظاهر البذخ قد أجهدت حواسه ، فاستطاب الراحة الطريفة التى كان فى أشد حاجة إليها .

وسافر إلى الشرق فى صحبتها ، وأقام معها فى أثينا عاصمة الإغريق . وأدهش القوم الذين عرفوه ماجنا مستهترا ما جدّ عليه من عقـــل وحكمة . واستحالت مجالس مجونه الى مجالس أدب وعلم . وتزيا بزى أهل الإغريق ، وأمّ حلقاتهم ، وقرب إليه حكمائهم ، وتذوق جدلهم ونقاشهم . وكانت زوجه تحضر معه مجالسه ، وتقبع إلى جانبه وديعة راضية ، فتشيع وداعتها ورضاها فى نفسه ، وتزيده نبلا وبشرا .

وتكشّفت له فى كل حين سجيّة جديدة من سجايا زوجه المتواضعة . شعر بشدة تعلقها به وإخلاصها له . بل شعر بأنها تحبه لذاته . وأن أمنية أمانيها أن تهيّىء له أسباب الغبطة والسعادة ، وأن تفوز برضاه . فتعلق بها وأفاض عليها من معين عطفه ووده .

وأمضى الشتاء والصيف على هذه الحال . وفرحت الرعية بهدئه واستقامته ، واطمأنت إلى دماثته ووداعته . ودخل فى روعها أن آلهة الحكمة والرشد هتكت غشاوة الجهل والطيش عن بصيرته ، وحلّت عقد السحر التى نفثت له كليوبطرة فيها .

ولكن هل نسى كليوبطرة حقا ؟ ! ..

ثار فى يوم من الأيام على جلسائه ومُسمّاره، وطردهم من مجلسه. وأشاح بوجهه عن زوجه . واستقدم أركان حربه وقادة جيشه ، وأمرهم باتخاذ أكبر أهبة ، وإعداد أضخم عدة ، للقيام بأكبر غزوة عرفها التاريخ . وأذكره كل سطر فى أثينا بالإسكندر الأكبر ، مَثَلِهِ الأعلى وقدوته ، فهب من غفوته ، وعاد إلى رغبته فى الإتيان بمثل ما أتى به ، وتهامس الناس فقالوا : إن شيطان كليوبطرة المريد ، استبدّ بروحه من جديد .

ولكن زوجه المخلصة السليمة الطوية لم تسىء الظن به . وعزت ثورته الفجائية إلى ما به من طموح قديم إلى اقتفاء خطى الإسكندر . وأوسعته عطفاً وحناناً . ولكنه عبس لها وتولى عنها ، وزاده تودّدها إليه تفوراً منها وتبرما بها .

وجدّت فى هذه الأثناء أمور فى روما . اشتبك أوكتافيون فى حرب مع « سكستاس » بن « بومبى » . وبلغه فى هذه الآونة العصيبة ما انعقد عليه عزم أنطونيوس من غزو فارس ، وفطن إلى ما يرى إليه غريمه من وراء ذلك الغزو من أهداف . فعول على تعويقه بأية حيلة . وهداه تفكيره إلى أن يبعث له برسالة يستنجده فيها ليقطع عليه مواصلة استعداده . ولم يجد أنطونيوس بداً من الإسراع إلى ذلك الذى يزعم أنه صديقه وحليفه . وأبحر إليه فى أسطول حشد فيه الجيش الذى هيأه لغزو فارس ، وقصد إلى المكان المعين لالتقائهما . ولكنه لم يظفر بأثر لأوكتافيون وجنده ، فنكص على أعقابه إلى الشرق حانقاً متذمراً .

وقابل أوكتافيون حنق غريمه وتذمره بالهدوء . والغلبة لا تتاح إلا للرزين الهادىء ، تركه يساود عمله بعد أن شغله عنه أكثر العام ، حتى إذا كاد تجهيز جيش الشرق يتم ، بعث إليه برسالة استنجادجديدة، فصّل فيها موقفه ، وأهاب بمروءة أنطونيوس ، واستشفع بالصداقة والبيت الذى يصل بينهما ، والحلف الذى أقسما على الإخلاص له .
ووقع أنطونيوس فى حيرة إزاء هذا الاستنجاد الجديد الذى سوف يعوقه عن إصابة غرضه مرة ثانية ، وفكر فى الإجابة عليه بالسكوت والإهمال . ولكنه لم يستصوب هذه الفكرة بعد تمحيصها ، إذ آثر أن يمالىء مزاحمه حتى لا يُمكّنه منه .

وأعدّ سفينة حشد جنوده فيها ، وأقلع بها إلى روما ، ولكنه وجد الميناء مغلقة فى وجهه . وتلقى رسالة من أوكتافيون ينبئه فيها بأنه استغنى عن عونه ، ويشكره على نخوته وأريحيته . وعادت السفن أدراجها وأنطونيوس منطو على غيظ وسخط مضاعفين .

وما وصل إلى أثينا ، واستأنف بها حياته الزوجية حتى ازداد نفوره من زوجته الخاضعة المستكينة . واستعرض مراحل ذلك الزواج وما ناله خلاله من ضُر وخسران ، فقد أضاع من عمره خمس سنوات بين ركود وجمود ، وبين تعثر فى حبائل أوكتافيون التي استدرجه الى روما مرتين ليصرفه عن إنفاذ مشروعه الخطير .
وحز فى نفسه أن يبوء بالغرم من حيث قدر أن يفوز بالغنم .

ولم يعد يطيق عيشته الزوجية المملة ، وآذى أذنيه أن يسمع دفاع زوجته عن أخيها ، والتماسها أسقم المعاذير لتصرفاته . وتفاقم لديه

خطب هذه المرأة العيية التافهة . فأين هى من كليوبطرة اللبقة الباهرة ؟ كليوبطرة ؟ الأنيسة السامرة ؟ وأين هذه العيشة المائعة ، من عيشته السالفة الفاخرة ؟ وأين تفاخرزوجته بأخيها دون زوجها ، من تفاخر كليوبطرة به دون غيره ! ؟ ألم تخلع عليه لقب « ملك الشرق العظيم » ؟ ألم تؤمن بمقدرته وبعبقريته ؟ ألم تتكهن له بمستقبل منقطع النظير ؟

وهم بأن يتخلص من زوجه فيبعث بها إلى أخيها ، ويهفو مسرعاً إلى خدينته الشائقة . ولكنه أوجس خيفة من أوكتافيون الدساس ، وأيقن أن الأمر معه لن يستقيم ولن يسلس ، لأن ذلك الفتى النادر لن يحجم عن طعنه من الخلف فى الآونة التى يُيَمِّم فيها وجهه شطر بلاد العجم . فخطر له أن يستعين بزوجه على أخيها . فناعها فى أمر السفر إليه والتوسط لديه فى إبرام صلح جديد أدعم أساساً من الصلح السابق . ولم تتردد الزوج الوفية الصالحة فى إجابة زوجها إلى رغبته .

وسافرت إلى روما . فقابلها أخوها حانقاً لائماً ، ونسب إلى زوجها سوء القصد وخيانة العهد . فصمدت له ، وجهدت فى تبرئة ساحة قرينها المحبوب ، وتوسلت إلى أخيها القاسى بعاطفة الأخوة . وحاولت إثارة إشفاقه بإرسال دمعها الحنان . وقالت بين الشهيق والنشيج : « رجائى الحار ألا تحيلنى إلى أشقى امرأة فى الوجود ، بعد أن كنت أسعد النساء . إنى هدف الأنظار المصوّبة إلىّ من كل مكان ، فأنا على أقرب صلة بالرجلين المسيطرين على الدولة الرومانية ، إذ أحدهما أخى وثانيهما زوجى ، فإذا شجر الخلاف بينكما ، وأججتما نار الحرب فأيكما أتمنى له الفوز ؟ سأكون أشقى من فى الوجود على الحالين » .

وكفكف الأخ مدمع أخته ، وهدأ روعها ، وأبدى إشفاقه عليها وأكد لها أنه سوف يعمل على ما يريح بالها ويحقق رجاءها . على أنه كان أبعد ما يكون من أن يعبأ بحرجها وعنائها ، لأن همه فى الحياة كان منصرفا إلى تحقيق أطماعه . ووافق على أن يلتقى بأنطونيوس لإزالة ما قام بينهما من سوء تفاهم ، والتقى الزعيمان بالقرب من روما ، وكررا أغلظ الأيمان على أن يحفظ كل منهما عهد صاحبه ، ولكن ظلت النية المبيتة عند كل منهما على ما كانت عليه .

زواج أنطونيوس بكليوبطرة

طلب أنطونيوس إلى زوجه البقاء فى كنف أخيها حتى تحول دون نكثه بيمينه أثناء القيام بالحملة الفارسية . وسافر مسروعاً إلى الشرق . ولكنه ما كاد يصل إلى بلاد الإغريق ، ويخلو بنفسه هناك بعيداً عن أوكتافيا وأوكتافيون ، حتى لاحقته ذكرى كليوبطرة ، وهاج هائجه إليها ، ولم يطلق بعده عنها ، ولم يعد يعنى بعهد زوجه ، وخلف أخيها ، وصمم على لقائها غير عابىء بما يترتب على هذا اللقاء من تنمر الرومانيين له ، وتألبهم عليه ، وانصرافهم عنه إلى أوكتافيون .

وأوفد إليها رسولا يطلب منها موافاته بالشام . وكانت الملكة المهجورة ترتقب أنباء حبيبها الهاجر ، فما جاء الرسول المرتقب حتى خفق قلبها خفقة وجذلا ، وسارعت إلى لقاء هاجرها الحبيب فى الموعد المضروب ، ونسيت ديدن الدلال ، وتغاضت عما لحقها من أذى الهون والمذلة

طوال فترة الهجر ، فلم تتريث ولم تتلكأ كما فعلت فى رحلتها الأولى إلى الشام للقائه .

وتلاقيا لقاء حاراً تجلى فيه الود الذى اشتد على طول البعد . وتبادلا عبارات العتب الرقيق ، ثم باح كل منهما لصاحبه بمكنون حبه العميق . واتفقا على أن يدعما عهد حبهما فى هذه المرة برباط الزواج . واحتفلا بتوقيع وثيقتين فى مجلس واحد ، وثيقة طلاق أوكتافيا ، ووثيقة الزواج الجديد ، واستدعى أنطونيوس خازن ماله ، وأمره بأن يأتى له بألف ألف من القطع الذهبية . فذهب الرجل دهشاً لهذا الطلب ، وعاد فوضع المال المطلوب على مائدة ضخمة أمام العروسين . فهز أنطونيوس رأسه وهو ينظر إلى الذهب المتوهج وزعم أنه مقدار ضئيل لا يليق تقديم مثله إلى مثل ملكة مصر . والتفت إلى خازن ماله وقال : « أضف إلى هذه الكومة مثلها » وجىء له بما طلب ، وقبلت كليوبطرة مهرها باسمة . ودهش الناس لهذا الكرم الرومانى غير المألوف .

وأقيم مهرجان الزفاف ، وفاقت زينتها كل ما سبقها من زينات . وعاد الدم يتدفق متأججاً فى عروق أنطونيوس ، وتلألأت الدنيا فى عينيه من جديد ، ونعم باله ، وخف عطفاه ، وعاوده إيمانه بالمستقبل البسام ، وناجى نفسه وهو مأخوذ بنشوة الهوى ، وخفة الطرب : « هذه هى الحياة الجديرة بأن يحياها الإنسان » .

ولم يطل احتفال العروسين بارتباطهما الجديد السعيد ، لأن بلاد الفرس كانت تتخايل لهما كما يتخايل السراب الخلاب ، فلم يمهلهما داعيها .

وورحل أنطونيوس فى عجلة إلى الشمال ، طامعاً فى إنجاز مهمته قبل تمكن أوكتافيون من التصدى له .

وبالرغم من أنه لم يرسل وثيقة الطلاق إلى أوكتافيا ، فقد وصلت أنباء ماحدث إلى روما ، وبلغ سخط الشعب عليه كل مبلغ . ولكن زواجه وطلاقه لم يثيرا من ذلك السخط القدر الذى أثاره بذله الذهب الرومانى فى مثل ذلك السخاء .

اطمأن روعه بعد اقترانه بملكة مصر ، واستقر قراره بعد طول التذبذب والبلبلة . فقد صارت له كليوبطرة حليفة وزوجاً يستطيع أن يركن إليها فى الملمات ، ولم يعد مشروع غزو فارس يحتمل التردد . فما دام لديه العدد الوفير من الجند ، ولدى زوجه القدر الوفير من المال ، فبالرجال والمال تتحقق أبعد الآمال . وصارت ملاعب اللهو والمجون فى عينيه لعب أطفال . فاطمأن الرجال على نسائهم ، واستراح بال كل غيور على الاستقامة والفضيلة . وهدأ الشرق فى انتظار أحداث لم يقع مثيلها منذ أيام الإسكندر الأكبر .

وتلقى أوكتافيون أنباء غريمه وهو يحرق الأرم . وكان بعيداً كل البعد من أن يعنى بها من باب اهتمامه بشأن أخته أوكتافيا ، بل كان كل ما يعنيه تفاقم نفوذ منافسه ، وتيقنه من أن غزو فارس يكفل لغازيها تبوء عرش الإمبراطورية الرومانية . وحاول أنطونيوس أن يتظاهر بإبقائه على ود أمير روما ، حتى يخفف من حدة غضبه ، ويبعد عن نفسه غائلة غدره . فكتب له : « ما الذى شاب ودادنا يا صديق ؟

أهي علاقتي بكليوبطرة ؟ إذاً فاعلم أنهـــا زوجتي ، فهل يغضبك نبأ زواجي ؟! » .

ولم يغب عنه أن أوكتافيون لا يضيع وقته سدى في روما بل يستفيد من كل برهة من وقته ليوطد سلطانه ، ويهيئ الفرصة للتنكيل به . فكان عليه أن يعجل من ناحيته بإنجاز مهمته . وما ابتعـــد عن كليوبطرة حتى انقلب إلى ذلك الجندي الشديد المراس الذي خشيت ساحات الحروب بأسه من قبل .

ولم يكن غافلا عن قوة الجيش الفارسي ، ولذلك أبى الاعتماد على قوته الحربية وحدها للتغلب عليه ، واستعان بحنكته السياسية ، فأبرم مواثيق الصداقة مع ملوك آسيا الصغرى ، ومنّاهم بإسباغ النعم عليهم في حالة انتصاره . وأبت كليوبطرة من ناحيتها أن تظل بعد سفر زوجها قابعة لا تساهم بعمل يفيد الغاية المشتركة بينها وبينه ، فشملت بنشاطها السياسي دول آسيا الصغرى وشمال شــــبه الجزيرة العربية ، وأشعرت ملوكها بأنها واقفة بالمرصاد لكل من تحدثه نفســه بخيانة البطل الغـائب ، وهيأتهم لقبول فكرة انضمامهم إلى الإمبراطورية المرتقبة .

وتحرك الجيش الضخم الذي اهتزت له آسيا الصغرى وأوروبا . واجتاز أرضروم إلى بلاد الأرمن ، وانضم إليه الجيش الأرمني فزاده ضخامة . وأظهر ملك أرمينية أنه لا يدخر وسعاً في تسهيل الغزوة الرومانية . ولم يبخل بزاد بلاده ومالها على الجيش الغـازي . وأظهر محض الود وصادق الإخلاص لأنطونيوس الذي اعتمد على إلمامه

بالطرق المؤدية إلى هدفه ، فضمه إلى هيئة أركان حربه ، وأشركه فى وضع خطة الهجوم .

تهدم الآمال

زعم الملك المستشار أن هناك طريقين يخترقان الحدود إلى قلب البلاد الفارسية ، أحدهما طويل ولكنه ممهد ، والثانى أقرب منه وأنفذ ولكنه وعر المسالك . ولذلك أفتى بأن يسلك الجيش الرومانى الطريق القريب ليباغت الجيش الفارسى المرابط عند ميديا . فى حين تنقل الميرة والذخيرة ومهمات القتال والحصار من الطريق الممهد ، ويتولى جيشه حراستها . وأخذ أنطونيوس بهذه المشورة دون تمحيص وتجشم هو وجيشه مشقة الطريق الوعر ، مطمئناً إلى قوة مراس الجحفل الجرار ، غافلا عما تهيئه له الأقدار .

ولم تكن خطة تقسيم جيشه غير شرك نصب له . ووقعت الكارثة والغزوة فى أول أمرها ، إذ هاجم الجيش الفارسى الكتيبة التى تحمل الميرة والذخيرة وعُدَدَ القتال ، فقطع عليها ذلك الطريق الممهد . وغدر الجيش الأرمنى بها فتركها فريسة للفرس ، وكرّ راجعاً إلى بلاده .

وقد يعيش الإنسان لأمل أوحد يقضى طوال حياته فى بناء صرحه . فإذا بهفوة أو بغفلة تثل فى لحظة ذلك الصرح من أساسه ، وتذروه هباء . وكان تصدّع شاهق الأمل الذى شاده أنطونيوس سريعاً . فها هو ذا بجيشه الذى قضى الأعوام الطوال فى تجنيده وتدريبه محاطاً بأعدائه ، مجرداً من عدته ، منقطع الصلة بقاعدته ، مضطرا إلى النكوص

على أعقابه ، وهو لما يخطُ الخطوة الأولى فى سبيل غايته .

وصار همُّ أنطونيوس الأوَّل أن يخرج بجيشه من الأرض الفارسية، بعد أن كان همه الأول منذ برهة أن يتغلغل فى هذه الأرض إلى أقاصيها ، ويغزو كل دسكرة فيها ، ويرضى ولعه بالبطش والفتك ، ويشبع نهمه الاستعمارى . ولكنّ التاريخ لا يسمح بالظفر إلا للبطل الذى يمثل جيله ، ويحس إحساسه ، وينفذ إرادته . أما الأدعياء الذين يقتصون أثر البطل تطلعاً إلى المجد من طريق الاحتذاء ، فلا يكتب لهم غير الفشل.

وعلى قدر فسحة الأمل يكون الإحساس بفداحة الفشل . وكان أمل أنطونيوس يحتضن مُلك الدنيا . فسبب له انهياره ألماً تضيق به الدنيا على أنه لم يشعر بمجرد تلك الحسرة التى يشعر بها كل ذى أمل خاب ، أو كل قائد انهزم . ولكنه كان يذكر كليوبطرة ومبلغ ثقتها فى كفايته ، واعتزازها بقوته وقدرته ، وما كانت تعلقه على تلك القدرة والقوة والكفاية من آمال . فيدلى رأسه خزياً ، وتتوزع نفسه ذلة وهواناً .

وتصوَّرَ ساعة لقائها ، فآثر مواجهة الموت على مواجهتها . ولم يحل بينه وبين إطفاء شعلة حياته ، غير المهمة العسيرة الخطيرة الملقاة على عاتقه . كان عليه أن يقود جيشه فى تقهقره حتى يخترق نطاق الحصار المضروب حوله ويصل إلى تخوم الروم . وواجبٌ صرفه بعض الشيء عن تلذيع أشجانه التى كانت تعاوده بين حين وحين فى أوقات رجوعه إلى نفسه .

وما كان أصعب تلك المهمة . فالطريق التى لا بدّ للجيش من أن

يعود منها أدراجه وعرة ملتوية ، متشابهة المعالم ، يحتاج سلوكها إلى دليل. وأين الدليل الذى يستطيع أنطونيوس أن يأمن جانبه ويركن إليه بعد أن ظهرت له خيانة ملك الأرمن وأيقن أنه حاط بعيون أوكتافيون وأرصاده ؟؟ أوكتافيون الذى لم يكن ليهتم بمحق جيش أنطونيوس الرومانى ، وضياع مصالح روما ما دامت تتحقق بذلك مصلحته .

فكَّر لذلك فى عرض الصلح لينقذ جيشه من الهلاك فى مجاهل الفرس . ولكنه لم يرتح ، بعـــد إمعان النظر ، لهذه الفكرة ، فقد توفرت لديه الأدلة على أن رأى أعدائه منعقد على الخلاص منه ومن جيشه . وأنه لن يسلم ، إذا ما صالحهم ، من غدرهم . فأهاب بعزمه المتبدد ، وأصدر أمره لجيشه بالتقهقر .

وسار فى طريق عودته خبط عشواء . وألفى نفسه بعد مسيرة يوم فى المكان الذى وقعت فيه الواقعة بين الجيش الفارسى والكتيبة الرومانية التى كانت تحمل الذخيرة . ورأى رجال جيشه أشلاء زملائهم منثورة فى العراء ، تعكف عليها العقبان ، وتنبعث منها روائح النتن ، فوجموا وازدادوا شعوراً بهول الكارثة التى حلّت بهم .

وقبل أن يفيقوا من غاشية التقزّز التى غشيتهم من منظر الفنــاء الكريه المحيط بهم ، دهمهم أعداؤهم من كل جانب وأوســعوهم طعناً وضرباً . ورأى أنطونيوس جنوده يتساقط بعضهم إثر بعض إلى جانب الرمم المنتنة ، فأذهـــله حرج الموقف . وجرى فى أرجاء معسكره كالمخبول ، ينظم كتائبه ، ويتخذ أهبته للمقاومة ، ويحبك دفاعه عن ذلك الجيش العرمرم الذى شاعت فى نواحيه الفوضى . واستطاع بعد انقضاء

وقت عصيب انخلع فيه قلبه ، وخارت عزيمته ، أن يحمل جيشه الذى منى بخسارة غير يسيرة فى العدة والأرواح على درء هجوم أعدائه المباغت .

ولم يكف المغيرون منذ تلك الواقعة عن مناوأة المتقهقرين . ولم يتركوا صخرة لم يختبئوا وراءها ، أو ربوة لم ينتظروا فيها أعداءهم ليصطادوا منهم كل فرد تصل إليه رماحهم . وكلما خال المعتدى عليهم إنهم صاروا فى مأمن ، خرج عليهم المتربصون من مكمنهم ، ونالوا منهم أى منال .

واضطر أنطونيوس إلى تغطية فيالقه بتنظيم فرق يكشف بعضها الطريق ، ويحمى بعضها جناحى الجيش ومؤخرته . ولكن هذه الحيطة لم تحل دون نزول الخسارة الفادحة بالمتقهقرين . وأمر أنطونيوس بتخفيف السير ، ولكن الميرة أوشكت أن تنفد ، وكادت قرب الماء تجف وأتلف الفرس الأقوات والعيون والآبار التى كانت فى طريق الجنود المرتدّة ، فخوت البطون وجفت الحلوق ، وهددهم الإبطاء فى السير بالهلاك المحقق . وكم من مرة ضلوا فيها الطريق ، وكم اتبعوا إرشاد مرشد زعم أنه يهديهم إلى سواء السبيل ، ولم يفطنوا إلى أنه صنيعة أعدائهم ، لا يقصد غير التغرير بهم ، إلا بعد إمعانهم فى تيههم . وكادت الصعاب التى تجشمها أنطونيوس وكلفته أعنف الجهود لدرء أهول الأخطار ، تذهله عن ذكرى حبيبته النائية ، وتلهيه عن تباريح قلبه المحب الكسير ، وعن مرارة الخيبة بعد تصوّح آماله وتناثرها ورأى لحى رجاله تطول وتكث ، وملابسهم تنسل وترث . ولاحظ بعين الحسرة ما آلت إليه حال أجسامهم الهزيلة ، ووجوههم الشاحبة ،

وعيونهم الثائرة ، وشعر بأن أظفارهم عالقة به ، وآمالهم معقودة عليه، فصار همه الأول إنقاذ جيشه من ورطته .

وانقضت على هذه الحال أسابيع ثلاثة شق الجيش الناكص على أعقابه خلالها بكل أنواع الأذى والعناء . ولم تفتك به نصال الجيش المعادي فحسب ، ولا الجوع والعطش وحدهما ، وإنما انتابه لذلك جراثيم أخطر الأمراض . وفتكت بأفراده ، فتساقط منهم الموتى زرافات . وبعد طول المطاف المضني وصل إلى أرمينية فلولا منهوكا ذليلة لا يصدق من يراها أنها بقية ذلك الجيش القوي المهيب الذي زحف منذ شهر إلى بلاد الفرس تحدوه أعرض الآمال .

رأى الجيشُ نهراً تلألأ صفحته الصافية عن بعد ، وأحس تنائم البحر تهب عليه رطبة منعشة ، فجرّ رجاله أرجلهم الواهنة إليه ، ورووا من مائه العذب غليلهم . وامتدت أمامهم أرض أرمينية في الشاطئ المقابل ، فخرت تلك الهياكل الآدمية لله شكراً على وصولها سالمة إلى بر الأمان . وإذا كانت النكبات الطارئة تُعفّي على النكبات التالدة ، فإن إصابة نجاح جديد ، تنسى مرارة ما سبقها من فشل . وكان إنقاذ البقية الباقية من الجيش الروماني مدعاة لغبطة قد يفوق وقعها غبطة ما كان يتوقعه ذلك الجيش من الانتصار .

ولم يفكر أولئك الجائعون العراة إلا في سد ثغورهم وستر أجسادهم، فلم تتحرك أحقادهم على حليفهم الخائن ، ولم ينزعوا إلى الانتقام منه ومن بلاده ، إلا بعد أن امتلأت بطونهم الخاوية ، وهدأت أعصابهم المنهكة المضطربة .

وسبق أنطونيوس جيشه إلى ثغر من ثغور الشام واقع بالقرب من بيروت ، حيث انتظر قدوم كليوبطرة وفقاً لموعد ضرب بينهما . وطال هناك انتظاره ، واشتد قلقه واضطرابه ، وطافت برأسه ذكرى الهزيمة المنكرة . وعاودته الشجون الجون والخواطر المسقمة . وتوهم فى نوبات قنوطه أن كليوبطرة قد تهمله وتقطع صلتها به ، وقد لا تنوى بالمجىء إليه وفق وعدها . وأتعبت الهواجس ذهنه ، وأفقدته ثباته . فكان يترك ندماءه ويجرى إلى الشاطىء لعل نظره ينعم برؤية السفينة المنتظرة تقل إليه حبيبته . وكان يتقلب طوال الليل على فراشه متبرماً متململا . أو يرهف أذنيه متوقعاً قدوم بشير . فاذا انبثق الفجر هب من فراشه ، وعاود الجرى إلى الشاطىء لامتحان الأفق النائى .

ولاح شراع السفينة الملكية فى النهاية . وتبدل شعور أنطونيوس ، فصار الآن يخشى اللقاء الذى كان يتحرق شوقاً إليه . وتقابل الزوجان حزينين واجمين . وبدل أن يقدم لها تاج الإمبراطورية الموعودة ، جادت هى على جيشه الجائع العارى بالميرة والمال . وهونت عليه خطبه بمحادثته عن مصر ، وعن غناها بمصر عن ملك العالم . وعاد العاشقان الغنيان بحبهما عما عداه إلى الإسكندرية ، مدينة الحب والفن والجمال .

ولكن الأمل واليأس لا بد يتعاقبان . فإذا أطبق اليأس عاد الأمل إلى الازدهار ، كما يتجدد الزهر فى الربيع . واستعان أنطونيوس بمال مصر ورجال مصر على بناء أسطول حجب عن الإسكندرية زرقة البحر . وتجييش جيش ملأ بطاح الشام وآسيا الصغرى . فاستعاد هيبته ،

ورجع إليه أعداؤه يتملقونه ويحالفونه . وعاد يحسب نفسه الإسكندر الأكبر ، ويفكر فى إخضاع روما وغزو الشرق .

وأحيا الزوجان الطروبان ليالى اللهو من جديد وصدحت المعازف وتعالى الغناء . ووصلت أنباؤهما إلى روما ، التى أحست بفقرها وعجزها عن لقاء جحافلهما الحاشدة . فقابلت ضجة طربهما بندب النوادب . وأيقن العالم أن النصر عقد لأنطونيوس ، وأن نجم أوكتافيون أوشك على الأفول .

وتطير ذوو العزائم الخائرة فى روما ، وبيّتوا النية على تحاشى الحرب بأى ثمن . وطلبوا من أوكتافيون أن يسالم أنطونيوس ، ويسلم بكافة مطالبه أيا كانت . ولكن خليفة قيصر أبى ، وقد أخذت الغيرة قلبه ، إلا أن يجابه العداء بمثله ، وأن ينتقم لأخته من الإهانة التى لحقت بها ، وألا يفرط فى زمام الحكم إلا إذا انتزع منه قسراً . فأخـــذ مواطنوه ينسلون من روما ، ويتخلون عنه ، وينزحون إلى الشرق لينضموا إلى معسكر عدوه . واستخف الناس بما كان يبذله من جهد متواصل فى سبيل الاستعداد لجيش الشرق الذى لا يقهر .

على أن الحظ فى الحروب لا يثبت فى جانب واحد من جانبى المعسكرين المختصمين . وإنما تظل أمور غير مظنونة تجدّ فتعكس ماكان فى الحسبان . وقد وجدت الجموع التى انشقت على أوكتافيون وتدفقت إلى الشرق ، أن أمير الشرق واقع فى قبضة كليوبطرة ، منصاع لكل رأى تراه . فلم تصادف هذه الحال هوى من نفوسهم ، لأنهم انحازوا إلى أنطونيوس بزعم أنهم يؤيدون مواطناً لهم على حساب

مواطن آخر . أما وقد وجدوا كليوبطرة متصرفة فى أمور الشرق ، مهيمنة على جيش الشرق ، فلم يعد موقفهم مما تطمئن إليه خواطرهم . وطالبوا أنطونيوس بأن يعيد كليوبطرة إلى مصر ، ويتولى أموره بنفسه ، حتى يقضى على ما يحوم حولها من ظنون وشبهات .

وكاد ينصاع لرأيهم لولا أن الخبر وصل إلى علم كليوبطرة. فأغضبها أن تكون صاحبة الفضل الأول فى إعداد ذلك الجيش الكبير ، وأن تتولى خزائنها الإنفاق عليه ، ثم يحال بينها وبين الإشراف عليه والاطمئنان إلى مصيره . وخشيت فوق ذلك أن تذكو العاطفة الوطنية فى قلب أنطونيوس من جديد . فلا يُعنى — إذا تخلت عنه — إلا بمصلحة روما ، ويحنو على مواطنيه فلا يهتم إلا بأمرهم ، وتنزع نفسه إلى أوكتافيا فيعود إلى خدرها . فبذلت قصاراها فى صرفه عن ذلك الرأى ، واستطاعت أن تقنعه بفساده مستعينة بلباقتها حيناً ، وبدفاع أصدقائها لدى أنطونيوس عن وجهة نظرها حيناً آخر .

الموقعة الفاصلة

ولكن بقاء كليوبطرة مشرفة على الجيش المعد لاقتحام روما وإخضاعها ، أقض مضاجع الرومانيين . وصار كل رأى تدلى به الملكة المصرية يُؤوّل عندهم أسوأ تأويل . وكل تفريط يصدر من أنطونيوس فى حقوق زعامته ، يزيدهم نفوراً من الدخيلة ذات الفضول ، وشعوراً بقوميتهم ووطنيتهم . وإذا أخذ روح التذمر يفشو فى الجموع الحاشدة ، انتشر فيها انتشار النار فى الهشيم ، واستفحل شره واستعصى .

وبعد أن كان الحقد على كليوبطرة مكتشما بين الضلوع ، باح به كاتموه بعد أن ضاقت به صدورهم . وأبدع المتحدثون عنه فى تصويره ، وفى تجسيم الخطر الذى يتهدد روما من جراء تحكم كليوبطرة فى زعيمهم . وظهر فى ميدان الأقاويل أصحاب الخيال الشاطح الذين اخترعوا مختلف الإشاعات عن مشروعات خطيرة نسبوها إلى كليوبطرة ... زعموا أن قصدها يتجه فى النهاية إلى قهر الدولة الرومانية وضمها إلى ممتلكات الإمبراطورية المصرية ، والتخلص من أنطونيوس وتفردها بحكم أكبر إمبراطورية فى العالم .

وساعد الظاهر على تصديق الرومان لهذه الإشاعات . فقد كان رجال مصر ومال مصر قوام جيش أنطونيوس . وكان للساسة المصريين والقادة المصريين الرأى الأول فى تصريف أموره . ولم يعد فى وسع الرومانيين المتكبرين احتمال هذه الحال . وقاموا بسعى أخير للتفريق بين زعيمهم وآسرة لبه . ولما فشل مسعاهم أخذوا يهجرون أنطونيوس ويعودون إلى أوكتافيوس من حيث أتوا . ولم يقتصر أمر الهجرة على الذين انسلخوا من جيش روما وانضموا إلى جيش الشرق أخيراً ، وإنما سرت عدوى الهجرة إلى أتباع أنطونيوس القدماء الذين طال بقاؤهم فى الشرق ، فوجدوا فرصة سانحة لعودتهم إلى مواطن صباهم ومراتع هواهم . فتألفت منهم مواكب لا يرى الطرف آخرها ، اتجهت نحو الغرب ، وخلفت قباب أنطونيوس وراءها .

وانتثر جيش الشرق كالعقد الذى انقطع سلكه . وعاوده الجزر بعد المد . وتقلصت عنه الآمال ، بعد أن انعقدت عليه . وأيقنت

الكافة من النهاية التى تنتظره ، لأن انشقاق المنشقين عليه لم ينقص عدده فحسب ، وإنما أفقده الروح المعنوى الذى هو عماد النجاح فى كل كفاح .

وحل جنود أوكتافيون بشمال بلاد الإغريق . ونشط قربهم من جيش أنطونيوس حركة الانشقاق عليه . وتلق أوكتافيون المنشقين بذراعين مبسوطتين . ولاحظ بعينين قريرتين نماء جيشه واشتداد قوته المعنوية . وانتظر لقاء عدوه فى اطمئنان وهدوء بال .

وإذا أخذ نجم الحظ يميل للمغيب ، فلن يحول شىء دون أفوله . وقد غشى النحس أنطونيوس ، وودعه الحظ بغير رجعة ، فاضطر إلى ملاقاة خصمه على عجل قبل أن تهجره البقية الباقية من رجاله . وتعددت بينهما الملاحم ، وتوالت عليه الهزائم . وكانت كل هزيمة تملؤه قنوطاً . ولكن طبيعة الإنسان الجانحة إلى الأمل كانت تعاوده فتدفعه إلى القتال .

ووضعت كليوبطرة أملها فى أسطولها القوى . وقدرت أن الغلبة ستكون فى النهاية للمنتصر على صفحة الماء . وحاولت أن تدفع بسفنها للموقعة الفاصلة . ولكنها خشيت العاقبة ، وأرادت أن ترجىء المقدر على جاليه . وكان أوكتافيون يرى رأى كليوبطرة ، ويعلم كذلك أن تحطيم الأسطول المصرى يقطع عليها طريق الرجعة إلى مصر ، ويضع حداً للحرب لا محالة . ولم يكن متردداً هيوباً مثلها ، فأصدر أمره لمراكبه بمهاجمة المراكب المصرية فى مرساها وإرغامها على القتال . وخشى أنطونيوس أن يحاصر الأسطول المصرى فى الميناء التى احتمى

فيها فتقدم به إلى عرض البحر . وقامت الموقعة البحرية التي كان مصير كل من الزعيمين الرومانيين يتوقف عليها .

ولم يكن الحظ الذى فارق أنطونيوس فى البر ليؤاتيه فى البحر . واستمات الرومانيون فى القتال ، هاجموا المصريين هجوم الضوارى . وأخذ البحر يبتلع قطعة من الأسطول المصرى بعد قطعة ، وكليوبطرة تشاهد المأساة من متن سفينتها عن بعد ، فتتبدد آمالها تبدد أسطولها . وما فقدت البقية الباقية من الرجاء حتى أمرت بنشر قلاع مركبها وتحويل سكانه صوب مصر .

ورأى أنطونيوس ، وهو لا يزال مشتبكا فى النضال البحرى المروّع ، الشراع الأرجوانىّ منشوراً ، فعرف السفينة المصرية الملكية « أنطونيا » ، وطار لبه إذ رأى كليوبطرة تهجره ، وأمر ملاّحيه باقتفائها ، وغادر الموقعة دائرة الرحى ، وخذل أشياعه وتركهم يصطلون وحدهم نار الحرب التى لم تتأجج إلا فى سبيله . وسار خلف حبيبته فاقد الرشد مسلوب الإرادة . حتى إذا ما لحق بها ، وانتقل إلى متن سفينتها أبت أن تقابله . والرجل الذى يضحى على مذبح هيامه بمجده وصيته ومقامه ، يهون عليه بذل البقية الباقية من كرامته فى سبيل استبقاء ودّ حبيبته . وقد ظل أنطونيوس واقفاً على باب كليوبطرة مستكيناً ، حتى أذنت له باللقاء .

وشاع نبأ فرار أنطونيوس بين وحدات جيشه ، ولكن أحداً لم يصدق الإشاعة . ومن ذا يصدق أن قائداً مغواراً مثل أنطونيوس يتخلى عن جيشه الواقع فى مثل ذلك المأزق الحرج ؟ أنطونيوس الذى

لم يعرف الجبن والخور والخيانة ؟ وواصل الجيش القتال سبعة أيام طوال ، وهو يتوقع فى كل يوم ظهور قائده وبطله بين ظهرانيه. ولما طالت غيبة الزعيم أيقن جنده أنه مات فسلموا .

ووصلت السفينة « أنطونيا » إلى ميناء الإسكندرية وعلم الثغر المصرى بأنباء الهزيمة النكراء غيمت عليه الكآبة ، بينما تعالى فيروما ضجيج الهتاف وأصداء الغناء الذى بلغ عنان السماء. وشغلت كليوبطرة وأنطونيوس بالتفكير فى الوسيلة التى يدرآن بها خطر جيش أوكتافيوس الزاحف إلى مصر .

الراحة الأبدية

ولم يكن من السهل على أنطونيوس أن يفقد كليوبطرة ، ويودع العيش الوريف الذى نعم به فى ظلال حبها ، ورأى فى عينيها المشرقتين لألاء الرجاء ، فالتهب نشاطاً فى سبيل حمايتها من الخطر المحدق بها . وبعث برسله إلى أصدقائه القدماء من ملوك وأمراء يلتمس نجدتهم فلم يعيروه غير أذن صماء . وتوغل جيش أوكتافيوس هذه الأثناء فى أرض مصر ، وسار إزاء شاطىء الوجه البحرى حتى وصل إلى رشيد . وأخذ أنطونيوس فى تجهيز جيش لملاقاته ، ولكنه فوجىء أثناء انهماكه فى أداء هذه المهمة بنبأ فحواه أن حامية رشيد سلمت للعدو من غير مقاومة . وبالرغم من النكبات التى حلت به ، فقد فاق سوء وقع هذا النبأ كل ما عداه من أسواء ، لأنه كان يشتمل على معنى فوق معنى الهزيمة الحربية . كانت رائحة الخيانة تفوح منه ؛ فهل نكثت كليوبطرة بعهده ؟ هل

تواطأت مع عدوه عليه ؟ وأسلمته لوعة الفشل فى الحرب إلى لوعة الفشل فى الحب ، وسدت عليه آلامه كل سبيل .

على أن حب كليوبطرة انتصر على سائر عواطفه المتضاربة المتباينة . انتصر رغم ما ساوره من شكوك ، ورغم ما لحق به من إساءة . وطلب من خصمه الصلح من غير أن يشترط سوى شرط أوحد ، هو أن يُبقى ذلك الخصم على كليوبطرة وملك كليوبطرة . ولم يُعن أوكتافيون بالرد على هذا العرض ، وجُن أنطونيوس إشفاقاً على زوجته المحبوبة .

ولم تقف أسباب تنغيصه عند حد . فبينما كان يدخل فى أحد الأيام على كليوبطرة مقصورتها ، وجد فى حضرتها رسولاً من قبل أوكتافيون . وأدرك من جلسته أنها قربته إليها ، وظن فى كنه رسالته الظنون لأنها لم تحدثه عنها ، وانقض عليه ، وقد هاجته الغيرة ، وأمسك بتلابيبه وجره خارج القصر الملكى ، وألقاه على الأرض وأوسعه لكزاً .

جاء رسول أوكتافيون إلى كليوبطرة ، ليلقى فى روعها أن سيده لا يريد بها شراً ، وأنه مزمع صيانة استقلال مصر بشرط أن تتخلى عن عالقة أنطونيوس وتسلمه إليه . ولم تكن كليوبطرة لتطمئن إلى هذا الوعد السمح من أوكتافيون ، لولا أن الرسول أخذ يخدعها بالإطناب فى وصف جمالها الذى لا يُرى له مثيلا ، ويوهمها بأن سيده يتوق إلى لقائها بعد أن وصل إليه صيتُ فتنتها الساحرة .

وأعاد التاريخ نفسه لكليوبطرة . ووجدت نفسها فى المأزق الذى وقعت فيه على أثر مقتل قيصر . فعليها أن تختار بين داعى العاطفة وداعى الواجب . وهى إن أخلصت اليوم لأنطونيوس خانت عرش

مصر ، وعرّضت الشعب المصرى وذريته لذلّ الاحتلال الأجنبيّ مدى أجيال ، لقد حمى وطيس الصراع بين مصر وروما . واستطاعت ملكة مصر أن تردّ — حتى اليوم — غائلة روما عن بلادها . فهل تذبذب اليوم ؟ هل تفقد شجاعتها وتحجم عن بذل تضحية أخيرة فى سبيل بلادها الجميلة .

وأدرك أنطونيوس ما يجول بخاطرها ، وفهم أنه لا يستطيع أن يحتفظ بها ويسترد ثقتها ، إلا إذا أفلح فى إنقاذ مصر من المعتدى . فخطر له وهو يتخبط تخبط اليأس أن يسافر إلى الشام ويستعين هناك بصديقه القائد جالوس على إعداد حملة يزحف بها إلى مصر . ويهاجم بها جيش أوكتافيوس من الخلف ويقطع عليه خط الرجعة . ولم يتردد فى تنفيذ هذا الخاطر . وسافر إلى الشام بحراً ، فإذا به يجد جالوس وغير جالوس من قادة الرومان يتنكرون له ، ويحفظون عهد أوكتافيوس . فلبّ إلى الإسكندرية موجع القلب كسيف البال .

ولم يهدأ عقب عودته ولم يستسلم لليأس ، بل جمع فرسانه وخرج بهم من أسوار الإسكندرية وهاجم الجيش المعادى الذى كان يرابط حول المدينة ، وحمل عليه حملة أججها الحقد والذل ، فشتت شمله أى تشتيت ، وطوّح به بعيداً من معسكره . ورجع إلى كليوبطرة وقد روّح عن نفسه بعض الشىء ، واستعاد بعض أمله وبعض ثقته بنفسه ، وأعلن أنه سوف يلتحم بجيش عدوه فى موقعة فاصلة فى اليوم التالى .

واحتفلت كليوبطرة فى المساء بالنصر المجزوء الموقوت . وأغرق أنطونيوس تلك الليلة فى احتساء الخمر ، وبدا على وجهه الوجوم .

وتمّ حديثه عن يأسه من غده ، وفسّر جلاّسه بعض عباراته على أنها عبارات وداع ، فاغرورقت العيون ، وسال الدمع على خدى كليوبطرة.

ولم يطعم الغمض تلك الليلة ، وقام قبل الشمس ، وصعد إلى ربوة خارج المدينة ، حيث اصطف جيشه استعداداً للهجوم ، فجال بين صفوفه ، واستوثق من حسن استعداده ، وانبثق الفجر ، فعول على إصدار أمره لأسطوله بالهجوم . ولكن وقع فى هذه الأثناء ما كاد يكذب فيه نظره . رأى أسطوله يقترب من سفين أعدائه وحيها برفع مجاذيفه ، وترد مجاذيف أعدائه التحية ، ويلتئم شمل الفريقين ، بعد تقاتلهما وتناحرهما .

عاد فوراً إلى جيشه ، فأبصر فرسانه يرخون الأعنة لجيادهم ، ويركضون إلى جيش أوكتافيون ، فطاش صوابه . وعاد سريعاً إلى المدينة صائحاً صياح الخبول ، متهماً كليوبطرة بالغدر والخيانة . وجرى إلى قصرها يسأل عنها ، فأخبره خدمها أنها سبقته إلى القبر منتظرة أن يلحق بها فى الدار الباقية .

هدأت لهذا النبأ ثائرته ، ونسى الأحداث الجسام التى مرت به ، وتولاه حزن هادىء ، ووجم فترة ، ثم قام متثاقلا ، ونادى أحد أتباعه ، وناوله سيفه ، وصاح به « أغمد النصل فى صدرى » . ولكن التابع لم يحتمل هول الموقف ، فتناول السيف وقد ارتسمت على وجهه معانى الإخلاص والتضحية ، وصوبه إلى صدره هو وأغمده فيه ، مفضلا الانتحار على قتل سيده . وجرى إليه أنطونيوس بعد أن نفذ المقدور ،

ونزع السلاح من بين أوصاله وصاح : « لقد رسمت لى الطريق الذى يجب أن أسلكه » . وأودع النصل جانبه الأيسر بدوره .

وكانت كليوبطرة معتكفة فى هذه الأثناء فى المقبرة التى بنتها لنفسها فى حديقة قصرها . واختلت هناك بوصيفتيها الأمينتين شارميان وإيراز . وبنت حائطاً مكان الباب الذى دخلت منه حتى لا يقلقها أحد فى خلوتها . وكان غذاؤها اليومى يرفع إليها بواسطة حبل تدليه وصيفتاها من نافذة المقبرة العالية . وسمعت الصياح الذى تعالى فى الفضاء على أثر الحادث الذى جرى لأنطونيوس ، فأطلت من النافذة وسألت عن الخبر ، وعلمت بما حدث ، فصاحت ملتاعة : « احملوا زوجى إلىّ » . وجىء به تحت النافذة وهو فى النزع الأخير ، وشُدّ عليه الحبل الذى أخذت كليوبطرة ووصيفتاها تسحبانه فى جهد . وصور بلوتارك هذه الصورة الرائعة فى الأسطر التالية :

« ليس هناك منظر يبعث على الإشفاق كهذا المنظر . . أخذت كليوبطرة تسحب الحبل وقد تشنجت يداها ، وتقلصت أعضاء وجهها . بينما أنطونيوس يجهد نفسه ، وهو فى سكرات الموت ، بالتعلق فى نتوء الحائط ليخفف حمله على حبيبته . واستطاع أخيراً — إذ وصل إلى النافذة — أن يتملى بوجه كليوبطرة الحبيب المشرف عليه » .

ومددته على فراشها ، وأكبت عليه باكية . وأسند رأسه إلى كتفها ، وشخص ببصره إليها ، وظل هكذا حتى لفظ نفسه الأخير . فأخذت تشهق وتلطم خديها ، وتمزق ثيابها ، وتشد جدائلها . وتندب حظها

العاثر . ونسيت فى هذه الساعة الرهيبة عرشها وبلادها وواجبها، وعزمت على اللحاق بحبيبها .

ووصل إلى أوكتافيون نبأ انتحار أنطونيوس ، وأراد محاكاة عمه قيصر الذى بكى لدى مشاهدة رأس بومبى . فحمل رأسه بين يديه ، واسترسل فى ترديد الزفرات على مرأى من حاشيته . على أنه خشى على كليوبطرة أن تلحق بحبيبها . فأرسل إليها بروكليوس ، صديق أنطونيوس أيام مجده ، ليمنعها من الانتحار . واقتحم الرسول ، ومعه القائد جالوس ، مقبرة الملكة ، خلسة الأسر . ووجدت الفرصة سانحة لتنفيذ أمنيتها ، فسحبت من نطاقها نصلا أعدته لمثل هذه الساعة، وقبل أن تتمكن من شق صدرها به ، نزعه جالوس من يدها ، وأقام حراساً لمراقبتها ومنعها من مفارقة هذه الدنيا .

ولكن شارميان استطاعت أن تخاتل الحراس ، وتفلت من نطاقهم المضروب حول الملكة وخدمها ، وأن تحكم وضع خطة لتنفيذ إرادة الملكة . وفى أحد الأيام دخل أحد الخدم المقبرة يحمل سلة مملوءة فاكهة واردة من الشام ، ولم تثر السلة شكوك الحراس رغم أن الفاكهة كانت تحجب أفعى سامة ثاوية فى قاعها .

وحمل أحد الحجاب وصية كليوبطرة إلى أوكتافيون . فما فض مظروفها حتى خف إلى المقبرة ، وقد أخذ منه القلق مأخذه . وهناك وجدها ممددة على فراشها وقد علت ثغرها ابتسامة خفيفة . فأسرع إليها وجس يدها فوجدها باردة هامدة ، وارتمت إلى جانب قدميها

جثا وصيفتيها الأمينتين . واستطاعت الملكة الجليلة أن تصون كرامتها بهذه الخاتمة ، وتفوت على خصمها متعة الانتقام منها باقتيادها إلى روما في أصفاد الأسر .

واختتم أحد مؤرخي الغرب تاريخ كليوبطرة بهذه الخاتمة المؤثرة .

« في يوم من الأيام عاشت ملكة كانت تود أن يشاركها مُلكها ملك عظيم . ولكنها لم تصادف ذلك الملك ، فآثرت أن تهجر عالم الأحياء وتصحب مُلكها في قبرها » .

سقوط قسطنطينية

فى أيدى العثمانيين عام ١٤٥٣

ما وصل نبأ موت مراد الأول سلطان العثمانيين إلى مسامع ولده ووريثه محمد حتى إمتطى صهوة خير جياده الأصيلة ، وأرقل به حتى قطع مائة وعشرين ميلا شوطاً واحداً ، ولم يترجل إلا عند شاطىء البوسفور ، وركب هناك البحر إلى غليبولى ، حيث جمع حوله خلصاءه وطالبهم ببث الدعوة له ، ووضع لهم خططها ، وأشرف على تنفيذها ، ولم يهدأ له بال ، ولا أغمض له جفن ، ولا استقر به مكان ، حتى فرغ من التنكيل بآخر منافس له من أهله ، أو خارج عليه من رعيته ، ودانت له البلاد واستتب الملك .

وافتتح عهده — وكان يجاوز العشرين بقليل — بهذه الغيرة على الملك ، وذلك الجد فى سبيل توطيده ، وما اطمأن إلى أمن بلاده فى الداخل ، حتى امتد بصره إلى الخارج ، ودفعته غيرته التى لا تفتر ، وجلده الذى لا يهن ، إلى توسيع ملكه ، فتطلع إلى بزنطة[1] جوهرة أوربا الشرقية ، وأقسم ألا يرجع عنها قبل أن يفتحها .

سمع أهل بزنطة بتولى الأمير الفتى الطموح أمر الأتراك ، فساورتهم الهواجس . ولم يقصر الجواسيس فى أداء مهمتهم ، فنقلوا لهم عنه مختلف الأنباء . تحدثوا عن همته وطموحه ، وعن طول باعه فى فنون السياسة

---

(١) قسطنطينية

والحرب ، فهو معجب بسيرة قيصر ، يقرؤها فى لغتها الأصلية ، ويود التشبه بذلك العاهل الكبير . وهو تقى وورع ، ولكنه يجمع إلى ورعه وتقواه سورة السلطان وجبروته . وإلى خشوعه الدينى صلف الحاكم المستبد وجوره . وتنقلب عيناه الهادئتان الساهمتان وقت الحلم إلى جذوتين متقدتين عند الغضب . وهو إلى كل ما تقدم قد أقسم أن يفوز بمدينتهم الجميلة ، وهو يعد لذلك عدته .

كانت بيزنطة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية التى امتدت أملاكها إبان عزها من تخوم الفرس إلى سفح الألب . فتقلصت أقاليمها الشاسعة ولم يبق منها إلا العاصمة التى يجتازها السائر على قدميه فى ثلاث ساعات. صارت بيزنطة رأساً بغير جسم ، يتاخمها الأتراك من شرقها ومن جنوبها ويحدجونها بنظرات الطمع فيها واللهفة عليها .

بقيت هذه المدينة الغنية بكنائسها وقصورها مهد الحضارة الأوربية مدة عشرة أجيال ، فعدتها أوربا رمز شرفها وعزتها . وماكانت لتقصر عن مد يد المساعدة إليها ، لولا ما قام بين كنيستها وبين كنيسة روما من جفاء . ولما نجم الأوربيون عود الأتراك وعرفوا قوتهم العسكرية فى عهد السلطان بايزيد ، حتى تولاهم الخوف عليها ، وعز على أمرائهم أن يخذلوها ، فسعوا فى سبيل التوفيق بين الكنيستين ، حتى لا تحجم روما عن نجدتها . ولكن أناة السلطان مراد واشتهاره بالعقل والاعتدال أوهم البيزنطيين بعد الخطر عن بلدهم، ودفعهم تعصبهم الدينى إلى رفض الاتفاق مع البابا .

وما تولى محمد أريكة الملك حتى عاد الخوف فحل محل الطمأنينة ،

وسارع قسطنطين آخر أباطرة بيزنطة إلى إيفاد رسله - طائفة بعد طائفة - إلى روما والبندقية وفلورنسا ، مستنجداً البابا ، مستغيثاً بأمراء المسيحية ونصرائها ، معلناً خضوع كنيسته للكنيسة الغربية الكبرى ؛ تلبي البابا نداءه ، وأرسل إليه نوابه لإبرام الصلح بين الكنيستين ، والنداء بأن من يمس بيزنطة يستثير حنق المسيحية بأسرها. كما جاد عليه بعدة سفن محملة وسمها جنوداً وذخائر .

أقيمت حفلة الصلح فى كنيسة القديسة صوفيا الشهيرة ، وتصدر الإمبراطور قسطنطين قاعتها الكبرى ، وأحاطت به حاشيته وكبراء مدينته، وجلس إزيدوروس رسول البابا أمام المذبح ، وأخذ البطريق جريجورى مكانه إلى جانبه ، وسطعت الأنوار المتلألئة ، وخلع المكان الذى بتماثيله ورياشه مظاهر الأبهة والجلال على الحفلة التاريخية. وانتظم الجمع فى جو من الألفة والوئام ، ودلت بوادر الاحتفال على تمامه . ولكن ما كاد يسود التعقل ، ويؤلف بين الجمع التام ، حتى جمح التعصب بالراهب البيزنطى جينوديوس ، فقام وسط الحفل فى حدة ، وصاح فى صوت جهورى متهدج بأنه برىء من الكنيسة الكاثوليكية ، وبأن أتباعها خارجون على أصول المسيحية الصحيحة . فسرت عدوى التعصب إلى سائر الرهبان ، وتفشى فيهم روح المقاومة والعصيان ، وتبدلت مظاهر الوئام ، فإذا بها سراب خادع ، وإذا بصيحة الطيش تطيح بآمال أمة حرجة .

* * *

لم يشذ السلطان محمد الفاتح عن سائر الطغاة الذين يكثرون من

أحاديث السلم كلما أرادوا الحرب . فقد أعلن لرسل الإمبراطور قسطنطين أنه لايريد ببلدهم شرا ، وليس له فيه مطمع . ولكنه عقد فى ذلك الوقت معاهدة صداقة ومهادنة مع كل من الصرب والمجر لينفرد بفريسته . وما فرغ من دعاية السلم حتى أضرم الحرب إضرام الحم .

كان ساحل البسفور الآسيوى الحد الفاصل بين تركيا وبيزنطة . واعتادت السفن البيزنطية أن تمخر ذلك المضيق فى أمان . ولكن السلطان أمر بتشييد قلعة إزاء الروملى حصار عند أقرب موقع من الساحل الأوربى . فجىء بمائة ألف عامل عبروا المضيق ، واقتحموا أرضاً سبق للدولتين المتجاورتين أن اتفقتا على بقائها شقة حياد بينهما ، وهدموا منازلها ، وأخذوا أحجارها ليتموا بها بناءهم . وأشرف السلطان على عملهم بنفسه ، وظلت بيزنطة ترقب — والأوان أوان سلم — هذا الاستعداد للحرب ، وهى لا تملك مع ضعفها وعجزها غير السكوت والإذعان . وفى عام ١٤٥٢ أعلن السلطان لوزرائه عزمه على اقتحام بيزنطة . وما حل ربيع العام التالى حتى اكتمل لديه جيش عرمرم ملأ البطاح الممتدة أمام الأسوار البيزنطية .

وقبل البدء فى الهجوم وقف العاهل العظيم حافى القدمين ، متجهاً بوجهه صوب مكة المكرمة ، وأم ذلك الجيش اللجب . وإذ سجد خاشعاً سجد وراءه الحفل المحتشد ، فتجلى منظر بليغ رائع . وما انتهت الصلاة حتى عاد العبد المسكين زعيما مطاعاً مرهوب الجانب .

• • •

لم يعد لبزنطة من شأن حربى ، بعد ضياع إمبراطوريتها ، إلا ما احتفظت به أسوارها الضخمة العالية من بقية مجد ومنعة . كان قسطنطين الأول البادى فى تشييدها . ثم أعقبه جوستنيان فأتم بناءها، ولكن الفضل فى تقويتها يعود إلى تيودور ، فهو الذى جعل من مدينة بزنطة قلعة بعيدة المنال . ولا تزال أنقاض هذه الأسوار باقية إلى اليوم ، دالة على ماكانت عليه من قوة أيام عزها .

ولم يكن محمد الفاتح بالغافل عن منعة هذه الأسوار ، وعن عجز الفاتحين قبله عن اقتحامها . ولا فاته أن كل ما عرفه عصره من آلات التدمير والتخريب لا ينال من تلك الأسوار أى منال .

وضع على مكتبه خريطة بزنطة وما يحيط بها من قلاع ، وعكف على دراستها ، فما خفى على عينيه الفاحصتين موضع ضعف فيها ، ولا غاب عن ذهنه المتوقد خطة تنال منها .

ولكن الذى أنشأ تلك الحصون أراد لها أن تثبت لآلات التدمير المعروفة . فعلى السلطان إذاً أن يصنع آلات تدمير لم تخطر قوتها وشدة فتكها ببال ذلك المهندس القدير ، وما أعلن أنه لن يضن بأى قدر من المال بالغاً ما بلغ على من يخترع المدفع الذى يصدع أسوار بزنطة ، حتى تبارى المخترعون لتحقيق أمنية السلطان . وإذا قيل : « أى قدر من المال بالغا ما بلغ » فأى عقبة يمكن أن تحول بين العقل البشرى والوصول إلى قصده ؟ ظهر مهندس مجرى إسمه أورباس ادعى القدرة على تحقيق رغبة السلطان ، فأنشىء له مصنع وجىء له بما طلب من حديد وأدوات وصناع، وفتحت له خزانة الدولة يأخذ منها ماشاء

من مال . وبعد جهاد ثلاثة أشهر ، خرجت الآلة من المصنع ، فشاهد الناس أكبر مدفع رآته عينان ، وكلل المجهود بالنجاح . ولكن قامت مشكلة جديدة ، مشكلة نقل تلك المدافع الهائلة إلى المكان المعد لها بساحة القتال . لا توجد عجلات نقل تحمل ثقلها ، ولا أدوات ترفعها إلى العربات وتضعها منها . ولكن عزم السلطان لا ينثنى أمام العقبات ، فهو غير راجع عن غزو بيزنطة ، ولا مناص من نقل مدافعه لدك أسوارها ؛ وها هى ذى أمته ترقب جهوده ، وها هو ذا جيشه ينتظر المسيرة الجديدة . صدر أمره إلى آلاف الصناع فأعدوا العربات المتناة ، وإلى آلاف العمال فمهدوا طرق عبورها . وبعد الانتهاء من ذلك العمل الشاق الذى استغرق عدة أشهر ، تهادى موكب المدافع ، يجر كل عربة من عرباته مائة ثور ، ويسندها مائة رجل . واحتشد على جانبي طريقها القرويون يرقبونها فى دهشة ووجل . وهكذا استطاعت إرادة الإنسان أن تحقق المستحيل مرة أخرى ، وبدأ دخول المدفعية الضخمة ميادين القتال .

أبرقت المدافع الجبارة وأرعدت ، ونقبت بعض قذائفها الأسوار الحصينة ، ولكن الأتراك لم يستطيعوا موالاة الضرب خشية أن تنصهر فوهات مدافعهم ، فاتسع لدى البيزنطيين الوقت لترميم تلك الثقوب قبل أن يستفحل أمرها ، ولكنهم فزعوا من عدة عدوهم وعديده ، وأيقنوا أن مقاومتهم موقوتة ، وأن خذلانهم قريب ، إلا إذا تعطف عليهم الغرب ، وبعث إليهم بالنجدة الموعودة . جعلوا يرقبون البحر بأعناق مشرئبة ، وعيون شاخصة وقلوب عالقة ، وكم ترددوا بين الرجاء

واليأس ، وكم تغاذلوا بعد التجلد والعزم ، واستسلموا للضعف والخوف .

وفى الساعة الثالثة من صباح ٢٠ أبريل ظهرت فى الأفق الغربى قلاع بيضاء تقترب من البسفور . فسرى الخبر كومض البرق بين البزنطيين الذين تجمعوا فوق الأسوار ليزدادوا تحققاً من الخبر الذى طال انتظارهم له ، وليحيوا الأبطال الذين جاءوا لمعونتهم ، ولكن لم يظهر لهم غير أربع سفن ، فالأسطول المرتقب لم يصل بعد ولكن لعل هذه السفن طلائعه . وعلم السلطان بما جد ، فخف إلى شاطىء اليم ، وأمر أسطوله الذى كان راسياً إلى الشاطىء الأسيوى بتعقب أعدائه ، ووقف يستحث قادته ، ويستثير همة بحارته الذين أخذوا يضربون بمجاديفهم فى البحر المتلاطم فى عزيمة التائق إلى النصر . ولكن قلاع السفن الرومانية امتلأت برياح الشمال . واقتربت من بر غلطه — مدخل ميناء إسطنبول — فتهلل البزنطيون المطلون من أسوارهم فرحا ، واحتدم الأتراك المتجمهرون فى الشاطىء الأسيوى حنقاً ، إذ أيقن الكافة أن الفريسة أفلتت من قبضة المطارد . ولكن القدر الملىء بالمفاجآت شاء أن تسجو الريح فجأة . وترهل القلاع المنتفخة ، وتقف السفن وهى على مسيرة دقائق من مرفأ الأمان ، فيبدل تهلل البزنطيين إشفاقا وجزعا ، وحنق الأتراك جذلا وطربا ، واشتبك السفين فانقلب سطح البحر إلى مسرح مثل المتحاربون فيه أفجع مأساة ، وشهد النظارة رواية يعلمون أنهم سوف يشتركون فى فصلها الأخير .

طال هذا المشهد ساعات حمل الأتراك فيها على أعدائهم وهم يصيحون صيحات مدوية تزيد الأعصاب رعدة والقلوب فرقا . وجرت سفينة

أمير البحر التركى على رأس أسطوله ، وكانت البادئة بمقاتلة العدو فشدت هذه الخطة عضد الأتراك ، وألهبت حماستهم ، فقاتلوا قتال الجبابرة ، وتصدى لهم الرومان وقد تملكتهم سورة اليأس ، فاستبسلوا استبسال المستميت اليائس . واتخذوا من عباآتهم دروعاً ثم التحمت أجساد المقتتلين،وانهال عليها الطعن والإثخان ، وتساقط الرجال بعضهم فى قاع المراكب حيث عرست وجوههم النعال، وبعضهم فى الماء حيث ابتلعهم اليم الرهيب . والنظارة ترى المجزرة الآدمية فى حافة الشاطئين مرأى العين ، وتتبع تطوراتها واجفة ذاهلة . ويتشيع كل معسكر منها لفريقه، ويستثير حميته بصيحات التشجيع ، ويتوعد خصومه بهز قبضات الأيدى، ودفع الهواء بالمناكب ، والزم بالأنوف . وأيقن الجميع أن الروم لامحالة هالكون عن بكرة أبيهم ، إذ لا بد لمقاومتهم من نهاية . فإن استطاعوا الثبات حتى يلقى الظلام عليهم ستاره ، فلن يجدوا تحت ستاره للهرب سبيلا ، لأن الأمواج كانت تدفع بسفينهم إلى الشاطىء الآسيوى حيث ينتظرهم الجيش التركى شاكى السلاح . ولكن شاء القدر أن يعود إلى السخرية بالبشر ، وأن يحرك الريح فى أشد حالات القنوط والحرج ، فيملأ شراع السفن الرومانية ، ويدفعها إلى الميناء الذى يغلق وراءها مدخله . فتفلت من هلاك كان يبدو محتوماً .

* * *

دامت أفراح المدينة المحاصرة لهذا النصر ليلة واحدة ، شحذ فيها الظلام الخيال ، لجسم الأوهام والأحلام . خيل للقوم أن أوربا لم تنسهم وأن نجداتها آتية تترى وأن النجاة كتبت لهم . وتمطوا القضاء ،

صورت لهم أعصابهم المضطربة عدوهم مهموماً قانطاً ، يجمع قضه وقضيضه ، ويرجع عنهم أدراجه . آمال سعيدة استعذبوها بعد قضاء يوم مرير ، ولم يجدوا عنها غنى إذ عليها تتوقف مصايرهم ، فنهلوا منها حتى انتشوا .

والسلطان محمد كذلك رجل أحلام ، ولكنه من أولئك الحالمين الذين يعرفون كيف يحققون أبعد الأحلام منالا . لم يرض بما انتهت إليه تلك الموقعة البحرية ، واغضبه أن يقبع أسطول أعدائه آمناً وراء شبه جزيرة القرن الذهبى ، تحميه تلك الذراع الممتدة فى الماء ، فوضع للوصول إليه خطة لا تخطر ببال ، خطة جديرة بأن تبرز فى التاريخ إلى جانب أعجب ما فكر فيه ذهن بشرى ، وأبرع ما حققه إنسان .

منعه من اقتحام مضيق غلطه ومفاجأة السفن المعادية المتوارية فى خليجها ، اتفاقه السابق مع البيزنطيين على حياد ذلك المضيق ، فعزم على الوصول إلى بغيته بنقل أسطوله براً فوق عقبات القرن الذهبى وصخوره . لقد أغرب هذا المفكر العبقرى أى إغراب ! لأن السفن لا تمخر غير العباب ، فإذا قضى السلطان بأن تشق السفن صدر الأرض ، فقد فاجأ العقل والمنطق بما لم يتوقعا ، وقد فاجأ العدو بما لم يجر فى حسبانه . وأى خطة أنجع فى الحرب مما لا يجرى فى الحسبان ؟ وأى فكرة أدل على العبقرية من التى تخرج من حدود الأوضاع المألوفة التافهة إلى فسحة الابتكار والإبداع ؟؟

انهمك الجيش كله فى تمهيد الطريق لإنفاذ المشروع ، وجىء بعجلات النقل الضخمة ، وأدوات الرفع المتينة ، وضاعفت المدافع

جهودها لتصرف نظر الأعداء عما يجرى فى الخفاء . وقام كل بعمله وهو يجهل الغاية منه ، فلم يعرف حتى قادة السلطان أو خاصته كنه ما ينتويه ، ومن أين لهم العلم بنيته ، وهو الذى أقسم أن يقتلع من جلده أى شعرة تعلم بما يدور فى خلده ؟

وخيم الظلام فابتدأ تنفيذ المشروع الخطير ، وأخذت المراكب تجرى فوق وهاد الأرض وتلاعها . وقضى الأمر فى صمت كما يقضى كل أمر جليل ، وفى حرص كما يتم كل أمر خطير . وتحقق ذلك المشروع الخيالى الخارق ، وطلع الفجر ورأى البيزنطيون أسطول أعدائهم يتقدم فى خليجهم ، مقبلا من ناحية شبه الجزيرة ، فخيل إليهم أنهم يحلمون ، وأخذوا يفركون أعينهم لعلهم يفيقون ..

كيف دخلت هذه السفن مياههم ؟ ! أبناها الأتراك فى ليلة واحدة ؟ ! أم نقلتها إليهم يد جبارة خفية ؟ ! ولكن السفن اقتربت من المدينة ، وهدمت أسوارها غير المحصنة فى هذه الناحية . وتوارى الأسطول البيزنطى وراء غلطه ، ودان القرن الذهبى لقوات السلطان بفضل عبقريته الحربية ، فضاق الخناق على المدينة المحاصرة .

• • •

لم يعد لدى البيزنطيين — بعد معجزة القرن الذهبى — أى شك فى النهاية التى تنتظرهم . فإذا تلكأت أوربا فى إغاثتهم فلن يسلموا من سوء مصيرهم المحتوم . ولكن اليأس لا يطول حتى يعقبه التعلل بالآمال ، فهم يستبعدون أن تهمل أوربا شأنهم . ألم تعدهم روما بالمساعدة ؟ أهى غافلة عن الخطر الذى يهدد عروس الشرق ؟ أمن

أجل تلك الحزازات الكنسية ينصرف المسيحيون عن نصرة إخوانهم في الدين ؟ أم أجل الاختلاف العرضي على الطقوس الدينية يتركونهم للتعذيب والتقتيل ؟ ألا يكون أسطولهم متريثاً في عرض البحر غير عالم بالخطب المدلهم ؟ وكبر هذا الخاطر الأخير في أذهانهم ، وتحول من مجرد ظن إلى يقين راسخ ، ولم يعودوا يفكرون إلا في كيفية إخطار ذلك الأسطول بمبلغ حاجتهم إليه حتى يسرع إلى نجدتهم . ولكن كيف الوصول إليه وسفن الأعداء تذرع بحر مرمرة جيئة وذهاباً ؟ لا بد من إيفاد رسل إلى عرض البحر لأداء هذه المهمة . فهل يقدم أحد على هذه المجازفة البادية الخطر ؟ لم تعدم بيزنطة أبطالها ، وسرعان ما تقدم إثنا عشر بحاراً تزيوا بزى الأتراك ، ووضعوا على رؤوسهم العمائم والطرابيش ، وانسابوا في قارب صغير وسط الظلام . والنجاح يقدر دائماً لمثل هذه المجازفات التي لا يحسب لها العدو حساباً . فقد فكر السلطان في كل شيء إلا في مثل هذه المغامرة ، وأفلحت المحاولة ، وجازت الحيلة ، ومرق القارب الصغير بالبحارة الأبطال الذين غمط التاريخ حقهم ، وأغفل ذكرهم ، إذ لم يبرز أسماءهم في سجل الخلود . ولكنهم ما كادوا يغتبطون بنجاحهم حتى أصيبوا بخيبة أمل قاسية . فقد توغلوا في عرض البحر ، وتنقلوا من جزيرة فيه إلى جزيرة ، فلم يظهر لسفن أنصارهم أثر . لقد نسيتهم روما إذاً ! وقد خانت بيزنطة على أوروبا المسيحية ! ولم يعن أحد بهول المصير الذي يرتقبها ! والدول قد تشابه الأفراد في الصفات ، فتسمو النخوة والمروءة بعضها وتعدمها

إلى نجدة المغلوب وغوث المخذول . وتصرف الأنانية بعضها عن شؤون غيرها ، فلا تعنى إلا بأمر نفسها .

* * *

ظلت الحرب سجالا ، ونالت المدافع الضخمة من الأسوار الحصينة ، ولكن التوفيق حالف البيزنطيين حقبة من الزمن ، فتمكنوا من رد هجمات الأتراك المتوالية ، ولكن السلطان أدرك أن هذه المناوشات قد أنهكت قوى أعدائه ، وأن أوان الهجوم الكبير الفاصل قد آن ، فجمع وزراءه ، وقرر بعد مشاورتهم أن يبدأ ذلك الهجوم فى الثالث والعشرين من شهر مايو . وأخذ بعد لذلك اليوم عدته ، وعاودته همته التى لا تعرف الكلل ، فصار يتنقل فى جيشه من معسكر إلى معسكر ، يخطب فى ضباطه وجنوده . ويبث فيهم من روحه المتوثب ، ويكيل لهم الوعود ، ويوقظ فيهم الأطماع بذكر ما ينتظرهم وراء تلك الأسوار من نعم ومتع . وفى مساء اليوم المحدد تضاعف نشاطه ، وكثر تنقله بين الخيام ، وأمر بإشعال النيران ، وحث الجند على اللهو والطرب ، ودق الطبل ودار الرقص . وانقلب ميدان القتال إلى مهرجان صاخب لن يلبث أن يختتم بإزهاق الضحية . ووقف أهل بيزنطة وراء أسوارهم يشاهدون مايحدث ، مدركين ما وراء هذا الهرج غير المألوف من حادث جلل . وما حلك الليل حتى صدر أمر السلطان بإطفاء الأنوار والإخلاد إلى السكينة . فعم الظلام وساد الصمت ، وما أهول ما يحدث فى الخفاء تحت ستار الليل الساكن ! فاستولى الرعب على البيزنطيين الذين قدر لهم أن يقضوا تلك الليلة عن آخرهم .

وما هي إلا لحظات حتى تجاوب هدير الجيش الحق تحت أسوار بيزنطة ، وارتعدت فرائص البيزنطيين ، وثقلت عليهم وطأة الخطر الطارق ، وصغرت فى عينهم حوازاتهم الدينية القديمة . على أن الستار ارتفع عن الفصل الأخير من الفاجعة ، وتدافعت أمواج الجيش الزاخر صوب أهدافها ، تتلو الموجة منها الموجة ، وأتى الأتراك ببرهان جديد على شجاعتهم الرائعة ، وعلى دقة نظامهم وشدة مراسهم. فكانت صفوفهم ترتمى على تلك الأسوار وتتسلقها غير آبهة للموت المترصد . واستمر الكر والفر حتى مطلع الفجر . وتمكن الأتراك عندئذ من اقتحام سور المدينة الأول ، ووقع إذ ذاك أمر لم يتوقعه أحد . فقد رأت فصيلة من الجيش المهاجم على ضوء الهلال البازغ ، أحد أبواب السور الثانى مفتوحاً ، وكان هذا الباب المسمى «كيركابورتا» ضيقاً ثانوى الشأن ، يدخل منه الموظفون ويخرجون بعد إغلاق أبواب المدينة الرئيسية ، وغفل عنه الحراس فى تلك الليلة المضطربة فلم يغلقوه . ولم يتصور الأتراك أن يقع أعداؤهم فى مثل هذا السهو الخطير ، وحسبوا فى الأمر مكيدة مدبرة . فتسللوا منه على حذر . فلم يعترض سبيلهم أحد ، ولم يصادفهم مكروه ، ووجدوا أنفسهم وراء الجيش المدافع . وقبل أن ينقضوا عليه ، شعر بهم بعض المقاتلين ، فصاحوا تلك الصيحة المفزعة المنكرة : «لقد سقطت المدينة . . . لقد سقطت المدينة» . فلم يبق واحد من الجيش الجالد لم يلق سلاحه بعد تلك الصيحة ولم يفر ملتمساً وجه النجاة .

سلمت المدينة بعيد شروق الشمس ، ولكن الصباح انقضى وولى الظهر ، وحان العصر قبل أن يدخل محمد الفاتح المدينة دخول الظافر القاهر . لقد كان يتلهف عليها ، ولكن وقار الملك فرض عليه الظهور بمظهر المستخف بعظائم الأمور .

وتبختر به جواده الأصيل فى شوارع إسطنبول . وكانت حاشيته قد أعدت جامع أياصوفيا لاستقباله ، فدخله عارى القدمين ، مطأطىء الرأس ، وأدى فيه صلاة المغرب .

خرستوفر كولومبوس

فى طريق العالم الجديد

قضى خريستوفر كولومبوس فى چنوا ، موطنه ومسقط رأسه ، مذ طفولته وشرخ صباه . وكان يشاهد فى ذلك الثغر التجارى الغنى مختلف السفن الكبيرة تحدوها إليه الرياح الأربع من كافة الأنحاء ، ويبهره ماتحمله من تحف ثمينة من نتاج أصقى القرائح والأذواق فى الأمم المتباينة . وأنصت بأذن واعية وقلب خافق للقصص الشائقة التى يرويها التجار عن رحلاتهم الشعرية الخلابة ، ومغامراتهم الخطيرة الشائقة . وكان لهروح شاعر حالم ، فتاق إلى الآفاق البعيدة ، وتعلق خياله بالبلاد الغريبة المجهولة .

ولم يطق الاحتباس بين جدران معهد « بافيا » الذى تعلم فيه شيئاً من الحساب والفلك والجغرافيا . وقطع منهاج دراسته ، وقصد إلى عمه الرحالة « كولومبوس » ، ورافقه فى سياحاته المتنوعة ، وزار فيما زار الجزائر البريطانية ، وسمع هناك أعجب القصص عن رحلات أهل الشمال القدماء إلى « لابرادور » و « جرينلاند » . وعن امتداد شواطئ تلك البلاد إلى حيث لم يذهب إنسان . ولعله نوى منذ ذلك العهد أن يكشف سر تلك الأصقاع السحيقة المجهولة .

وبعد أن طاف فى أرجاء العالم المعروف فى وقته ، وعانى أهوال السفر فى ذلك الأوان ، من قرصان فى البحر إلى قطاع طرق فى البر . وبعد أن أشبع ميوله ، وأرضى فضوله ، انتهى به المطاف إلى لشبونة

عاصمة البرتغال وأشهر ذلك الثغور في العصر ، وتبع هناك بقصد الراحة والاستجمام لجهاد جديد ، وأخذ يلتهم في ليالى العزلة والانفراد مصنفات ماركو بولو والسر جون موندوفيل عن رحلاتهما الجريئة إلى أفريقيا والشرقين الأدنى والأقصى .

وعاد إلى منزله في إحدى الليالى مضطرب الأنفاس مرتعد الأعصاب ، وتاه إذا جلس إلى مكتبه في مجاهل تفكير بعيد المدى . فقد جالس تلك الليلة بعض الملاحين في ناد من أندية المدينة وسمع منهم مالم يسمع شبيهه في حياته ، سمع ما شغل ذهنه ، وهاج حسه ، وفسح له في آماد الخيال . قيل له إن أمواج الأوقيانوس تقذف إلى شاطئ البرتغال ما بين آن وآن بأخشاب منقوشة نقشاً غير مألوف ، وأعشاب من نوع غير معروف ، وإن حالة هذه الأعشاب والأخشاب تدل على بقائها زمناً في البحر مما يحمل على الظن بأن تيار المحيط جاء بها إلى شاطئ أوروبا من بلاد في الغرب غير معلومة .

وبدأ شعاع فكرة جديدة خطيرة ينبثق في ذهنه ، فأخذ يسأل نفسه في اضطراب وقلق : « أما لامتداد المحيط الأطلسى من آخر ؟ أنحن نعيش في عالم غير محدود ؟ ! » ورفض ذهنه الثاقب النافذ فكرة امتداد هذه الأمواه بلا نهاية . وقام ملتهب الخدين ملتمع العينين إلى خريطة معلقة على الحائط ظهر فيها العالم القديم ، وأخذ ينظر إلى الأقيانوس ويطيل فيه التحديق كأنما يتوقع أن تطلع من غربه الأرض الخفية . وأطال التفكير في حدود العالم وكيف تكون ، أهي سدود أم هي هوة سحيقة ! وعندئذ خطر له ذلك الخاطر الجرىء الخطير ،

هو أن الأرض مستديرة كالشمس والقمر ، وأن قاصد بلاد الهند يستطيع الوصول إليها من طريق الغرب كما يصل إليها من الشرق .

وسرت في جسمه رعدة لهـذا الخاطر العجيب ، وساورته فيه الشكوك ، ولم يشغله من مشاغل الوجود غيره . وانقطع لدرسه وتمحيصه ، فتواردت الأدلة على صحته وتعاقبت ، وتوطد الإيمان بصوابه وتأصل . وبدا له أن فكرة انبساط الأرض هي التي لا تعقل ولا تساغ . وسخّر وقته وجهده في استنباط الخطة العملية لكشف طريق الهند الجديد ، وإماطة اللثام عن ذلك الإبهام المخيّم عليه ؟ وتذكر القصص التي سمعها عن رحلات أهل الشمال الأكدمين إلى شبه جزيرة جرينلاند ، فأقلع إلى انجلترا من غير تريث . وأنى لمن حدثته مثل هذه المطامع أن يتريث . والتقى هناك بأشياعه من الطامعين الذين قبلوا أن يقتفوا معه آثار جدودهم إلى الغرب المجهول .

مر بجزيرة إيسلانده ، ثم أوغل غرباً حتى قطع ثلثمائة ميل فانقطع أمل رفقائه في ظهور الأرض المقصودة ، وأرغموه على القفول بهم إلى بلادهم . فعاد من غير أن يفقد ذرة من آماله العريضة . ولو أنهم صبروا عليه قليلا ، وواصلوا معه السير لطلع لهم حاجب الأرض بعد أميال معدودات .

عاد إلى مسكنه بلشبونة . وتمنى أن تصادف فكرته الخلاّبة هوى في نفس ثريّ من الاثرياء ، فينفحه المال الضروري لتنفيذها . وأعلنها بعد طول الكتمان لأصدقائه ، فشاع ذكرها وغصت غرفه كل يوم بالمثقفين الذين قصدوه لمناقشتها . وجاءه فيمن جاءه الفضولي

المستطلع ، والمزيد الذى يسوق براهين جديدة على صحتها . وسرد بعضهم حكايات مناسبة طريفة ، وروى آخرون حكايات من نسج أوهامهم. وعلم كولومبوس من بعض زواره أن رواد الشرق الأقصى صادفوا جزيرة شاسعة شرق الصين . فظن أن هذه الجزيرة (اليابان) واقعة فى طرف المحيط الأطلسى . وأن من يقصد الهند من الغرب يصادفها فى طريقه أول ما يصادف .

وجرت له فى هذه الأثناء نادرة غير متوقعة . استطاعت فتاة تدعى « دونا فيليبا » أن تشغل بجمالها باله وتأسر لبه ، وقت أن كانت كل خطرة من خواطره تسبح فوق المحيط الأطلسى إلى الهند ، وكل جارحة فيه تصبو إلى البلاد الخفية المسحورة . وقلما شغل الحب الرجل العظيم وهو منهمك فى شق طريقه إلى الظفر . ولكن قلب كولومبوس الفتى الرقيق ، أراد أن يشاركه قلب آخر فى مشاعره الفياضة ، وفى أحلامه الهنية ، وفيما ينتظره من مجد أثيل . كانت فتاته سليلة بيت كريم أخنى عليه الزمن . وكانت وسيمة الطلعة ، عذبة الروح، حلوة الشمائل ؛ فتاق كولومبوس إلى السمو بها ثانية إلى الذروة اللائقة بها . كان حبها يزين له أطماعه ويحفزه إلى تحقيقها . وكان بهرج أطماعه يرهف شعوره ويزيده صبابة وشغفا . ولم يطق البعد عن حبيبته فعقد عليها .

وآمنت بآرائه ، فزاده إيمانها ثقة بنفسه ، وجرأه على طرق باب جون الثانى ملك البرتغال بدل انتظار المعونة من الأفراد . فالملك يستطيع ما لا يستطيع الفرد ، وهو لن يحجم عن إنفاذ البعثة المرجوة

ما دام فضلها لا يعدوه ، وتماحها يعود عليه بعز وفى يرضان من قدره بين ملوك الأرض . فأخذ برأيها ، وطلب الإذن بالمثول لديه . فأجيب إلى طلبه ، وأحسن الملك وفادته ، وسمع حديثه صغياً ، ولم يكتم اهتمامه به . ولكن كولمب لم يحادثه كما يتحدث صاحب الحاجة إلى ولى النعمة ، وإنما كان يزهى بالرسالة التى يحملها ، ويمتن على صاحب العرش بها ، ويعدد له الأرباح والمفاخر التى سوف يصيبها منها . وتقدم فى آخر الحديث بشرطين : الأول أن يصدر أمر ملكى بتوليته أميراً على جميع الأقطار التى يكشفها . والثانى أن يحتفظ لنفسه بعشر مغانم المشروع .

وإذ أعجب الملك بنظرية الرحالة الخامل الذكر ، فإن جرأته عليه لم تعجبه ، فصرفه واعداً أن ينظر فى الأمر . وعاد كولومبوس إلى منزله والأمل واليأس يتعاولانه . واستعادت ذاكرته كل ما جرى أثناء المقابلة الملكية من علامات الرضا ، ومن إيماء الموافقة ، ومن عبارات التشجيع . ولكن الجفوة التى خيمت على المجلس قبل انصرافه لم تخف عليه ، ولم يطمئن لها باله . واستقبلته زوجه مستفسرة ، واستمعت لحديث شكوكه ، فهزئت بأوهامه وأشاعت فى نفسه الرجاء . وتتبع الزوجان أنباء القصر الملكى ، فعلما أن صاحب التاج يستشير علماء مملكته فى قيمة الآراء الجديدة المرفوعة إليه . وكان علماء ذلك العصر على قدر كبير من جمود الذهن ، فحار كولومبوس بين الاغتباط بالخطوة التى خطاها الملك ، والابتئاس لعرض فكرته على قوم يعلم أنهم لن يؤيدوها .

وتوقع كل ما قد يأتي به المستقبل إلا الذى جرى بالفعل .
فالملك لم يطرح فكرة رغم نقد علمائه لها . لأن الطمع حداه إلى تجربة حظه من نجاحها . وبدل أن يستدعى كولومبوس ويعلن قبول عرضه، ويجيبه إلى مطاليه ، أنفذ فى الخفاء بعثة رسم لها الطريق الذى وقف على سره . ولكن قائد البعثة لم يؤمن بصواب مهمته فأذعن لأول بادرة من بوادر عصيان نوتيته . وعاد قبل أن يقاربه منتصف الطريق .

خيانة لم تهدم أمل كولومبوس فحسب ، ولكنها آذت نفسه الشريفة القويمة ، ولوثت الحياة فى نظره ، وقضت على إيمانه بالخير والشرف . إذ كيف يأمل أن يجدهما فى الناس بعد أن فقدهما فى الملوك ؟ وأبى الدهر أن يتركه فى هم واحد ، وأصابه فى أليفته الرفية، فقضت نحبها بعد أن وضعت له صبيا أسماه « ديجو » .

من الذى يستطيع أن يخفف عنه وطأة هذه الهموم ؟ وأين يجد المفر منها ؟ انطوى على أحزانه ، ولكنه تعلق بعد حين بخاطر استراح له . خطر له أن يعود إلى وطنه ، إلى أهله الأقربين فهم الذين يشاطرونه أحزانه دون سائر الخلق ، وهم الذين يحتملون ضجره ويستمعون لشكواه . فحمل طفله ، ويمم شطر بلاده وهو كسير القلب مهدم الأمل فقير ذليل .

ولكن الهم لا يمحق الأمل إلا إلى حين ، وجعلت فكرة شق الأوقيانوس تستهويه من جديد ، وأرغمته على أن يحسن الظن بكبراء قومه . فطرق أبوابهم ، وبسط لهم موضوعه ، وطلب إليهم المساهمة

فى تحقيقه ، ولكنه قوبل بفتور وإعراض . وكيف لا يقابل بهما ، والنبى لا يكرَّم فى بلده . والألفة لا تنبت غير الاستخفاف والإصغار . ولم يهتم أحدهم بتمحيص الموضوع ، ولكنهم أخذ يسائل بعضهم بعضاً : « ومن يكون خريستوفر كولومبوس الذى يحاول أن يصير بطلا . أليس هو ابن فلان ؟ أأنكر أهله ونسى أصله ؟ » .

وهل يستطيع أن يتخلى عن الفكرة التى كان يعيش لها ؟ لقد امتزجت بدمه ، وصارت غرض حياته ومتعتها ، وحملته على النزوح إلى أسبانيا ، فنزح إليها مع ولده ، ونزل فى بالوس يسأل عن الملك فردناند والملكة إيزابلا[١] . ولكن سوء الحظ كان يتعقبه إذ علم أن الملكين فى قرطبة مشتبكان فى حرب مع العرب . ووجد البون شاسعاً بين مقره وبين محط آماله ، إذ يمتد بينهما مائة ميل ، ولم يشفق على نفسه وعلى ولده من مشقة السفر ، لأن الذى يوطن النفس على ركوب البحار الأبدة ، وقطع القفار الموحشة ، والطواف حول كرة الأرض لا يستصعب طى مثل هذه المسافة ، ولكنه تطير من معاكسة القدر . وكان يتحفز عجولا إلى استطلاع رأى الملكين فى مشروعه ، فبدا له كأن بينه وبين تحقيق أمنيته مرور الآباد وامتداد الآماد .

حمل خرجه على كتفه ، وأخذ ولده من يده ، وسار فى طريق قرطبة ، ولكنه ما توغل فى الأرض العراء حتى صادف فى طريقه

---

(١) كانت إيزابلا ملكة متوجة على عرش قشتالة قبل زواجها بالملك فردناند ، واحتفظت بعرشها ، واختصت بحكم مملكتها ، حتى بعد زواجها .

دير «الرابحة» فعرّج عليه ليقيل مع ابنه ، فرآه رئيس الدير ، ولاحظ أنه — رغم هيئته الرثة — ليس من عامة الناس . كان صبيح الوجه عيب الطلعة ، فدعاه إلى مجالسته ، واطلع من محادثته على غايته ، وكان كأكثر رجال الدين فى ذلك العهد ملماً بعلوم عصره ، فاطمأن لآراء محادثه ، واقتنع برجاحتها ، ولم يضن عليه بمعاونته ، فكتب إلى كاهن الملكة إزابيلا يوصيه بأن يقدم إلى أميرته ذلك العالم الرحالة، وتبدلت حال كولومبوس من التخاذل إلى الاستبشار فى لحظات ، ودس خطاب التوصية فى جيبه ، وواصل سيره متفائلا متهللا ، بعد أن كان مهموماً متجهماً .

وصل إلى حيث يرابط الجيش الأسبانى ، وشاهد معسكره الكبير ، وخيام الملكين وحاشيتهما ، فلم تبهره مظاهر القوة المادية ، ولم يأخذه منظر الجيش الجرار ، ولم تخطف أسلحته اللامعة بصره . ولم تخلب أبهة الملك لبّه ، فقد كان فى شغل عن الدنيا المحيطة به . وكيف يهتم بصراع الناس من وطّن النفس على مصارعة الطبيعة ؟ أو يعنى بمظاهر الدنيا الخادعة من عُنى بالحقائق العلية الثابتة ، وجهد فى البحث عن كنه الأرض التى نعيش فوقها ؟

قصد إلى الكاهن «تالافيرا» ليقدم له خطاب التوصية المرسل إليه ، فوجده رجلا ضيق الذهن جاف الطبع . وحادثه عن مشروعه ، فلم يلق منه إقبالا ، بل أنصت الكاهن صامتاً مقطباً ، وقال فى نهاية الحديث : «إنى أعد عرض مثل هذه الآراء الخيالية على الملكة فى مثل هذا الظرف الجدى العصيب خيانة لا أقدم عليها» .

وخرج كولومبوس ساخطاً على الكاهن ، ولكن آماله ظلت وطيدة راسية ؟ فإن خيمة الملكة على مقربة منه ، وهو لن يعدم وسيلة إليها . ولكن الآمال الجلية تبدو لرجل الفكر الذى لم يخبر الحياة قريبة المنال ، فإذا مد يده إلى تحقيقها تقلصت بين أصابعه . وبينما يبذل كولومبوس الجهد للوصول إلى الملكين ، إذا بهما يرحلان على رأس جيشهما إلى غرناطة لمنازلة العرب ، وبقى هو فى قرطبة يترقب نهاية القتال ، ولم يكن يعنيه من تطاحن تلك الجيوش إلا أن ينحسم القتال بينهما على أى وجه ، لتتسع مندوحة من الوقت لأحد الملكين . فينصت إليه ويقبل عرضه .

مرت عليه الشهور تلو الشهور وهو يترقب عودة النازحين ، وطالت به ليالى السهد ، وأضناه القلق ، وضاقت به الحال ، وبرّحت به الحاجة ، واغتم لحظه العاثر . فهو مؤمن برسالته ، واثق بأنه يستطيع أن يجبو الملوك أصقاعاً طافحة بالخيرات ، أصقاعا شاسعة أين منها عالم أوروبا الصغيرة الفقيرة ، هو يعرض هبه العلوية فلا يلقى غير الإهمال والسخرية . وكم عانت العلوم فى مختلف العصور عنت الجهل وتعصبه !

وعلم أن الملكين استقرا فى سلنكة على بعد ثلاثمائة ميل منه ، فأخذ ابنه وقطع الطريق إليها على قدميه ، وحاول هناك سماعاً للحظوة بلقائهما ، وتوسل فى هذا السبيل بكل صاحب نفوذ . ونجح عقب فشل متكرر فى استمالة رئيس الأساقفة إلى رأيه ، وحمله على تمهيد التقائه بالملك ، وأتيحت له المقابلة المرتقبة ، وأفاض وهو متهدج الصوت فى

شرح مذهبه الجديد ، ولم يترك حجة لم يدعمه بها ، وراقب فتور الملك في اضطراب ، وانتظر حكمه في جزع ، ولم يكن الملك فردناندعجولا ، فآثر أن يسترشد برأى علماء عصره في هذا المذهب الجديد قبل أن يبت في أمره ، وقرر عقد مؤتمر لهذا الغرض .

انعقد المؤتمر وجمع أئمة الرأى في ذلك العصر من جهابذة علم الفلك ، ومن فقهاء الدين ، وأساتذة الجامعات المبرّزين ، وتصدّر قاعة الاجتماع مندوب الملك . وارتسمت على جباه الحاضرين سيماء الوقار ، لتملك الداخل عليهم هيبة . ولكن كولومبوس جابههم بجلال سما على جلالهم ، دخل القاعة متئد الخطى ، رافع الرأس سامى النظر ، وأخذ في تبيان نظريته ، وخطر شأن مهمته ، وأنصت له مستمعوه بادىء الأمر في جد ، فاسترسل في خطبته فتياض الشعور متأجج الحماسة ، وبينما هو موغل في تفصيل موضوعه الخطير ، حلا لبعض الحاضرين أن يحيل هذا الجد إلى هزل . فقهقه في وجهه . ولما توجهت إليه الأنظار سأل : « وكيف يعيش قاطنو الجانب المقابل من الكرة الأرضية ؟ أيسيرون ورؤوسهم مدلاة إلى أسفل ؟ » . وأعقبه آخر بسؤال عاقل : « وهل يرون السماء والسحب تحتهم ؟ » . وقال ثالث : « ولعل المطر يصعد إليهم من أسفل » وإذا سرت في جماعة من الناس عدوى المجون تحول الأمر الجد إلى مادة للمهازلة والمفاكهة ، وضاع الحق وسط السخرية والعبث .

انفض الاجتماع بين تغامز القوم وتضاحكهم ، واستقر رأيهم على أن العلامة الغرير مخبول العقل . ولم يشذوا عن سائر الهيئات

العلمية التى وقفت فى مختلف العصور عقبة كئوداً فى طريق كل عالم مجدد يأتى لها برأى جديد. وكان كولومبوس متأهباً فى سبيل غايته للجود براحته وطمأنينته، بل بحياته، كان ملهماً مؤمناً بالوحى الهابط عليه، مقدراً قدر عقيدته، مدركا قيمة المهمة المفروضة عليه، مرحباً بكل ما يكتنفها من عناء وبلاء، فأسقم نفسه أن يناط مصير تلك المهمة التى أرخص من أجل تحقيقها كل غال، برأى قوم كهؤلاء الأدعياء، وأن يجرف هزلهم الجد، ويودى باطلهم بالحق، ويقضى جهلهم على مشروع كفيل بفتح جديد فى عالم المعرفة الإنسانية.

غادر الملكان المدينة قبل أن يصدر قرار مجمع العلماء، وانهمكا مع جيشهما فى حصار مالقة. فعوّل كولومبوس على انتظار أوبتهما ليستطلع رأيهما فى ذلك القرار. ومر بكل ذى حول أو جاه ليقنعه برأيه ويستعين بتأييده، ولم يضن عليه أحد بالترحيب وحسن الاستقبال، لأن انعقاد مؤتمر العلماء لبحث مشروعه أذاع صيته، فلم يعد نكرة من النكرات، بل صار شخصية غريبة طريفة تستثير الفضول، يود كل واحد أن يتصل بها، ويشبع فضوله من غرابتها. ولكن اشتداد القتال بين الأسبان والعرب شغل الأذهان، وصرفها عن الاهتمام بنظرية كولومبوس، وعن أخذها مأخذ الجد.

دام حصار مالقة طول صيف سنة ١٤٨٧ وما حل الخريف حتى سقطت المدينة، وعاد الملكان فرحين من ساحة القتال. ولكنهما لم يستقرا حتى أزمعا الرحيل من جديد لمواصلة النزال. وما كاد كولومبوس يفرح بعودتهما حتى روّع بسفرهما الباكر قبل أن يتاح له

لقاؤهما ، ولم يقو على احتمال الانتظار من جديد فلحق بركابهما ، وتنقل وراءهما من ميدان إلى ميدان وهو يتلهف على السماح له بمقابلة وجيزة يعرض عليهما خلالها ما عن له من براهين جديدة لعلها تصادف منهما القبول . ولكنه فشل فى محاولاته . وانتظر أن تهدأ الحرب قليلا لتسنح له الفرصة المرتقبة ، ولكن الحرب لم تزدد لسوء حظه إلا شدة ، واستفحل خطرها ، وثقلت وطأتها ، وعم بؤسها . فكيف يأمل كولومبوس أن يلتفت الملكان إليه ، وبال الناس جميعاً مشغول بالحرب وما سوف تسفر عنه ؟ وقضى على هذه الحال عامين ، لا يكاد يطمئن إلى الآمال بعد نصر يحرزه الجيش الأسبانى ، حتى تتقلص آماله ثانية إذ تعود الحال الحربية إلى التحرج .

قضى عامين يجرى لاهثاً وراء سراب لامع . لم يكن شىء يهمه فى الدنيا غير دنياه الجديدة الجاثمة وراء المحيط . فما كان يعيش إلا لها ، ولا يفهم أو يسمع أو يرى إلا ما يمت إليها بصلة ، أو يعينه على الوصول إليها . كان يعتقد ألا شىء يعترض طريقه غير تلك الحرب المشئومة ؛ إذ لولاها لاتسع وقت الملكين لفهم موضوعه والإحاطة بمناقبه . وخيل إليه أنها لم تقع فى تلك الآونة إلا بسبب سوء طالعه ، وأنها طالت بشير مقتض ، فضاق صدره بها . وسخط آناً على العرب لعنف مقاومتهم ، وآناً على الأسبان لتنادم وتصميمهم على قهر العرب . وكم تمنى فى ساعات ضيقه فناء الجيشين المتطاحنين عن آخرهما وانصرام الحرب . فما كان مصير أفراد من الناس ، أو مصير دولة من الدول بالشىء المذكور عنده إلى جانب كشف العالم الجديد الذى لم يخلق إلا ليكون

نسمة سابغة على الإنسانية ، تسعى فى مناكبه ، وتنعم بخيراته وذخائره.

ولم يعدم فى هذه الأثناء أنصاراً اعتنقوا عقيدته ، وواصلوا السعى لرفع أمره إلى الملك فردناند مرة أخرى . وأفلحوا بعد جهاد عامين فى حمل الملك على إصدار أمره بعرض مقترحات كولومبوس على مؤتمر جديد يضم علماء غير الذين ضمهم المجلس السابق ، ولم يحجم كولومبوس عن مواجهة العلماء الجدد رغم ما أصابه على أيدى أنداده السابقين ، ودافع لديهم عن نظريته فما اختلف جهلهم عن جهل أشباههم الأولين . وابتدأ اجتماعهم هيناً جليلا يغر من لا معرفة له بحقيقتهم ، وارفض عن مأساة هزلية شبيهة بالتى حدثت فى الاجتماع الأول .

يئس من معاونة أسبانيا ، ولكنه لم ييأس من نجاح مشروعه فى النهاية . وأين منه اليأس وهو إنما يعيش لذلك المشروع ؟ عقد عزمه على السفر إلى ملك فرنسا ، وعلل النفس بأن يصيب لديه حظاً أوفى مما أصاب حتى ذلك الحين . وعاد أدراجه إلى دير الرابضة ساعياً على قدميه كما جاء . وقصد إلى توديع ابنه قبل سفره الطويل ، ولقيه هناك رئيس الدير ، فرأى رجلا غير الذى رآه من قبل . رأى شيخاً أسقمه الهم ، وجلل رأسه الشيب ، فرحب به جذلا ، وتفرس فيه مشفقاً ، وسأله عما تم له فى سنى غربته . وما علم منه بعض ما جرى ، ووقف على نيته الأخيرة حتى تمت أساريره عن الأسف وعدم الرضا ، وعز عليه أن تفوز فرنسا دون أسبانيا بإجتناء فوائد المشروع . فبذل جهده ليثنى صاحبه عن اجتياز جبال البرانس ، واستعان بسيد يقطن جوار

الدير يدعى « مارتن ألونزو بنزون[١] » ، وهو رحالة ذائع الصيت ، وتعاونا على كولومبوس ، وشككاه فى فائدة نزوحه إلى فرنسا ، فإن له فى أسبانيا أصدقاء نصراء لن يجد عوضهم لدى البلاط الفرنسى . أما العقاب التى اعترضته حتى الآن ، فسوف يجد نظائرها فى كل مكان . وعزم القس فى هذه المرة على السفر بنفسه إلى الملكة إزابيلا وإقناعها باتنهاز هذه الفرصة النادرة ، وتمويل الرحلة الجريئة إلى الغرب حتى لا تفوتها فوائدها المنتظرة ، ورضى كولومبوس بانتظار أوبة القس حتى يقف على مآل هذا المسعى الأخير .

كان الشتاء فى ذلك الأوان على أشده ، فلم يبال الشيخ الواهن ببرده . واعتلى بغله ، وتوجه به إلى بلدة « سانتى فى » ، حيث يقيم الملكان ويشرفان على جيشهما الرابض أمام أسوار غرناطة . وماعرض الأمر الذى جاء من أجله على الملكة حتى علم أنها خالية الذهن منه ، فقد كان كولومبوس المسكين يحوم حول حاشيتها ، ويسمع منهم خوادع الوعود ، وهى غافلة عن وجوده ، وسرعان ما أبدت اقتناعها بخطورة الموضوع ، واستعدادها لتأييده . وبهرها حديث القس عن الكنوز التى سوف تفتح مغاليقها لكاشف الطريق الجديد إلى الشرق . وهل تسمع المرأة عن كنوز الذهب والجوهر ولا تتامر فى سبيل الوصول إليها ؟ .

وتعجل الشيخ الرجوع ، وحمل البشرى المبهجة إلى كولومبوس ومشايعيه فى « الرابضة » ، وعم الفرح أهل الدير والقرية القريبة وركب

---

(١) هو الذى صحب كولومبوس فى رحلته الأولى إلى أمريكا ، وقاد السفينة « بينتا » إحدى سفن الرحلة الثلاث .

كولومبوس فى هذه المرة بغلا مؤجراً إلى « سانتى فى » ، وفتحت له أبواب القصر الملكى ، ودخل على الملكة مقصورتها ، وسرد لها تفصيلات مشروعه ، ولم ينل فشله المتوالى من زهوه واعتزازه بنفسه ، فتحدث إليها كعادته تحدث صاحب الفضل المتمنّ على سواه ، واشترط عليها شروطه السابقة ، وهى أن يُولى أميراً على الأصقاع التى يكتشفها ، ونائباً لجلالتها فيهـا ، وأن يكون نصيبه من الغنم عشر ما يصيبه من أموال وخيرات . وإذا ضعفت السيدات لدى ذكر المال ، فإنهن لا يطقن زهو الرجل الخامل وخيلاءه . وقد غضبت الملكة على الرحالة الفقير لاجترائه على عرض شروطه وتمسكه بها ، وأبت الاتفاق معه إلا أن يتخلى عنها ، وفشلت المفاوضة لتشبث كل من الطرفين برأيه .

وخرج كولومبوس من القصر حانقاً ، وغادر البلدة بعد أن أقسم أن يهجر أسبانيا بأسرها ، فلا يرجع إليها أو يعاود السعى إلى ملكيها مهما جدّ له من أمور ، وأبى عليه القدر إلا أن يحنث فى قسمه قبل أن يكف عن ترديده ، وقبل أن تهدأ ثائرته ، فبينما هو يجتاز تخوم البلدة إذا بحراس الملكة يرقلون بخيلهم وراءه ، ويخبرونه بأن الملكة تلحّ فى طلب عودته ، ولم يمهلوه ويتركوا له الخيار ، وعادوا به إليها .

كانت تختلج حنقاً حين غادر كولومبوس مقصورتها ، ودخل عليها زوجها الملك وهى فى فورة غضبها ، وتحدثا فيما وقع لها ، فهدّأ الملك روعها ، وأخذ يقنعها بأن الحرب الدائرة لا تسمح بتبديد المال فى غير مقتضياتها . وجادلته فى هذا الرأى ، واشتد بينهما الجدل حتى انتهى بأن قررت فى عناد أن تمهد المشروع وتنفق عليه من مالها

الخاص . وتخلت تحت تأثير هذا العناد الجديد عن عندها القديم . وجاء إليها كولومبوس ، وأذعنت لمطالبه وهكذا عقد النصر له .

• • •

لم ينته عناء كولومبوس بانتهاء مساعيه إلى هذا التوفيق ، ولكن الصعاب المرهقة ابتدأت منذ بدأ يعد عدته لمجازفته الخطيرة . صدر أمر الملكة بوضع سفينتين من سفن الدولة تحت إمرته ، وبانتقاء ملاحيها من خيرة رجال البحر ، ولكن حالة الحرب مع العرب لم تسمح لإمارة البحر إلا بالنزول له عن سفينتين صغيرتين لا تصلحان إلا لنزهة بحرية حول الشاطىء . ولم يرض بحار واحد بالإقدام على مثل هذه المخامرة الغريبة على متن قاربين غير مأمونين . وكان كولومبوس نفسه يشعر برهبة الأمر الذى هو مقدم عليه ، فكيف بالملاحين الذين لا يؤمنون بمشروعه إيمانه ، ولا يتحمسون له تحمسه ، ولا ينتظرهم المجد والغنى اللذان ينتظرانه ؟ واضطرت الحكومة إلى حشد الملاحين المختارين للرحلة جبراً ، وتطوع مارتن ألزبينزون — نصير كولومبوس وقت محنته — للسفر معه على ظهر سفينته « بينتا » . وما كاد حاجب الشمس يظهر فى فجر اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٤٩٢ حتى أخذت السفن الثلاث فى نشر قلاعها والابتعاد عن الشاطىء وعن مودعيها الذين وقفوا واجمين قلقين ، كأنما جاءوا يشيعون أمواتاً إلى قبورهم .

قدر للمرحلة الأولى من الرحلة أن تنتهى بالنازحين إلى جزر الخالدات « كاناريا » . وظهرت بوادر عصيان الملاحين على أثر مغادرة الشاطىء الأسبانى ، إذ تطرق الخلل إلى سكان إحدى السفن ، ولم

يشك كولومبوس فى أن هذا الخلل إنما وقع بفعل الملاحين العصاة ، ووصلت السفن إلى الجزائر المقصودة، وقضى ركابها بها ثلاثة أسابيع رمّوا خلالها ما طرأ على السفينة المختلة من خلل . وفى فجر ٦ سبتمبر اجترأت تلك السفن على خوض المياه المجهولة التى لم يحمل متنها مركبا قبل ذلك اليوم ، ولم تتأمل زرقتها عين إنسان .

ولم يغمض لكولومبوس جفن طول تلك الرحلة إلا لماما ، وجعل يترقب مايطويه الغيب . وبينما كان ينتظر فى كل لحظة حدوث أسعد المفاجآت . كان رجاله يتوقعون لقاء حتفهم . كان يعمر قلبه أصدق الإيمان ، ويتصيدخياله أجمل الأمانى . بينما كان رجاله يستخفون بأمانيه ويستسلمون للقنوط المطبق .

تعاقبت عليهم الأيام وطال السفر ، ولم يقم دليل على اقترابهم من الأرض التى وعدوا بها وانبسط البحر كعهدهم به حتى حسبوه يمتد إلى غير حدّ ، ولم يتغير المنظر البادى لهم حتى توهموا أنهم واقفون حيث هم ، وألا تبديل لهذه الحال العصيبة . ثم رأوا سفنهم تسابق الرياح فاضطربوا لتباعد الشقة بينهم وبين برّ الأمان ، وأخذ كولومبوس يخادعهم ويدلى لهم بأرقام غير صحيحة عن الأميال التى قطعوها حتى لا يفزعهم البعد بينهم وبين وطنهم ، وطويت المسافة التى قدّر أن يجد الأرض بعدها فلم يقم دليل على صحة تقديره :

يسأل السحب أين مسراك غربا ... أين ترمين بالحيا المسجور[1]
أمعاد به إلى البحر أم تحـ ... ـيين منه الثرى بصوب غزير

(١) الأبيات للشاعر الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد .

لو نجيب ابن نابة سمعت أذ ناه لاعتـــدّه دعاء بشير
فى سماء ما قط حوّم فيهـا غير غادى سحابها من طيور

وجالت السفين المحيط المهيب ، تعلو متون أمواجه وتهبط بين جوانبها ، وتميل مع الرياح وتضطرب فى مهب الأنواء ، ولكنها والت السير من غير تريث ، وكلما توغلت فى ذلك الطريق غير المطروق ازداد هلع البحريين وجن جنون بعضهم ، فخرج عن طوره وصرخ منادياً بالأوبة . ولولا هيبة كولومبوس وانعقاد عزمه ورسوخه على عدم التراجع ، لاندلع لهيب الثورة المكبوتة فى صدورهم . كانوا معلقين بين البحر والسماء يخشون أخطار الأوبة خشيتهم الإيغال فى مجاهل المحيط ، وحملهم الرعب واليأس فى آخر الأمر على الاستكانة والإذعان لإرادة أميرهم الذى كانت ثقته فى سلامة مصيرهم تردّ عليهم بعض طمأنينتهم بين حين وحين .

وطال وقوف كولومبوس على ظهر سفينته لا يحوّل نظره عن الأفق لعل خطه الواضح ينضح عن الأرض المأمولة ، ولكن الزمن ظل ينقضى ، والمسافات تنطوى ، ولا يجدّ جديد ، وكان لا يصرفه عن رقابته غير تكاثف الظلام ، ولا تلبث تناديه إليها الخيوط الأولى من أضواء الفجر ، وأخذ يمتحن كل تغير طارئ من تبدل لون البحر إلى اختلاف أشكال السحب ، ويجتهد فى استنباط العلاقة بين كل ما يستبين له وبين قرب ظهور الأرض ، ولم يعن رجاله بشىء من هذا عنايته ، فسئموا وضجروا ، وتجهمت منهم الوجوه وسادهم الوجوم ، وأخذ بعض أولئك الطغاة يبكى من فرط الجزع .

وتضرع أتقياؤهم للخالق ، ومرت بهم الساعات كأنها أجيال ، وتمنى ضعفاؤهم لقاء حتفهم ليستريحوا من هول ما يعانون ، واجترءوا على رمى زعيمهم بنظرات الغيظ المكظوم .

ووعد كولومبوس بمكافأة سخية لمن يرى الأرض قبل غيره ، ولكن حديث الأرض كان فى رأى القوم أسطورة غير جدّية ، فلم يعن واحد منهم بهذا الوعد . ودخلت السفن بهم المنطقة الاستوائية ، وهبّ عليهم نسيم دافئ يستطاب بعد ليالى المحيط الشاتية وسجا الماء والتمت صفحته الفضية ، ولكنهم ظلوا غافلين عن تبرّج الطبيعة ، معرضين عن متع المناظر الجميلة ، منطوين على رعبهم ويأسهم . وبينما هم فى شدة الضيق لاحت لهم بارقة أمل إذ شاهدوا بعض أعشاب برية خضر طافية على وجه الماء ، وازدادت بارقة الأمل ومضاً إذ حوّمت فوق رؤوسهم أسراب من طيور الأرض . وبينما هم مترددون بين كبح الآمال المستجدّة وبين الإمعان وراءها ، حل الفرج ، فقد صاح نوتىّ من أعلى شراع السفينة ، بيتنا ، الأرض ! الأرض فقفزت القلوب فى الصدور ، واضطربت الأنفاس فى الشّها ، واندفع رجال السفن الثلاث إلى مقدّماتها ، وأطالوا التفرّس فى الأفق فبدت لهم ربوة الأرض كأنها سحاب كثيف ، وخرّ جميعهم لله ركّعا ، وكانت الشمس على وشك الغروب ، وأحزنهم أن يعم المساء فيحول دون رؤية اليابس ، وأطار الفرح عن عيونهم النوم . وما تكشّف وجه الدنيا لدى ظهور بشائر الفجر حتى حلقت عيونهم لتتزود من المنظر المشتهى ، ولكنهم لشدة همهم وألمهم لم يروا غير الأمواه الممتدة التى تعودوا رؤيتها كل

يوم . لم يروا غير زرقة الماء تمتزج بزرقة السماء . شاهد القوم فى أمسهم سراباً من نوع جديد . فإذا كان السراب يبدو فى القفر ماء ، فقد كان سرابهم أمس أرضاً تخايلت لهم فى قفار الماء .

وهوت بهم المفاجأة الوجيعة إلى يأس مستحد ، ولكن بلاءهم لم يطل هذه المرة، فقد توالت الشواهد على أن الأرض قائمة إلى جوارهم فمن تحليق أسراب جديدة من القطا ، إلى طفو أعشاب برية زاهية وصفائح خشبية منقوشة . وعادوا إلى رقبة الأفق الغربى والتملل بأعذب الآمال ، وطمع كل فرد فى المكافأة الموعود بها فأراد أن يفوز بكسبها وأثر التحديق فى حدقاتهم وطول الانتظار وتعبه فى أعصابهم ، ورقص الشاطىء المرتقب فى خيالهم ، فصاح أحدهم « الأرض ! الأرض ! » ، وعادوا يحدقون فى الأفق فلم يظهر منها معلم . وغشيتهم حمى الوهم ، فتعالى صياح بعضهم تلو بعض « الأرض ! الأرض ! » ، ولم يأذن شىء بالظهور ، فاضطر كولومبوس إلى أن ينــذرهم بأن من يزعم رؤية الأرض ولا يصدق زعمه يحرم المكافأة .

مضى عليهم ستون يوماً منذ تزودوا بآخر نظرة من شاطىء وطنهم وقطعوا مسافة ألفى ميل والبحر أمامهم مقفر كالصحراء لا يجد فيه جديد غير تلك الأدلة على قرب الأرض منهم ، تلك الأدلة التى تعــددت وتنوعت ولم تسفر عن النتيجة المرجوة ، ففقدت جدتها وتأثيرها . وإذ نامت الطاقة بحملها ، أخذ اليوم يتسرب فى إثر اليوم ولا يشف عن حدث طريف . وجاهر بعض النوتية بالعصيان، فأخذهم كولومبوس بالشدة ، وكال لهم العقاب .

وطرأ على كولومبوس فى عصر اليوم الحادى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٤٩٢ تغير ملحوظ ، فازدادت عيناه التماعاً ، وجبينه تعقيداً ، وسيماه وقاراً . وكأنما توقع الحادث الجلل فسرت فى جلده رعدة ، وتندى جسمه بعرق بارد ، وأمر رجاله بمضاعفة يقظتهم لأن الأرض توشك أن تظهر لهم . ولم يغادر مكانه من ظهر السفينة بعد اشتداد الظلمة ، وبقى شاخصاً كأنما قيد الأفق الغربى بصره . وفى الوقت الذى بلغ قنوط القوم غايته ، وسأمهم نهايته ، تحقق لهم أروع أمل تعلق به إنسان . أبصر كولومبوس فى الهزيع الأول من تلك الليلة نوراً يخفق من بعد كأنه ضوء مصباح ، فتراخت أعصابه ، وثقل جسمه ، واستند إلى حاجز السفينة من شدة وهنه واضطرابه ، ولم يصح ولم يهلل ، وإنما نادى نوتياً قريباً منه فى صوت خافت ، وأشار له إلى مصدر النور ، وسأله عما يرى ، كأنما أراد التثبت من صدق رؤيته ، فصاح الرجل طرباً « هو ضوء مصباح ! » ، وتكأكأ الجمع على صياحه ، ووضح لهم النور المتلألىء ، ولم يشك أحد فى أن معجزة وجود دنيا جديدة قد تحققت .

وبعد أربع ساعات من ظهور ذلك النور الخلاب ، لمح أحدا رقباء جسم الأرض وقد بدا أشد ظلمة من ظلام الليل . وطلع النهار وتجلت فى ضوئه الدنيا الجديدة ، فإذا ألوان حصبائها وأشجارها وأعشابها أزهى ما نعمت به عين . ألوان خطفت أبصار القوم بعد أن بعوا زرقة البحر السحيق أثناء سفرهم الطويل ، فبهتوا حتى ظنوا أنهم مقبلون على عالم مسحور .

الثائر فاسكو نونيز دى بالبيو

يكتشف المحيط الهادى

ما عاد خريستوف كولومبوس إلى وطنه من رحلته الفـذة التى انتهت بكشف أمريكا حتى تسقط الناس ما حمل إليهم من أنباء . وقد حدثهم عن عجائب تلك القارة المجهولة ، وعرض عليهم الاذرة وأوراق الدخان وجوز الهند وغيره من النبات والفاكهة الجديدة التى جاء بها من وراء المحيط ، فسلب لبهم سحر الغريب المجهول ، ولكن أنباء كولومبوس الجغرافية ، ونظرياته العلمية ، وغرابة ذلك العالم الخفى الذى تجلى لجاة الوجود ، لم تحدث بعض الأثر الذى أحدثته إشاعة العثور على التبر الخالص فى سهول تلك القارة الشاسعة .

لم تبق سفينة فى أسبانيا لم تشد بعد تلك الإشاعة قلاعها إلى أمريكا . واكتظت الشواطىء بجموع المهاجرين المصابين بحمى الجشع ، وجاء بعضهم بأدوات الحفر وبالصناديق الفارغة والخدم والبغال ليغترف التبر بمجرد الوصول إليه ويختزنه دون أن تعوزه وسيلة . ولم تنقض على تلك الحال فترة وجيزة حتى تنفست أسبانيا الصعداء لخلاصها من أغمار قومها غير المرغوب فيهم ، من كل مدين هارب من دائنيه ، أو مجرم مفلت من القصاص ، أو مغامر مستهتر بالنظم والقوانين . ولم يتوقع أحد أن هذا الركب المنبوذ يضم أفراداً أعدّ لهم العالم الجديد حياة جديدة حافلة بجلائل الأعمال ، وأن ينقلب بعض أولئك الأغمار أعلاما يشيد التاريخ بذكرهم .

وقد عاد الذهب إلى الأرض المسحورة ، ولكنهم وجدوا تربها تربا ، ولم يجدوه تبراً . ولو عقلوا لاستعاضوا عن كنوز الذهب المرجوة بسائر خيرات تلك الأرض البكر الفتية . ولكنهم جاءوا وراء التبر النقى ، فكيف يرضون به بديلا ! إنهم يركبون فى سبيله الأخطار ويجابهون الشدائد ، ويستسهلون الصعاب ، ولكنهم يرفضون إيراداً يجيء من طريق الفلاحة أو من طريق أى عمل هادىء سهل ، لأنهم يحسبون المهن من مطالب الخانعين ذوى النفوس الذليلة والهمم المتخاذلة . أما الكماة الشجعان فلا صناعة لهم غير ضرب الحام ، ولا مهنة لهم إلا المغامرة

* * *

كان حاكم جزيرة « هايتى »[1] يرقب تدفق أولئك المهاجرين إلى مستعمرته بعين القلق ، إذ لم يجهل خطرهم على أمنها وسلامها ، فعمل جهد طاقته على ترويضهم ، وتحبيب العمل إليهم ، وتهوينه عليهم . فأقطعهم الأراضى الشاسعة ، ووهب لهم العبيد والدواب ، وأقرضهم المال للقيام بأود الزراعة . ولم يتطلب منهم العمل الجديد إلا مجرد إشرافهم عليه ، ولكنهم انصرفوا عنه إلى اللهو والعبث ، وباعوا العبيد والدواب ، وبددوا المال على موائد الميسر . ثم استدانوا وتراكمت ديونهم حتى ساءت حالهم وأظلم مصيرهم .

جاء الجزيرة فى هذه الأثناء نبأ بأن الهنود الحمر أغاروا على مستعمرة « قلعة الذهب » القائمة على ساحل فنزويلا قرب برزخ بناما ، وأن

---

(١) الجزيرة التى كشفها كولومبوس فى أمريكا الوسطى ، وأسماها « أسبانيولا » .

المستعمرين الأسبانيين هناك فى مأزق حرج . فأقلق النبأ بال غنى من أغنياء الجزيرة يدعى « مارتن أنسيسو » كان قد سخر جل ماله فى أعمال التنقيب عن التبر فى تلك المستعمرة ، فأخذ يدعو مواطنيه إلى التطوع لنجدتها . ووجد المدينون فى إجابة دعوته فرصة سانحة للخلاص من ديونهم ، فقابلوها باغتباط وترحاب . ولكن الدائنين أبوا من ناحيتهم أن يفلت حقهم من أيديهم وهم لا ينبسون ، فاستنجدوا بالحاكم الذى أمر بمنع كل مدين من مغادرة البلد وبإبعاد السفينة التى أعدها « أنسيسو » لحملته من الشاطىء . وضُرب نطاق من الجند حولها لا يجتازه إلا من يحمل إذناً بالرحيل .

وامتلأت السفينة بالمتطوعين ، وأقلعت متهادية تشيّعها نظرات أولئك المدينين المتخلفين ممن يؤثرون الموت على العمل . وما خرجت إلى عرض البحر حتى لفت نظر المسافرين كلب ضخم يحوم حول صندوق كبير وينبح نباحا عاليا ، ولم يلبث غطاء الصندوق أن انفتح ووثب إلى خارجه رجل ما نصب قامته حتى بدا فارساً عملاقاً مدججاً بالسلاح .

بهذه الحيلة المسرحية استطاع « فاسكو نونيز دى بالبيو » أن يهرب من « هاييتى » ، ويفلت من قبضة دائنيه . ولكن « أنسيسو » رئيس الحملة ، والسيد المطاع على ظهر السفينة ، والشريف المتمسك بأصول الحق والعدل ، لم يرض عن هروب ذلك المحتال على هذا النحو . وأقسم أن ينزله أول شاطىء يظهر له ، سواء أكان شاطئاً قفراً بلقعاً أم ماهولا بالوحوش الضارية .

ولكن وقعت إذ ذاك مصادفة من المصادفات النادرة إذ ظهرت سفينة مقبلة من بعيد ، على ندرة السفن التي تمخر هذا المحيط المترامي الأطراف ، وعجيب أن تتقابل في رحبه سفينتان ! ولم تلبث المصادفة أن ازدادت غرابة ، فقد ظهر عند التقاء السفينتين أن القادمين هم بقية الأحياء من قطان « قلعة الذهب » وما وقف « أنسيسو » على أخبارهم حتى تهدمت بقية آماله في إنقاذ ماله . فالمستعمرة محيت من الوجود ، وقد هرب حاكماها أوجيدا ، فولت في أثر مرعيته ، وأقلعت في سفينتين غرقت إحداهما بمن فيها ، وهاهي ذي الأخرى لا تحمل غير أربعة وثلاثين مهاجراً يقودهم رجل قدر له أن يصل فيما بعد إلى ذروة المجد هو « فرنسيسكو بيزارو » .

عبثاً حاول « أنسيسو » المنكود الطالع المتشبث بالمال أن يقنع أتباعه بمواصلة السفر إلى « سان سبستيان » وأن يزين للفارين العودة إلى بلدهم . فقد رفض أولئك وهؤلاء أن يعرضوا صدورهم لسهام الهنود الحمر المسمومة ، ورؤوسهم لسلخ جلدها وهم على قيد الحياة وكان الرأي الغالب أن يعود الجميع إلى جزيرة « هاييتي » . ولكن كيف يعود « فاسكو دي بالبوا » إلى الجزيرة ؟ كيف يواجه دائنيه أو يتعرض لحنق الحاكم العاتي ؟ انبرى عندئذ للقوم وعرض عليهم اقتراحاً جديداً . زعم أنه طاف بساحل أمريكا الوسطى مع الرحالة « باستيداس » فألم بأحوال شتى البلاد الواقعة عليه ، وعرف فيما عرف ناحية بالقرب من برزخ بناما تدعى « أوريان » ، تقطنها قبيلة هندية وديعة مسالمة ، ويكثر فيها الذهب ، فماذا على القوم لو قصدوا إليها ،

وجربوا حظهم هناك ؟ ولم يلبث أن أمال القوم إلى رأيه ودارت دفة السفينتين إلى برزخ بناما .

* * *

أسس أولئك المهاجرون مستعمرة أطلقوا عليها ذلك الاسم الدال على التقوى والورع « سانتا ماريا دل داريان » وحاول أنسيسو أن يوطد فيها الأمن والنظام وجلس إلى مكتبه يصدر الأمر تلو الأمر ، كأنما هو حاكم مقاطعة متحضرة فى أسبانيا . وكان مما حظره شراء الذهب من أهالى البلد الوطنيين بزعم أن شراءه من حق ملك أسبانيا وحده . أمر هيهات أن يطيعه مثل أولئك الصعاليك المغامرين . وقد عانى من عصيان « بالبيو » ما أورثه أصدق الندم على إبقائه عليه وقتما كان داخل الصندوق فى عرض البحر . وانحاز القوم إلى رجل السيف دون رجل القلم ، ولم يلبث ذلك الهارب المختفى أن صار حاكم المستعمرة الفعلى .

ووصلت أنباء هذه الإيالة الجديدة إلى مسامع ملك الأسبان ، فولى عليها حاكما يدعى « نيكوسا » ليدخل شيئاً من النظام على الفوضى الفاشية فيها . ولكن الثائر بالبيو لم يأذن له حتى بالنزول إلى البر ، وأعاده أدراجه إلى أسبانيا . ولازم الحظ العاثر ذلك الحاكم الفاشل فغرقت به سفينته وهو فى طريق أوبته إلى وطنه . وسرعان ما أدرك بالبيو خطر اندفاعه ، وما عسى أن يعانيه من مبعوث مليكه من خشى مغبة تصرفه ، فهو مسئول من غير شك عن غرقه . ورغم بعد الشقة بينه وبين أسبانيا فكان لا يجهل أن العقاب لاحق به عاجلا أو آجلا .

ولكن هذا البعد فسح له فى المجال ليدبر أمره .

وبلغ من حاجة عرش أسبانيا إلى المال فى ذلك العهد أن أباح فى سبيل الحصول عليه مالا يباح ، واغتفر من أجله كبريات الذنوب ، فقفط باليبو إلى جمع النهب من الوطنيين ، وقسا عليهم فى جمعه ، وشن عليهم الغارات بمعاونة بزاريو (قائد السفينة التى كانت تقل فلول قطان سان سبستيان) غير عابىء بحسن صفاتهم . وجعل يختطف كل ما وصلت إليه يده من ذلك المعدن ، ويأسر كبار الزعماء ، ويغالى فى تقدير فديتهم حتى وقع فى أسره أمير من أمرائهم يدعى (كاريتا) عجز قومه عن أداء فديته ، فهم بإعدامه ، ولكنه عفا عنه قبيل تنفيذ حكمه حتى يكسب عطف الأهلين . وقد أصاب فى تقديره لحفظ الأمير الجميل وزوجه من ابنته . ومن الغريب أن ظل هذا الأوروبى المستهتر مخلصاً للفتاة الهندية ، وبقى لها خدينا وفيا حتى أيامه الأخيرة .

ومكنته هذه الظروف الموفقة من مد سلطانه إلى القبائل المجاورة له ، وعظم شأنه بينها حتى وصـــل صيته إلى أمير من أمرائها يدعى «كاسيك كوماجر» . وبعث إليه هذا الأمير يدعوه وأصحابه إلى لقائه ، وأحسن وفادتهم ، وبالغ فى إجلالهم وإكبارهم ، وقدم لهم فيما قدم من هدايا ، صحفة بها كومة من التبر الخالص . وما كان أشد دهشته إذ رأى السادة البيض الأجلاء ينسون وقارهم ، ويطيش صوابهم ، ويفيض حياؤهم ، فينقضون على الصحفة ينتهبون ما حوته .

وبعد أن اقتسموا الغنيمة وهدأ روعهم ، قال لهم الأمير : «عجيب ما رأيته من اهتمامكم بهذا المعدن الأصفر ! فما دمتم على هذه الرغبة فى

التزود منه فوراً.كم بلاد يصنع أمراؤها منه أوانيهم ، هناك تحصلون على كفايتكم منه . ولا يحول بينكم وبين تلك البلاد غير هذه القيافى الترية . فتى قطعتموها — وهى لا تستغرق إلا مشى بضعة أيام — ترى أعينكم بحر خضم تقع بلاد الذهب على شاطئه الجنوبى ».

وأنصت بالبيو إلى بيان الأمير مرهف السمع خفاق الصدر ،فقد وضح له طريق «الدرادو» ، وسهل عليه تحقيق الأمانى التى طافت بخلده وخلد غيره من رواد القارة الجديدة . أمان لو حققها لضمن إلى جانب تخليد ذكره فى صفحة التاريخ إنقاذ عنقه من حبل المشنقة .

• • •

لجأ إلى صديقين من أوفى خلصائه وطلب إليهما السفر إلى أسبانيا ، وعرض قضيته هناك ، والدفاع عنها لدى الحاشية الملكية ، والإشادة بما أداه من أعمال جليلة فى خدمة التاج ، وبسط المشروع الخطير الذى أزمع إنفاذه ، ذلك المشروع الذى أعجز كولومبوس من قبل . وإذا أمدته الدولة بألف فارس مدجج استطاع أن يميط الحجاب الكثيف عن بلاد الذهب ، وأن يحقق لأسبانيا أمنيتها الكبرى .

استراح إلى إيعاز صديقيه ، وعاش فترة من الزمان فى اطمئنان ، يحلم بالمجد والأمان . ولكن أحد رسوليه عاد إليه بأنباء سيئة . أخبره بأن « أنسيسو » الذى هرب من المستعمرة ، وصل إلى أسبانيا ونسب إليه مختلف التهم هناك ، فمن عبث بالقانون وثورة على النظم ، إلى هضم حقوق الدولة واستلاب أموالها . وقد رفع الأمر إلى القضاء ودعمه بالأدلة والأسانيد . وإن الحكم فيه يوشك أن يصدر . واضطرب

باليو بعد فترة الهدوء، وهاله إحداق الخطر به، ولم يبق له إلا الخيار بين أمرين: فإما أن يقتحم الفيافى والأدغال غير معتمد إلا على أشياعه حتى يحقق أمنية أسبانيا وينال صفحها. أو ينتظر الأصفاد والأغلال منعناً . . . إما أن يجازف بحياته فى سبيل المجد والخلاص، أو يقاد مستسلماً إلى ساحة الإعدام.

أخذ يبث الدعاية بين أنداده المغامرين، ويوقظ فيهم شتى الرغبات. فها هو ذا ساحل الذهب أمامهم يتوهج تحت أشعة الشمس، وليس أمره ببعيد المنال. ليس بينهم وبينه غير سير ليال وأيام معدودات، تتحقق بعدها أعجب الأوهام. سوف يصيب تابعوه الغنى والجاه، ويقدّمون لوطنهم ومليكهم أثمن هدية فى الوجود، ويتسامون من صفوف العامة إلى مراتب الأبطال.

ولم يطل ترويجه للرحلة حتى كاد ينسى قصده الأول منها. فقد وقع فى حبائل دعايته، وهام بالمجد الذى أراد تزيينه لغيره، وسرت حرارة إخلاصه إلى قلوب مستمعيه، وأصابهم بعدوى هواه، وعرف كيف يزيدهم فورة وحماسة، إذ أخذ يحدثهم عما يكتنف رحيلهم من أخطار مجهولة وأهوال غير متوقعة. فما كان شىء أحب إلى نفوسهم من ركوب الأخطار والأهوال، فهتفوا للشروع وأيدوه.

أخذ للسفر إلى المجهول أهبته، ولم يكن — وهو الرجل الخشن — ولا صحبه وهم الخشن المتقشفون، فى حاجة إلى مؤن وفيرة، أو إلى أدوات لهو وراحة. وتم الاستعداد فى فترة وجيزة، وجاءه نسيبه المنشئ بعدد من الأدلاء والخدم. وفى صبيحة أول سبتمبر ١٥١٣

اجتمع حوله مائة وتسعون مجاهداً وطنوا النفس على الموت أو الوصول إلى هدفهم . وتحرك هذا الركب صوب الغرب ، وابتدأ سيره التاريخى المجيد فى موكب منفرد الجلال . وهكذا حلق فاسكو نونيزدى بالبوه، اللص والبطل ، قاطع الطريق والرحالة الخطير ، فى مراقى الخلود ، لينجو بجلده من القصاص .

• • •

قد تبهر الإنسان أمانيه فيستخف بالصعاب القائمة دونها ، ولكن ابتلاء الصعاب يختلف عن مجرد تصورها . وقد استهان أشياع بالبيو بوعثاء السفر وأخطاره ، بل هزأوا بالموت وقتما كانوا وفى نشوة أحلامهم ، ولكنهم عانوا فى رحلتهم من الآلام والأسقام مالم يتوقعوه ، وما لا يدركه إلا مكابدوه . ساروا فى ذلك الإقليم الاستوائى فوق رمال تتقد حرارة ، وأخذ النقع الملتهب يلفح جلودهم . وما توغلوا فى جوف ذلك الجحيم المستعر حتى تصاعدت من شقوق الارض تلك الأبخرة الخانقة التى أجهزت على آلاف من العمال الذين قاموا فى نفس المكان بعد ذلك العهد بثلاثة قرون بحفر قناة بناما . ثم اعترضت طريقهم غابات كثيفة ذات أشجار باسقة ، تهدلت أغصانها ، وتوشجت ، فأخذوا يحطمون الأفرع النائتة بالفؤوس ليشقوا بينها طريقهم ، وساروا الواحد تلو الآخر فى صف طويل ، وفى قبضة كل منهم سلاحه . يضغط عليه كلما شعر بحركة غير عادية ، ويدور بعينيه فى نواحى الطريق حتى لا يفاجئه الهنود ويأخذوه على غرة . وكم سدت الانهار عليهم الطرق فاجتازوها سباحة ، ثم تبدلت

الأنهار بسيول جارفة اضطروا إلى إعداد مراكب من الأغصان لعبورها . وطن طنين الهوام التى لم تهدأ عنهم ولم تشبع من مص دمائهم، حتى تورمت من لسعها وجوههم . ومزقت أشواك الشجر ثيابهم ، وأدمت أجسامهم . وامتزج دمهم المراق بعرقهم المتصبب ، ووتر ارتقاب الخطر أعصابهم، وضعضع الجوع والعطش قوام، ونال من جلدهم وشجاعتهم . ولكنهم والوا المسير رغم وهنهم وإعيائهم . ثم صك أسماعهم دوى مفزع أخذ يتوالى ، فإذا هو الرعد يتخلله البرق، وإذا صوب مدرار يغمر أديم الأرض كأنما هو الطوفان . وأعقب الحر المميت الرى المقيت وما تطرق العجز والضعف إلى بعض الأجسام حتى دب على أثره المرض . وما مر أسبوع على هذه الحال حتى عجز أكثر من نصف القوم عن مواصلة السير . ولم يعبأ باليو بمن سقط منهم فى الطريق ومن تخلف ، فتخلى عنهم ، وأمر القادرين على المسير بالتقدم زاعماً أنه فى حاجة إلى صفوة الأشداء دون غيرهم لتحقيق مشروعه الخطير ، فهم وحدهم الجديرون بالعز المنتظر .

ووصلوا إلى نهاية الغابات ، وانبسطت أمامهم السهوب الشاسعة ، وانكشفت لهم السماء فأصلتهم الشمس الملتهبة نارها ، وعادوا يلهثون من الحر ، وتقلصت شفاههم من العطش ، وقطر العرق من أذقانهم ، ولم يبق من بعثة باليو غير سبعة وستين رجلا خائرى العزمة، ما كادوا يبلغون نهاية مطافهم حتى ظهر لهم الهنود الحمر من وراء الهضاب القائمة حولهم وانقضوا عليهم. ولكن الأسبان سبق لهم أن مرنوا على مقاتلة الهنود ، فما أشعلوا لهم البارود كاماتهم ، وما أطلقوا قذائفهم النارية

حتى ولى هؤلاء الأدبار . ولم يكتف بالبيو بهذا النصر السهل ، وإنما أخذ فى تقتيل أسرى مقاتليه ليوقع الرعب فى قلوب تلك الشعوب المناوئة ، ولم يبق على بقيتهم الباقية إلا بعد أن علم منها أن المحيط المنشود منبسط وراء الجبل القائم أمامهم .

تجددت آمال القوم ، وانتعشت نفوسهم ، وخفّت أبدانهم ، واقتحموا الجبل العالى غير مبالين بمشقة الصعود فيه ، وطال عليهم الطريق إذ قربت الغاية ، واشتدت اللهفة على بلوغها . وقبل أن يصلو إلى القمة بيضع خطوات أمرهم زعيمهم بالوقوف حتى ينفرد دونهم برؤية المحيط قبل غيره ، وصعد إلى القمة معلق الأنفاس مضطرب الحواس ، مأخوذاً بجلال الساعة التاريخية . وظهرت طلعته فوق الجبل الأشم كذرّة لاتكاد تراها العين ، على أن هذه الذرة كانت تعج بآمال تضيق بها الدنيا على رحبها . ورأى المحيط الهادى ساجيا أمامه ، تستريح فى فسحته النفس ، وينطلق فى سرمديته الطرف ، وبدا فى سجوه كمرآة هائلة تعكس لألاء الشمس وألوان السحب . وملأ صدره الزهو إذ خطر له أنه أول أوروبى ، بل أول متحضر ارتسم هذا العباب الزاخر فى حدقة عينه . وأخذ يشبع ناظريه ونفسه من المنظر الباهر الخلاب . ثم أهاب بصحبه فتبعوه ليتملّوا هم أيضاً برؤية ذلك المحيط الذى كان يعد إلى أمس القريب أسطورة من نسج الخيال .

ووقف بالبيو فى صحبه خطيباً يذكر العمل الجليل الذى تم بفضل إيمانهم وولائهم وصدق عزيمتهم ، وأشار عليهم بالتوجه إلى المولى عز وجل بالشكر على نعمته الجلى ، وما انتهى من خطبته حتى اتسعت

حدقات النظارة من الوطنيين دهشة وعجباً ، إذ سمعوا صوت أولئك السادة الأجش يتنغم بنشيد ديني ، ويتعالى طبقة بعد طبقة حتى يبلغ بالمرتلين كل مبلغ من الحمية والطرب ، وجيء بعد الترتيل بقلم ودواة وورقة حملها كاتب البعثة طوال الرحلة لتسجيل الحادث الجلل ، وأخذ في تسطير الوثيقة التي ظلت على مر العصور شاهداً بما جرى في تلك الآناء الفريدة. ثم اختتمها بهذه العبارة: «وعلى السادة الفرسان الحاضرين في هذه الآونة التي انكشف فيها المحيط الشرقي أن يشهدوا بأن «السيد الفارس فاسكو نونيزدى بالبيو ، مأمور صاحب العرش ، كان أول من رأى تلك المياه المجهولة ثم أراها بعد ذلك لبقية الشهود» .

وكان عليهم أن يقطعوا شوطاً آخر للوصول إلى الشاطىء ، فانقسموا إلى ثلاث فرق اختار كل منها طريقاً لمعرفة أي الطرق أسهل وأقصر ، وانحدروا من قمة الجبل إلى سفحه ، ووصل الفريق الذي يقـــوده «ألونزو مارتان» إلى البحر قبل غيره ، وقطع الشوط في يومين كاملين . ومما يدل على تعطش أولئك الأفاكين جوابي الآفاق إلى العظمة والمجد إصرار «ألونزو» على تسجيل كل ما حدث له في الوثيقة التاريخية ، واختتمها بالنص على أنه «أول من غمس رجليه ويديه في المياه المجهولة ، وأول من ذاقها ووجدها ملحة ، فشكر الله على آلائه» ، ولم يهدأ باله حتى ضمن لنفسه هذه الذرة من خلود الذكر .

ولم يشأ أن تتم مغامرته الموفقة من غير أن يقوم بتمثيل فصل مسرحي أخير ، فجمع صحبه ووقف منهم على الشاطىء في الموضع الذي تنهزم عنده الأمواج وترتد ، وزعم أن الأمواج تسعى إلى مواطىء

أقدامه لتلثمها وتتمسح بها . ولما وثق من أن البحر يذعن له ويدعوه إليه ، تقدم فى الماء حاملا اللواء الأسبانى فى يمينه ، ومهنده فى يساره ، حتى إذا وصل الماء إلى نطاقه ، وقف وخفض العلم فى كل جهة من الجهات الاربع ، وأعلن أن كافة هذه الاراضى والأمواه ، هذه الشواطىء والجزائر صارت ملك العرش الأسبانى ، وأنه يضع يده عليها باسم صاحب ذلك العرش ، ويقسم هو ومن معه على الدفاع عن حقه فيها ما بقى فيهم دماء .

وتمت مهمة كشف المحيط ، وبقيت مهمة أخرى لا تقل عنها فى نظره شأنا ، مهمة الوصول إلى بلاد الذهب .

***

طاف بتخوم الموضع الذى رابط فيه ، وائتلف بزعماء قبائلها ، واستعار قواربها واستقلها إلى الجزائر القريبة من الساحل . وهيأ له توفيقه مفاجأة جديدة مبهجة إذ وجد عند بعض صائدى السمك فى تلك الجزائر ذخراً من اللآلىء النفيسة ، فاحتفن منها هو وصحبه ملء حفناتهم وحشو جيوبهم وحقائبهم ، واندست بينها اللؤلؤة الفريدة «بليجرينا» التى زانت تاج ملك أسبانيا حقبة من الزمن ثم التاج البريطانى بعدها . على أن هذه الثروة البالغة لم تتجاوز قيمتُها فى تلك الجزائر النائية ، قيمة قوقعها وصدفها . وصدق الوعد الذى قطعه بالبو على نفسه لرجاله بأن يعودوا إلى وطنهم مغمورين بالمجد والثراء .

ولم يتعب أثناء طوافه من ترديد سؤاله عن إقليم الذهب حتى وجد جوابه عند زعيم من زعماء القبائل التى مر بها ، فقد أشار الهندى إلى

الساحل الجنوبى ، وحدثه عن بلاد «إنكاس» . ثم ذكر اسم الإمارة المنشودة ، فأرهف باليبو أذنيه ليلاحما من ذلك الاسم المحبوب ، وسمع نغمة عذبة تشبه لفظ «بيرو» أو «بيرو» ، ودار بصره مع إصبع الهندى ، وامتد إلى حيث تلتق الجبال البعيدة بالأفق ، وخفا قلبه بين جنبيه مثلما خفا أول مرة لدى سماعه بيان الأمير «كوماجر» . وها قد تحقق شق من حلمه الجميل ، فهل يلازمه حسن الطالع حتى يحقق شقه الثانى ؟

ولم يكن لديه من السفن والرجال والعتاد ما يكفى لغزو بلاد الذهب ذات العز والسطوة ، وكان التعب والمرض قد ضعضعا البقية الباقية من أعوانه ، فلم ير بدآ من العودة إلى «داريان» ليعد هناك حملة جديدة ثم يستأنف الجهاد . وإذا كانت لهفته على النصر قد شدت عضده وأعانته على مقاومة التعب والداء أثناء تقدمه الظافر إلى المحيط . فقد فرغ جهده وخانته عزيمته وهو عائد إلى «داريان» . ولم يقو على المسير من شدة الإعياء وتبريح الداء . فحمله الخدم طريحا فوق صفائح من الخشب . ولم تكن متاعب الإياب أخف وطأة من متاعب الذهاب .

لم يطل ابتهاج باليبو بتوفيقه فى هذه المرة أيضا . إذ لم يقض أربعة أشهر فى «داريان» يتمتع بنعمة نجاحه حتى ظهر فى الأفق صف طويل من السفن يتقدم إلى الشاطىء . جاءت هذه السفن من أسبانيا على أثر الرسالة القديمة التى أنفذها إليها بأنه عرف طريق بلاد إنكاس ، وأنه فى انتظار العون لكشفها .

أرسلت أسبانيا جنودها ، ولكنها لم تطمئن إلى وضع بعثها تحت إمرة مغامر مثل باليبو ، بل اختارت لذلك رجلا وقوراً يدعى

«بيدراریاس» وأقامته كذلك حاكما على «داريان» ، وناطت به أمر تمحيص التهم المنسوبة إلى الثائر العاصى باليبو، والاقتصاص منه فى حالة ثبوتها عليه . وسرعان ما علم الحاكم الجديد بالرحلة الموفقة ، فلم يبدأ من احترام بطلها وإكرامه . ولكنه كان يمنى نفسه بكشف المحيط الهادى فملأت خيبة آماله صدره غلا وحقداً على الذى سبقه إلى ما أراد تحقيقه ، وسد فى وجهه سبيل المجد وذيوع الصيت ، ومما زاده حقداً وحسداً صدور أمر مليكه — بعد وصول الانباء الاخيرة إلى أسبانيا — بتعيين باليبو حاكما ثانيا منضما إليه .

وكانت المستعمرة أضيق رقعة من أن تتسع لمطامع مثل هذين المغامرين، فجد باليبو فى إعداد حملة لمغادرة داريان واستئناف رحلته ولم يقف «بيدراریاس» فى سبيله ، بل عاونه فى جهوده ليتخلص منه، متمنياً له الفشل ، وموطناً النفس على أن يحفر له حفرة هلاكه فى حال نجاحه .

غادر داريان وأوغل فى الغياض والغابات التى عرف مسالكها ووصل إلى الشاطىء الذى ذاق عنده نشوة الفوز . وسارع مع رجاله إلى الأشجار يقطعونها ، وينشرون خشبها لبناء السفن التى أرادوا أن تقلهم إلى «بيرو» . وناوأتهم الاقدار إذ اتضح لهم بعد جهود أربعة أشهر أن الخشب الذى صنعوا منه سفنهم نخر لايقوى على مصادمة موج المحيط . وأعادوا الكرة بعد أن اهتدوا إلى غابة خشب أشجارها متين. وبدأوا عملهم الشاق بنشاط متجدد ، وبيناهم على وشك الانتهاء منه جاء رسول من داريان يدعو باليبو للعودة إليها ومقابلة حاكمها

لأمر خطير يتعلق بها ، فعاد ملبياً طلب الحاكم رامياً إلى إرضائه ليظفر منه بمدد جديد يعينه على إتمام مشروعه :

ووجد على أبواب المدينة ثلة من الجند على رأسها صديقه ورفيقه القديم « بيزاريو » فخف إليه طروباً باسطاً يديه ليحتضنه ، ولكن الصديق القديم لم يهش له ، بل تقدم عابساً ووضع يده الثقيلة على كتفه ونادى بصوت أجش « باسم القانون أقبض عليك » .

كان مطمح بيزاريو أن يتم كشف بلاد الذهب على يديه دون غيره ، وهان عليه فى سبيل تحقيق مطمحه الوفاء وذمة العهد القديم ، واستطاع بمعاونة بيدرارياس أن يلصق بزعيمه تهمة خيانة العرش ، فاقتاده إلى المحاكمة ، ثم منها إلى المشنقة .

وإذا كانت أمنية كشف بلاد الذهب قد أنجت بالبو أول الأمر من موت محقق على أيدى جلادى أشبيلية ، فإن هذه الأمنية بعينها عادت فأوردته آخر الأمر بسبب حسد حاسديه مورد الهلاك .

بيتهوفن

الملحن الأصم

١٧٧٠ – ١٨٢٧

بعد طفولة اكتنف عهدها الإرهاق والتعذيب ابتسم للملحن بيتهوفن فجر شباب مشرق سعيد. كان والده يرغمه طول النهار وبعض الليل على درس الموسيقى والمران عليها، ويحاول استغلال معرفته البدائية بها ليتكسب، حتى عجب الناس لبقاء ذلك الغلام المجد على شغفه بها بدل مقتها، ولكن نبوغه الباكر حمل والده على التعجيل باحترامه وهو بعد في إبان شبابه، ولم يلبث أن صار رب أسرته الفعلي ينزل حتى والده على رأيه.

قضى شرخ حياته في «بون» القريبة من «كولونيا» بين مناظر طبيعية لم تنن بمثل جمالها بقعة أخرى من بقاع الأرض. وكانت هذه المناظر إذا ملأت عينيه وقلبه جمالا، أفعمت أذنيه وصدره نغما، وإذا صقلت فتن الطبيعة موهبته الفنية، فقد جلت موهبته الفنية فتن الطبيعة في عينيه، وأخذ فنُّ الإنسان وفن الطبيعة يتساندان حتى بلغا به الذروة.

ورقق الجو الشعرى المحيط به شعوره، وترددت إليه فتاة جميلة من جيرانه تدعى «ليونورا بروننج»، فصادفت قلباً رفّافاً فتمكنت منه. وكانت تُنشده أشعار الحب، وكان رد جوابه ألحاناً صادرة من قلبه الفياض بالمشاعر ووجد فنه وتوداً فاشتمل صدقاً وحرارة.

وكانا يقضيان النهار الضاحي متجولين بين المروج المخضلة ، والليل الساجي جالسين إلى جانب المعزف تلاحق أنغامه غناءها الساحر .
وكم انتشت الفتاة من خمر موسيقاه ، فابهج نفسه أن تؤخذ بفنه ، وأن تقبع وهي منصتة إليه مشرقة الوجه شاخصة الطرف كأنما تسبح في جو مسحور .

ودّ في ذلك العهد السعيد أن يؤلف لحنا يضمنه عواطف طربه ، وأن يغزو بهذا اللحن عالم الشقاء والعناء ، وأراد له أن يكون أبهج ما سمع الناس ، وأن يسميه « لحن الطرب » ، ولكنه أرجأ وضعه حتى يتأهب له التأهب الجدير بما ابتغى له إتقان وكمال .

ووضح مع توالي الأيام قدر موهبته الفائقة ، وقويت ثقته بكفايته ، فتطلع إلى فينا عاصمة الإمبراطورية النمسوية ، ومهد الفنون الجميلة الألمانية ، وضاقت « برون » بآماله العريضة ، وحدته العاصمة إلى محافلها الفنية الذائعة الصيت ، وبهرته أسماء أعلامها المشهورين ، فسافر إليها في نوفمبر سنة ١٧٩٢ وأولى ظهره مراتع صباه ، ومغاني هواه ، وهجر حبيبته وأهله وأصدقاءه غير معنيّ إلا بفنه وبالرغبة الحارة في الوصول به إلى الذروة التي يطمح إليها .

وحالفه الحظ الحسن فلم تغمره المدينة الكبيرة الصاخبة ، وإنما رنت في بعض أنحائها موسيقاه ، وتناقلت ذكره الأفواه ، وكثر عدد أصدقائه ومحبيه ، وأحيط بالرعاية والإعجاب . وأسكرته لذة النجاح ، فطفق يعمل في غير هوادة أو راحة ، وعصر قلبه في سبيل تجويد فنه ،

ورأى غايته قريبة من متناوله ، فأسرع غير مصطبر فى سبيل تحقيقها ، حتى أنهكه الجهد المتواصل .

كان جسمه هزيلا ، وبدل أن يرعى أمره ، أوسعه إرهاقاً وقديماً كانت النفوس الكبيرة أدواء أجسادها . شغلته مطامعه عن صحته ، وانتابته العلل فلم يخش إلا أن تعوقه عن المضىّ فى عمله ، وسطر على هامش أحد الألحان التى وضعها عام ١٧٩٦ هذه الكلمات « صبراً وشجاعة إذ لابد للعبقرية — رغم أوصاب الجسم — من التكشف والإشراق هأنذا فى الخامس والعشرين من سنى ، فعلى الرجل أن تتجلى مواهبه فى هذا العام نفسه » .

وهيهات للقدر الموكل بأهل الأدب والفن ، الدائب على التنكيل بهم أن يغفل عن عيد من عبدائهم . لذلك اختص بيتهوفن بخطب أبلغ فى النكاية من كل خطب . آلمته أذناه ، واشتد بهما الألم ، ثم أخذ سمعه يثقل حتى كاد يفقد حاسته . وهل هناك فجيعة من فجيعة الملحن النابغة فى أذنيه ؟

خشى أن يفتضح أمر هذا العيب ، ويجد حساده فيه موضع طعنتهم النجلاء ، فيصاب فى شهرته وفى رزقه ، لذلك تحاشى عشرة الناس ، وحبس نفسه فى غرفته لايخرج منها إلا إذا قصد المسرح ليرأس جوقته الموسيقية ، وثقلت على نفسه وحشة الانفراد ، وخشية ظهور علته ، ولم يستقر به القلق الذى آذى أعصابه . وتوقع أن يستفحل داؤه ، فتجهم له المستقبل ، ولم يعلله بأمل قريب أو بعيد فضاق صدره ، واستصعب

خلقه ، كره الدنيا والناس . ولم يحرص على الحياة هياماً بها ، وإنما حرصاً على فنه وهياماً به .

وصعب عليه البقاء على هذه الحال ، ولم يعد يحتمل كتمان سره . ولكن أين الصديق الكتوم الذى يأمنه على مثل هذا السر ، ويطمع فى صدق عطفه ومواساته ؟ واستعاد فى ساعات ضيقه ذكرى مغانى الرين وأصدقاء الصبى ، لحن إلى ماضيه السعيد ، واستشعر إخلاص أوفيائه القدماء ، فكتب عام ١٠٨١ إلى صديقه فيجلر الذى تزوج رفيقته القديمة ليونور هذه الأسطر الموجعة : « إنى أكابد عيشة تعسة ، ظللت عامين طويلين أجتنب الناس لأنى صرت عاجزاً عن عادتهم . إنى أصم ، ولو كانت لى مهنة غير مهنتى لهان الخطب ، ولكن موقفى اليوم موقف عصيب ، فما الذى يقوله أعدائى عن صممى ؛ وليس عدد أعدائى بقليل ! » وكتب فى الفترة نفسها إلى صديقه آمندا : « قُضى علىّ أن أعيش حزيناً بعيداً عن كل ما أحب وأعز ... والدنيا التى فيها على ما هى عليه من الخسة والأنانيـــة . ليس لى إلا أن ألتجىء إلى راحة الخضوع الصامت والاستكانة . وكم حاولت أن أتعالى وأستهين بالآلام ، ولكن أنى لى الوصول إلى تلك البغية السامية ؟ ! » .

وما اليأس إلا أخف لون من ألوان عناء الإنسان ، ولا ترضى الأقدار لمثل بيتهوفن أن تتركه مطمئناً إلى يأسه ، معافى من تباريح القلق والشك ، ومن بلاء خيبة الآمال بعد التماع سرابها ، فنصبت لقلبه السليم الطوية أشراك الحب الخادع وعلق بفتاة تدعى « جيليتا جيكياردى » . وابتدأ حبه واضحاً عتماً ، وعكسته نفسه الشاعرة ألحاناً

ترف رفيف قلبه العاشق وتحن حنينه ، وترق رقة شغفه الصادق وتئن أنينه ، واستطاع فى لحن «ضوء القمر» أن يخلد نزعات هيامه القصير الأجل .

ولم يتمكن من إخفاء سعادته الجديدة — كسابق عجزه عن كتمان شقائه القديم — فكتب إلى صديقه فيجار معلناً حبه الطارف : «إنى أجد للحياة بهجة وطلاوة لاعهد لى بهما ، وصرت أكثر ائتلافاً بالناس ، ولم يتحقق هذا التبدّل إلا بتأثير فتاة تحبنى وأحبها . إنى أمتع نفسى بلحظات غبطة لم أنعم بمثلها منذ سنين » .

ولا يفهم بيتهوفن الحب كما تفهمه عامة الناس . لحبه أشبه بموسيقاه فى ترفعها ونقائها وتمكنها من روحه . كانت كل من عاطفته وموسيقاه وليدة الأخرى ، وكانت لها عنده قدسية لا يدركها إلا من سما سموه . كان يعيش لها ولا يدين إلا بهما . وأنى لفتاة لاهية أن تدرك جلال مثل تلك الخوالج؟ فرها أن تستهوى الفنان العظيم ، فعملت على إذكاء لوعته ليزداد ولهاً وتزداد تفاخراً وزهواً . وما وثقت من سلطانها عليه حتى حلا لها أن تستهين بمن أجمع الناس على إكباره ، وقابلت جدّه بهزل ، وصدقه بمطل ، وإخلاصه برياء . وناوشته بكل سلاح ، فصدت وتدللت ، وأثارت حفيظته ، وأيقظت ريبه ، وأشعلت غيرته ، وكان العظيم المسكين لا يركن لليأس حتى تبث فيه الأمل ، ولا يكاد يعقد العزم على هجرها حتى تواصله وتلاينه . وزاد عذابه ما كان يخشاه من افتضاح سر علته ، فتعددت أسباب قلقه ، وتوفرت أنواع عذابه ، ولا يسلم من كان مثله طاهر الحس عف النفس عذرى الحب ، أن يصير

سخرية بنات حواء . هجرته فى النهاية ، وختمت المأساة بزواجها من النبيل الكونت « جالنبرج » لتشمره خسة قدره .

عاد إلى عبثه موحش القلب خائر الجلد ، وخال أنه مشرف على الهلاك ، وكتب وصيته وتهيأ للخاتمة ، ولكنه عاد فوجد الملاذ فى فنه ، ونفض عنه مضضه فى ألحان ما تزال تخار البشرية . فى صرخات ألم ويأس خفق لها قلب الإنسانية ، وودع الأمل الذى تخايل له فى صباه ، الأمل فى وضع « لحن الطرب » ، وكتب إلى أخويه كارل وجوهان : « مثلما أتيت إلى الدنيا أعود منها أدراجى ، إنى فقدت حتى الشجاعة التى كانت تفعم صدرى كلما تألقت أيام الصيف البهيجة ، أيها القدر ، أتح لى يوم سرور واحد ، فقد طال عهدى بالطرب الصادق العميق ، متى يتاح لى ذلك اليوم أيها القدر ! متى متى ؟ ! ... أبداً ؟ ؟ . كلا ، إنها لقسوة لا تطاق » .

وما شاعت ألحانه الممضة التى نفس بها عن قلبه المحطم، ولقيت كل تقدير ، حتى عاودته ثقته بنفسه ، واعتد كسابق عهده بموهبته المبدعة، واستهان وهو فى نشوة النجاح بمهانة إخفاقه فى حبه وأخذ يعزف للعالم ألحانا معبرة عن شعور جديد ، دالة على انبثاق آماله بعد إدجانها، وتبسم الحياة له بعد اكفهرارها ، فهو يريد أن يحيا ويهنأ ، وأن يوقع « لحن السرور » .

ثم أخذت موسيقاه تنضح بروح عصره ، بعد أن كان متطويا على نفسه ، مهموما بمشاعرها الخاصة دون العالم الخارج عنها . وشغلته الثورة الفرنسية والنزعة إلى الحرية ، كما كان عالقا بنفسه من برحاء الحب المخذول ،

وصورت ألحانه ماكان يستعر حوله من حروب وثورات ، وخيل للمنصت إليها أنه يستمع إلى دق طبول النزال ، ووقع أقدام الجيوش المقتحمة المتدفقة ، وكر كانها وفرهم ، وصيحات الطرب وتهاليل الانتصار .

ولم يعكر صفوه فى تلك الآونة إلا داء أذنيه ، واشتداد وطأته عليه ، وليس فى طوقنا أن نصور عذابه بأصدق من تصويره هو فى قوله : «لو كتب لى الخلاص من نصف الأوجاع التى أعانيها .. إذن .. ولكن لا . إنى لم أعد أحتمل شيئا منها ، أريد أن أشد أصابعى على عنق القدر . إنه لن يستطيع أن يهصر عودى حتى يقصفه ، ما أجمل أن يحيا الإنسان حياته ألف مرة !!» .

وأخذت آفاق شهرته تتسع ، وخطاب وده يتعددون ، وصادقه علية أهل «فيينا» ، واستقبلوه بترحاب فى قصورهم وضياعهم ، وكان بين المعجبين به المتوددين إليه الكونت «فرانسو دى برنزويك» الثرى الشريف . وتوطدت الصداقة بين الرجلين ، ودعاه الكونت فى عام ١٨٠٦ إلى قضاء أيام فى ضيعة له واقعة فى «مارتو نفاذر» بين مروج المجر الزاهية ، ولقى هناك «تيريز» شقيقة المضيف ، فخلبت محاسنها لب العبقرى اللهيف على الحسن ، وهيأ جمال الريف المجرى قلبه للحب . فما إن صادف الملاحة الخلابة حتى علق بشركها ، ولم تثنه تجاربه الماضية عن التعرض لها ، ولم تغنه حيطته وتبصره ، وإنما أجاب الداعى الذى لا مفر للفنان الكبير من إجابته ، وقد وصفت تيريز قصة الحب فى مذكراتها الآتية :

«فى ليلة ساجية مقمرة جلس بيتهوفن ، بعد تناول طعام العشاء

إلى المعزوف ، ومرت أصابعه عليه فى خفة . ثم بدأ يوقع الأغنية الآتية ، وهى من أغانى «باخ» : «إذا أردت أن تهبى قلبك لى ، فلتكن المحبة سراً مكتوما ، ولتكن خواطرنا المؤتلفة الممتزجة مما لا يعلم به إنسان» . وكانت والدتى والكاهن يغطان فى نوم عميق ، وأخى واقفاً شارد النظرات . أما أنا فكنت أحس كأن أغنيته ونظراته تتغلغل إلى شغاف قلبى ، وبدت لى الدنيا فى أروع مجالها ، وتقابلنا صباح اليوم التالى فى الحديقة فقال لى : «إنى أكتب اليوم «أوبرا» أشعر بأن مثلتها الاولى فى نفسى ، وأرى صورتها أمامى سافرة أيان أذهب ، وحيثما أجلس ، إنى لم أشم من قبل هذا السمو ، صرت لا أرى حولى إلا ضياء ونقاء وجلاء ، وكنت حتى اليوم أشبه بغلام الأساطير الذى شغل نفسه بجمع الحصى ، وغفل عن الزهرة الجميلة المتجلية فى طريقه» . وفى شهر مايو سنة ١٨٠٦ طلب الاقتران بى ، وقبلت خطبته التى لم يقرها غير أخى المحبوب فرنسوا» .

قضى حقبة من الزمن عاوده فيها طربه ومرحه ، وغفل وهو فى نشوة الحب عن ألم أذنيه ، و«السمفونيا» الرابعة تعبر عن أصدق خوالج قلبه فى ذلك الحين ، والسمفونيا الخامسة أو الريفية تصور ريف المجر الذى اجتلى إذذاك محاسنه ، وتوالت ألحانه المطربة ، وازدادهيامه توقداً ، فازداد إنتاجه روعة . ولكن مهادنة القدر له لم تطل ، إذ بدأ يشعر بتباعد خطيبته عنه ، على أنه ظل متشبثاً بخوادع الآمال حتى عام ١٨١٠ ، وكتب لها يصف لوعته وعذابه .. «يا ملاكى .... يا نفسى ، يا كل شىء . إنى أحبك مثل حبك لى ، على أن حبى أقوى وأشد .

ما هذه الحياة يارب ! الحياة بدونك وأنت منى على هذا القرب ! بل على هذا البعد ! إن خواطرى تتسابق إليك ياحبيبتى الخالدة[1] . إن الأفراح والأحزان تتناوبنى ، وكم ساءلت الأقدار هل تنوى تحقيق أحلامنا ؟ أنا لا أستطيع الحياة بعيداً عنك ، ولن تستهوى فؤادى فتاة غيرك أبداً . ولمَ هذا التفريق يا إلهى بين المتحابين ؟ لم تعد الحياة تتيح لى الآن غير الأشجان ، بل صرت بعد حبك أسعد الناس وأنكدهم حظا . كم من دموع فى كل يوم تنحدر من عينى صوبك ! ! » .

كان على بيتهوفن أن يؤدى رسالته فى الحيـاة . كان عليه أن يعبر فى ألحانه عن مختلف العواطف من قنوط ورجاء ، ومن نعيم وبلاء ، ومن قلق وطمأنينة . فكيف يسمح له القدر بنعيم دائم ! أو بيأس مطمئن ! إن الطبيعة التى منّت عليه بنعمة موهبته الخارقة تقاضت ثمنها الغالى إذ فرضت عليه أن يعيش لغيره ، وأن ينعم ويشقى لينشد الناس ألحان النعيم والشقاء . على أن بعد وراء هذا العناء متعة لا يعرف مذاقها سواد الناس .

بعد أن جد سنين طويلة وراء سراب أحلام الحب ، نفض يديه منها على مضض بعد أن أدرك الحوائل القـائمة دون تحقيقها ، من التفاوت بين طبقته وطبقة خطيبته الاجتماعية ، إلى فرق سنيهما ، وفرق مزاجيهما ، وما كان ليحتمل صدمة هذا الخذلان الجديد فى حبه لولا ما يجد فى فنه من عزاء لا يخذله ، وما يجد فى الناس من إعجاب تزداد فى كل يوم شواهده . ووصف ما يعانيه فى مذكراته الآتية : « مسكين بيتهوفن ، لم تكتب لك السعادة فى هـذا العالم . إنك لن تجد أحباء

(١) أهدى بيتهوفن لحنه « أباسيوناتا » إلى تيريز ، وجاء فى عبارة إهدائه « إلى حبيبتى الخالدة » وكرر هنا نفس التعبير .

أوفياء إلا فى عالم مَثَلك الأعلى،فلتذعن كل الإذعان للقدر . إنك تحيا لغيرك ولا تستطيع الحياة لنفسك ، ولن تجد لك ملاذاً إلا فى فنك ، أولنى ياربى القوة لأقهر نفسى » .

أخذ يهيب بقوته ، ووجد بعض الراحة فى شعوره بها . وقابله « بيتينا برينتانو » عام ١٨١٢ فكتب عنه : « لا يوجد ملك أو إمبراطور يشعر شعور بيتهوفن بقوته » . وترامت شهرته إلى جيته فسعى إلى الاتصال به ، وكان بيتهوفن معجباً من ناحيته بعبقرية جيته،فتم تعارفهما، ولكن التنافر دب بينهما لاختلاف طباعهما . ثم تنابذا بعد أن وقع لهما فى تيبليتز الحادث الذى رواه بيتهوفن فيما يلى :

« يستطيع الملوك والأمراء أن يصنعوا مستشاريهم وأساتذتهم ، وأن يغمروهم بألقابهم ونياشينهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا عباقرة خُلقت نفوسهم من غير طينة البشر ، فإذا صادف أولئك السادة رجلين مثلى ومثل جيته ، فعليهم أن يدركوا قدرنا الجليل . . . بينما كنا نحن الاثنين فى طريق عودتنا مساء أمس إلى المدينة ، رأينا عربة الأسرة الملكية مقبلة من بعد ، فنزع جيته يده من إبطى ، وأسرع إلى الانزواء فى جانب الشارع ، وحاولت أن أفضى له بما جال فى خاطرى ، وأن أحمله على مواصلة السير ، ولكنه ثبت فى مكانه فغادرته ورفعت قبعتى ، وشددت علىّ سترتى ، وتقدمت ويداى معقودتان خلفى ، فحيانى الدوق رودولف برفع قبعته ، وحيتنى جلالة الإمبراطورة أجل تحية ، فإن سادة القوم يقدرونى ثم نظرت إلى جيته ، فوجدته منحنياً تكاد جبهته تلمس الأرض ، فذهبت إليه بعد مرور الموكب الإمبراطورى ورفعت رأسه ، ولم أجد له فيما أتى عذراً » .

هكذا شاءت الأقدار أن تبث فى نفس بيتهوفن الزهو والاعتداد بالنفس لتلق به بعد ذلك من شاهق إلى حضيض المذلة ، وأكثرت من دواعى فخاره لتزيده تعاليا ، ويعظم بعد ذلك وقع خطبها من نفسه . وقد اجتمع مؤتمر الموسيقى الأوروبى فى فينا عام ١٨١٤ فعد بيتهوفن «فخر أوروبا قاطبة». ولقى الملحن الكبير أثناء اجتماع المؤتمر أصدق حفاوة من أمراء العروش وأمراء الفنون ، وقابل حفاوتهم بوقار العظيم المتواضع .

وهانت فينا فى نظره ، وأخذ يستخف بأهلها ، ويعيب ذوقهم الفنى ، ويرميهم بالميل إلى العبث ، والإعجاب بالفن الماجن دون الفن الجدى الرزين . ولم تبهره غزوات نابليون وانتصاراته ، إذ قال عنه : «من المحزن ألا أتقن فن الحرب إتقانى فن الموسيقى . إذن لقهرته» ، وفى هذا العهد الذى وصل خلاله إلى أوج مجده ، بدأت مأساة حياته تنذر بالخطوب .

مات أخوه كارل سنة ١٨١٥ وخلّف ولداً إسمه شارل ، وكانت وصيته أن يتولى بيتهوفن أمر ولده اليتيم ، وأرادت الأم أن تحتضن ابنها ، فقاضاها بيتهوفن مطالبا بتسليم الغلام إليه ، وتعلق به وتزايد هذا التعلق حتى صار شغله الشاغل . وترقب سير الدعوى بقلق واضطراب ، وكتب عن ذلك فى مذكراته : «كن فى عونى يا إلهى ، فأنت ترانى وحيداً منبوذاً من الناس لأنى لا أجاريهم فى طغيانهم . أجب دعائى إليك . دعائى أن تكفل لى مستقبلا هنيئا ، وأن تتيح لى الحياة إلى جانب شارل المحبوب» .

وما تحقق رجاؤه ، وجاءه شارل وأقام فى كنفه ، حتى استجد له خطب خطير . شاعت فى فينا ألحان روسينى الملحن الإيطالىّ فاستهوت الأسماع وصرفتها عن بيتهوفن . وأخذت شهرة هذا الأخير تتزعزع ، وشهرة الأول تتوطد واتهم بعض نقاد الصحف النمسوية مواطنهم بأنه من دعاة جيل منصرم ، عفّى عليه القدم ، وأن عجائز ذلك الجيل هن وحدهن اللائى يتذوقن موسيقاه العتيقة ووصفوا روسينى بأنه فخر العصر ، وعلالة الجيل ، ولألاء أمل المستقبل . وجرح النقد المرهف عزة الملحن النابغة ، وأثر فى صحته وضاعف داء أذنيه ، حتى وقعت الكارثة الكبرى فى ليلة ليلاء من شتاء عام ١٨٢٢ . ذهب تلك الليلة إلى دار الأوبرا ليرأس جوقة « الأوركسترا » . وابتدأ التمثيل ، فإذا به لا يسمع شيئاً من غناء الممثلين ، وتبعت نغماتُ الأوركسترا تلويح عصاه الهافية فسبقت الغناء ، وتورّط الممثلون وارتبكوا ، وشاع الهرج بين النظارة ، فأوقف التمثيل ، وأسدل الستار .

ولم يفهم بيتهوفن سبب ما حدث ولم يجرؤ أحد على مصارحته بالواقع الفاجع ... بأنه أصم عاجز عن إدارة الأوركسترا . ودار بعينيه حوله ، وحدق فى الملتفين به ، فقرأ على وجوههم أمارات الوجوم والإشفاق ، فرفع رأسه فى كبر وجلال ، ونادى صديقه شيندلر وسأله عما جرى ، فكتب له هذا الأخير الكلمات الآتية : « أرجو أن تغادر المسرح ، وسأذكر لك الداعى عند وصولنا إلى الدار » . وفيما يلى قصة شيندلر عن الحادث الأليم : « ما قرأ كلمتى حتى قفز من منصته ، وجذبنى من ذراعى صائحاً « لنخرج من هنا » . وذهبنا

إلى منزله ركضنا ، وما دخلناه حتى ارتمى فى كرسيه وغطى وجهه بيديه ، وظل هكذا حتى حانت ساعة تناول الطعام ، وجلسنا إلى مائدة الأكل وقتا دون أن يفوه بكلمة . وكانت دلائل أعنق الأشجان بادية على محياه . وإذ أردت الانصراف ، استبقانى راجياً ألا أتركه وحده . وعندما اضطررت إلى مغادرته ، طلب إلىّ أن أصحبه إلى طبيب أمراض الأذن ... ولم يقض بيتهوفن — طوال عهدى بملازمته — يوم بؤس شبيهاً بذلك اليوم المشئوم ، فقد أصيب فى سويدائه بطعنة ظل يعانى ألمها حتى آخر أيامه » .

كان إذا ألمت به ملمة ، تسلى عنها باستشعار قدرته وتقدير الناس له ولكن الإهانة مست كرامته هذه المرة . مست تلك القدرة والمرتبة . ومن يدرك مبلغ زهوه واعتزازه بفضله ، يقدر وقع الهوان الذى حل به . إذ على قدر الشعور بالكرامة يكون وقع الإهانة . وكيف يستسيغ مثل بيتهوفن إعراض الجمهور عنه ، وتفريطه فيه ، والاستخفاف بعجزه وعاهته ، وعدم التورع عن إهدار آدميته ؟

ربض الأسد المصور فى داره صديع القلب ، حزين النفس ، تستعيد ذاكرته ما وقع له ، فيثور غيظاً وسخطاً ، ثم تتخاذل أعصابه ، وينكمش حياء وخجلا . ولم تتعاقب عليه الأيام حتى أدرك أنه لم يصب فى عزة نفسه فحسب ، ولكنه أصيب كذلك فى رزقه ، إذ أخذ دخله يشح . وظل « روسينى » يكتسح ميدان الشهرة والمجد حتى ضاقت بالملحن الهرم سبل العيش ، وتحالفت عليه ذلة الفقر ، وذلة الخذلان .

ولم تشأ الايام أن تدعه هانئاً بالتملة الباقية له فى الحياة ، فألبت عليه ابن أخيه وأوعزت إلى الفتى العاق أن يمرق من كنف عمه . ووقع بينهما شقاق ثم فراق ، وذاق الشيخ المسكين ألواناً جديدة من العذاب فلم يكد يسخط على شارل ، ويفرط فى عشرته بعد الذى سمع من سوء سلوكه ومعاشرته الاوغاد والاغمار ، حتى عاود الحنين إلى فتاه الذى أقام من فؤاده مقام الابن الوحيد ، وكتب إليه الخطاب التالى الذى يثير التحسر والإشفاق على الشيخ المعذب : « ولدى المحبوب . لن أقول إلا كلمة واحدة : تعال إلى أحضانى ، ولن تسمع منى عبارة قاسية . ستجد قلبى مفعما بالحب الذى عهدته فيما مضى ، وستتحدث ودياً عن مستقبلك . أنك لن تسمع كلمة عتاب . تعال . تعال . فإن جوانح أبيك بتهوفن تضطرب للقياك . تعال ساعة وصول هذه الرسالة إليك » . ثم سطر الحاشيــة الآتية باللغة الفرنسية « إذا رفضت الحضور . قتلتنى لا محالة » .

وحضر إليه شارل . ولكن حضوره ضاعف محنة الشيخ الرقيق المحب ، فقد تمادى الشاب الغرير فى فساده ، وأغرق عمه فى ديون يصعب سدادها ، وآذاه بغليظ القول وسيء المعامـــلة . وتوالت الخطوب على بتهوفن من كل ناحية ، من جحود ابن أخيه ، إلى تخلى أصدقائه عنه ، إلى فقره وفقدان جاهه ومجده . وبعد أن كان يكثر من الخروج إلى الخلاء ، ويجد بعض السلوى بين أزهار المروج ، وتحت ظلال الغابات ، خذلته قواه ، وأقعده أساه ، وعاد الى الاحتباس بين

جدران داره . وكم من مرة تاق إلى خلانه ، فحال دون خروجه إليه تهلهل ردائه ، وتفتق حذائه وخجله من الظهور بين الناس فى هيئة رثة. وكتب فى هذه الأثناء العصيبة : « اشتدت بى الحاجة حتى كدت أستجدى السابلة ، واضطررت مع ذلك إلى التظاهر بالاطمئنان وتوفر الرزق » .

وما بلغت هموم بتهوفن أشدها ، وبدا أنه ودع كل أمل فى وضع لحن الطرب ، حتى أخذت السحب المتجمعة فى خاطره وقلبه تتقشع ، وأخذ ينبوع حيويته يتفجر ، ولم تلبث المعجزة الكبرى أن تحققت .

قضى عامين بعد حادث الأوبرا ابتلى فيهما بصنوف العذاب ، وأخذ يوطن النفس على الصبر ، ويروضها على احتمال الصعاب حتى عاوده شعوره بقدرته وثقته بنفسه ، واطمأن إلى خاطر وجد فيـــه الراحة والعزاء . أدرك أن العظيم لا ينتظر الأجر والجزاء من الدهماء ، فهو عظيم فى حالتى تقديرهم وإهمالهم ، وهو يستوفى أجره من فنه . أليس فنه مأثرة جزيلة لا يجوز أن يطمع بعدها فى مأثرة أخرى ؛ أليس تميزه عن العامة نعمة جديرة بأن يكتفى بها ؟ وهل يضيره أن يسمو فلا ترقى الفطانة البشرية إلى سمائه ، وماهى بعدُ الأحزان التى يشقى بها ؟ أليست أحزانا أرضية غير جديرة بعناية من يحلق فوق السحاب .

أثلجت هذه الخواطر صدره ، وأكبَّ على معزفه يذيع ألحانه الشجية ، ويعلم بكل ما حوت الحياة من بهجة وجمال . وإذا كانت النغمات لم تتغلغل فى أذنه الصماء فقد ترددت بين حناياه ، وأفعمت صدره الخفاق. ورجعت به الذاكرة إلى عهد شبابه ، ورأى على ضوء الذكرى وادى الرين المخضل ، رآه أحلى وأبهج من عهده به ، وللذكرى تأثير يشبه

السحر ، فهى تحيل الواقع المادى إلى خيال رائع ، تجرد من المادة ، وتضج بأرق المعانى ، وحرك ألطف المشاعر .

جاش صدره ، وجاء عهد المد بعد الجزر وصفقت فى جوانحه عاطفة الطرب القديمة التى تاق طول حياته إلى التعبير عنها لحنا ولجت به هذه المرة حتى هم بتحقيق أمنيته ، وتناول قلمه وأخذ يدون ذلك اللحن الذى أراد أن يتوج به روائعه الفنية .

كان فى تلك الآونة على وشك الانتهاء من السيمفونيا التاسعة فعول على اختتامها باللحن المنشود ، ولم يجد صعوبة فى الانتقال إلى النغمة الجديدة التى بدأت تهب رقيقة كنسيم الصباح رطب الأنفاس الحارة ، أو كأضواء الفجر الخفيفة تشع بين الدياجير . ثم تلاحقت رنات الطرب وتزاحمت ، وعلا جرسها فاستخفت النفوس إلى الانطلاق من أغلالها ، واستمرت تعلو طبقة بعد طبقة فلم تقف عند حد، وتفجر اللحن من ينابيع تلك النفس الفياضة ثم تدفق كالسيل سريعا عميقا جارفا.

ودبت فى جسم الملحن الممسوس رعدة من البهجة والفرح ، وتهدج تهدُّجَ لحنه ، وأومضت عيناه وميض البرق خلال الرعد وأضاءت جبينه هالة من نور علوى ، وارتسمت على سيماه معانى الجذل قبل أن تفيض لحنا . ولم يغب عنه أن الانسانية تنتظر من لحنه شفاء العناء ، فاستلهم أبعد مهابط الوحى ، واستنبط أبدع خواطر النعيم ، حتى أخذته سورة من الطرب تشبه الجنون ، ورنت أصداء روحه كأنها جلجلة نشوان أو قهقهة مجنون .

وأعقب الليل النهار ، ثم أعقب النهار الليل وهو غافل عن نفسه ،

مكب على مقطوعته الموسيقية فلا يفكر فى شىء غيرها . وكانت حوائج جسمه من غذاء وراحة آخر ما خطر له خلال هذه الساعات الجليلة ، ساعات المجد والخلود . ولم يبرح مقعده حتى خرج للناس لحن الحبور المنتظر لترقص على وقعه القلوب ، وتفتر الشفاه ، وتشرق الجباه . وما انتهى منه حتى ارتمى على فراشه ، ولكنه لم ينم . وأنى له النوم وعروقه كانت ما تزال تنبض بالنغم الراقص ، وخاطره يزخر بصور الجمال الضاحى الضاحك .

شاع اللحن الخالد فى فينا وتعدّاها إلى سائر بلاد ألمانيا ، ثم عبر الحدود إلى الممالك الأخرى ، وتخطى البحر إلى إنجلترا ، وانقلبت نوادى الموسيقى الأوروبية إلى محافل ابتهاج ومرح . وظفر العالم المتحضر بوسيلة نجاته من برحائه ، واستقبل الآية الفنية الشائقة استقبال أهل الجحيم بشائر النعيم ، وقدمت فينا إلى نابغتها شعائر تقديرها العميق ، وطلبت إليه متوسلة أن يوقّع لها لحنه الفذ بنفسه فى دار الأوبرا ، فأجاب الرجاء ، وذهب فى الليلة المحددة إلى الأوبرا فوجد المدينة كلها محتشدة أمام أبواب الدار ، وقوبل بعصف التهليل وقصف التصفيق . وما دخل البهو الكبير حتى وقف الحضور وقوفهم لإمبراطورهم . وكانت العادة الجارية أن يقتصر هتاف الشعب لأى فرد مهما عظم على صيحة ترحيب واحدة ، وينفرد الإمبراطور بشرف الهتاف له ثلاثا ، ولكن الشعب خالف فى هذه المرة تقاليده — وفينا بلد التقاليد — وهتف لبيتهوفن مثنى وثلاث ثم رباع وخماس ، ولولا أن أمسكت رجال الشرطة القوم السكارى بنشوة الطرب لتمادوا فى الهتاف .

وبدأ عزف الملحن فإذا بالشعب الهائج المائج يسكن سكون الموت، ويصمت صمت القبور ، فتجمد حركاته . وتعلق أنفاسه ، ويذهل عن جسمه ، وينصت فى وجوم ، وتشخص أنظاره ، ويسبح روحه فى عالم من النعيم البهيج .

وما اختتم الملحن حتى دوى دوىُّ الطرب المكظوم . وهب القوم واقفين هاتفين . ملوحين بأيديهم ، مظهرين عاطفة عرفان الجميل للملحن الرحيم . منقذ الإنسانية من كروبها . ولكن الملحن لم يسمع شيئاً من ضجيج الإعجاب البالغ حتى أدار أحد أصدقائه وجهه إلى الجمهور . فلما رأى دلائل فورة الإعجاب حتى إنتابه الإغماء من شدة التأثر .

المنية الفاصلة

فى موقعة واترلو

هرب نابليون من جزيرة إلبا ! . . خبر كان له أبلغ وقع فى أوربا . وصل البطل الهارب إلى شاطىء فرنسا . ثم شق طريقه إلى باريس . بين هتاف الهاتفين . وتصفيق الجذلين والمغتبطين . قوبل بالترحاب فى كل مكان . كأنما هو قادم من ميدان الظفر وسبقته أخباره وهو يتقدم إلى العاصمة . فلم يطق المعجبون به الصبر عنه حتى يوافيهم، وسعوا إليه من كل ناحية متظاهرين معربين له بكل وسيلة عن طربهم للقائه . وشارك الحكام الشعب فى الحفاوة به . وأسلموا إليه مقاليد الحكم فى البلاد التى مر بها . وزحف الجيش وعلى رأسه قواده إلى قائده الأعلى . وسار فى ركابه إلى عاصمة الملك . واختلجت فرنسا من دانيها إلى قاصيها بعاطفة عنيفة طال العهد بها . عاطفة الزهو وحب الغلبة والسيطرة : تاق الشعب إلى انتصاراته السالفة ، ووجد الزعيم الذى قاده إليها والذى سوف يقوده إلى أشباهها . وجد دعامة مجده التليد ، ورمز عزته القومية . فأفسح له الطريق إلى العرش ، طرد الملك من قصر « التويلرى » وفتح له أبوابه .

وكان للنبأ العظيم وقع فى سائر أنحاء أوروبا لا يقل شدة عن وقعه فى فرنسا . هرع الوزراء والقادة بمجرد سماعهم به إلى مكاتبهم وعقدوا الاجتماع تلو الاجتماع ، وقد نسوا أحقادهم وحزازاتهم . وطووا صفحة ما شجر بينهم من خلاف ولجاج . وواجهوا الكارثة الجديدة

متكاتفين . لقد جاهدوا طوال عشرين عاماً جهاد اليأس ، حتى أتيح لهم نصر لم يكن فى الحسبان ، ووقعت فريستهم العاتية فى قبضتهم . وهاهو إهمال يسير من حراس جزيرة « إلبا » يطيح بثمرة ذلك الجهاد. وإذا بآلاف الأرواح التى أزهقت فى الحروب الدامية تذهب هباء . وإذا بالتضحيات الجسام تضيع هدراً . وإذا بالدول التى لم تكد تسترع من الكفاح المخوف فى سبيل بقائها ، تضطر إلى خوض المعركة من جديد وهى غير مستوثقة من عقباها .

سارعت انجلترا وألمانيا والنمسا وروسيا إلى تجنيد الجنود وإعداد عدتهم ، وتدبير زادهم . ونزل ولنجتون بجيشه الجرار شاطىء بلجيكا ، وزحف الجيش البروسى إلى الحدود الفرنسية بقيادة « بلوخر » ، وتقدم الجيش النمسوى من ورائه لمعاونته . وأخذ ملايين الروس يعبرون بولونيا ، فى طريقهم إلى البروسيين لعونهم على من حاول غزو بلادهم المقدسة منذ ثلاث سنوات . وشاهد نابليون هذه الجيوش المتحالفة تتقدم موجة منها بعد موجة ، فرأى نصره موقوفاً على مناجزة كل فريق منها على حدة قبل أن تتاح لها فرصة التلاق والتضافر . وهذه الخطة تقتضى منه مفاجأة العدو فى سرعة البرق . واختطاف النصر منه اختطافاً .

تقــدم الليث المهوب فاصطدم بالجيش البروسى فى ١٦ يونيو سنة ١٨١٥ عند « ليني » ، ودفعه بمخلبه دفعة ليست بالقاضية ، ولكنها بطشة ليث هصور ، ولم تكن الراحة من حقه أو حق جنوده ، بل كان عليه أن يجرى من ساحة قتال إلى أخرى . ويجالد ويقاتل لاهثاً دون

أن يهدأ برهة يسترجع فيها أنفاسه . كان يرى المدد تلو المدد فى الطريق إلى خصومه، ويرى الحرج يوشك أن يستفحل فلابد من معالجته قبل استفحاله ، ويدرك أن الشعب الفرنسىّ الذى أنهك قواه طول النضال حتى توترت أعصابه ، فى حاجة إلى انتصارات عاجلة حاسمــــة تقشع عنه غيابة القلق ، وتهزه إلى الطرب ، وتسكره حتى يلهو عن شقائه وإعيائه ويعلم كذلك أن فى فرنسا أعداء لداً أقوياء بخبثهم ، يتربصون أول فرصة ليوغروا عليه الصدور ، ويستثيروا عليه البلاد ، وجيشه اليوم فرح بمقدمه ، فخور بقيادته . مضطرم لذلك نخوة وحماسة ، فلابد من الإفادة العاجلة من هذه الجذوة المشتعلة قبل أن تفتر مع مرور الزمن .

سار إلى «ولنجتون» عجِلا لا يتريث ولا يترك لعدوّه مندوحة للتريث ، وجشّم جيشه السرى حتى وصل إلى « واترلو » فى الصباح التالى لموقعة «ليني» ، وألفى «ولنجتون» . ذلك الرجل الهادىء الطبع ، المتهالك الجاش ، المستميت فى سبيل النصر ، متحصناً فى تل « كاتربرا » ، ولم يهتم نابليون بأمره فى حياته اهتمامه فى اليوم بالنصر ، ولم يحسن التدبير فى موقعة من مواقعه كما أحسنه له ، ولم يتخذ من وسائل الحيطة ما اتخذه للملحمة الخطيرة ، فتوقع أن يفاجئه البروسيون بينما هو مشتبك فى النضال مع الإنجليز ويزعجوه ، فجرد لهم كتيبة ناط بالماريشال « جروشى » قيادتها ، وأمره باقتفاء أثرهم ثم التربص بهم على مسيرة ثلاث ساعات منه ، والحيلولة بينهم وبين جيش ولنجتون حتى لا يتمكنوا من مساعدته .

لم يقع اختيار نابليون على «جروشى» لتميزه بمواهب فائقة ، ولكنه

اختاره لأن قواده الأفذاذ أمثال « ديبي » و « كليبير » و « لان » وغيرهم لقوا حتفهم فى حربه السجال التى لم يهدأ لها نقع . ولم يخطر له أنه يلقى بمصيره بين يدى الماريشال المختار . لأن العمل المنوط به لم يكن من الخطورة بحيث يتطلب الفطنة النادرة والذكاء الثاقب ، ولم يغب عن بال نابليون أنه ولى القيادة من لم يستقل بها قبل اليوم . من لم يعتمد على نفسه فى أى تصرف يسير أو خطير ، ولكن ماذا عليه لو جربه مرة واحدة ؟ لو أسلم إليه زمام بعض جيشه بضع ساعات ؟ ولم يتوقع أحد أن تكون هذه الساعات هى فصل الخطاب فى تاريخ بطل فرنسا الكبير .

ارتقى « جروشى » فى جيش نابليون إلى رتبه الممتازة بفضل وعيه أوامر رئيسه ، وحرصه على تنفيذها بحذافيرها . هذا إلى شجاعة فائقة، وتفان فى أداء الواجب . تعود الطاعة العمياء فتعطلت عنده ملكة التفكير والإبداع . كان حميد الذكر ولكنه لم يكن ساطع الفكر ، فآده أن يتحمل هذه التبعة الجديدة ، وأن يعمل وفق رأيه لا وفق إملاء سيده ، وسار على رأس كتيبته حيران مهموما . وأمطرت السماء، واستوحل الطريق ، وصعب المسير ، فتولاه قلق وضيق، وزاده الجو القاتم كآبة وهما .

إنقضى النهار والسحاب الصيب يحجب الشمس ، ويغمر الأرض بالصوب المدرار ، وما حل المساء حتى أخذ الرعد يقصف مثل قصف المدافع ، واشتد تصبب المطر . وسقط فى يونيه الصقيع وقسا البرد على الجنود الذين لم يجدوا سقفاً يحتمون فيه من وابل السماء . أو حائطاً

يدرأون به عصف الريح ، وجلسوا القرفصاء فى الأرض الفضاء . تحت القبة الزرقاء . يركن كل منهم ظهره إلى ظهر رفيقه ، ويتمنى أن يدور القتال ، ويؤثر مكارهه على ما هو فيه .

عانى الجيش هول تقلب الجو ، إلا فرداً لم يشعر فى تلك الليلة ببرد ، ولم يحس بمطر ، بل لم يدر أهوفى شتاء أم صيف . أخذ يتنقل بين جماعات الجند ، وقد دس كف يمناه فى فتحة صداره ، وأسند يسراه إلى ظهره ، ووصل وهو مطرق الرأس متجهم الجبين إلى طلائع جيشه ، ومد بصره فى الظلام كأنما تخترق عينه حجبه ويرى مواقع عدوه ، وغرق فى تفكير عميق وتأمل طويل ، كأنما كان يدبر عندئذ خطة هجومه . ثم تململ واحتدم وآب مغيظاً ، فقد كان ، ولنجتون ، متحصناً فى التل المنيع ، وتيقن نابليون أن هذا الخصم العنيد ذا الأعصاب الثلجية سيظل ثابتاً فى موئله الحصين . لا تضله خدعة ، ولا تستدرجه خطة إلى السفح وتغريه بمنازلة الفرنسيين فى أرض منبسطة ، ولم يكن هؤلاء يستطيعون انتظار فرصة ملائمة للنزال ، بل كان عليهم أن يحاربوا بغير هوادة أو مهادنة ، وزاد الوحل صعوبة الصعود إلى التل الزلق ، وظل الإمبراطور فى قلقه وتململه حتى الساعة الخامسة صباحا ، إذ صحا الجو وانقطع المطر ، فقر عندئذ على قرار ، وأعلن عزمه على الهجوم بعد أربع ساعات ، ونفخ عندئذ فى البوق ، وأبلغ الأمر إلى الضباط والقواد ، وقام الجميع على قدم الاستعداد .

وما وافت الساعة التاسعة إلا والفرسان على ظهور جيادهم مصطفون ، والمشاة متراصون متأهبون ، وانتظر الجميع إشارة الهجوم ، فمضت

لم يتخلله إلا صهيل الخيول ، وساد سكون لم تضطرب فيه إلا السيوف المرهفة ، والرماح المشرعة ، ولكن الإمبراطور لم يظهر فى الميدان ، بل لزم معسكره فى قرية «كايو» . وطال انتظار الجيش ، وهو على أهبة القتال ساعتين كاملتين ، كانتا ساعتين مشئومتين ، إذ لو لم ينتظرهما نابليون ، لما وصل البروسيون إلى ولنجتون وقت مساس الحاجة إليهم .

ظهر الإمبراطور فى الميدان واستعرض جيشه قبيل المعركة الحاسمة ، فحياه الفرسان بشهر السيوف ، والمشاة بإمساك البنادق باليدين . ثم هتفت آلاف الحناجر القوية فى صوت دوى كقصف الرعد «يحيا الإمبراطور» .

وكانت الساعة الحادية عشرة ، وصدر الأمر المرتقب ، فبدأت المدافع تطلق قذائفها على لابس الأردية الحمراء ، حتى إذا مهدت طريق الزحف للمشاة ، هجم هؤلاء بقيادة «نى» الملقب بأشجع الشجعان ، وحمى وطيس المعركة التى كان مصير رجل العصر متوقفاً عليها ، وكان مستقبل أوروبا بأسرها معلقاً بمصير ذلك العلم الفرد .

ردّ البريطانيون هجمة «نى» فإذا به يعود القهقرى ليندفع كرة أخرى أروع من الأولى ، إذا به يقع ليثب ، ولم تمض ساعة حتى بلغ عدد الجثث التى كست سفح التل عشرة آلاف ولم يترتب على هذا الصراع الدامى غير بلوغ الجيشين أقصى حالات الوهن ، وبلوغ القائدين أشد حالات القلق ، وإيقان الفريقين أن الفوز من نصيب الفريق الذى يأتى له المدد أولا ، ولهذا أخذ «ولنجتون» يدور بطرفه باحثا فى

الأفق البعيد عن جيش «بلوخر» عنيا النفس بأسر «العقاب»[١] من جديد، وإرجاعه إلى سجنه، وظل «العقاب» يرسل من ناحيته نظراته البعيدة متطلعاً أثر «جروشى» عنيا النفس بسـطوع نجمه كما سطع فى «أوسترليتز».

وبينما كان «جروشى» يحوم بجيشه حول التخوم المجاورة، مقتفياً أثر البروسيين، متبعا أوامر قائده الأعلى، إذ سمع دوىّ المدافع، فأرهف ومن معه آذانهم، ولم يخامر أحداً أى شك فى نشوب معركة خطيرة بين الإمبراطور والإنجليز، وجمع «جروشى» ضباطه للتشاور فى الأمر المستجد، فوجد إجماعهم معقوداً على القفول توّاً إلى «واترلو» والاشتباك فى المعمعة الدائرة، ولكنه ظل متردداً. فصاح به ياوره «جيرار»: «لابدّ من المبادرة إلى الإمبراطور»، ولم يعجبه أن يخاطبه ياوره بلهجة الآمر، فهزىء برأيه، وكانت عادته أن يطيع أميره، ولم يتعود اتباع رأيه الخاص، فصاح فى الجمع المتململ: «الأمر الذى تلقيناه من الإمبراطور صريح، ولا رجوع لنا فيه إلا إذا صدر منه أمر ينقضه».

سُقط فى يد جيرار، إذكان يشعر بخطورة الحال، كان يتوق إلى مؤازرة الإمبراطور ومنازلة خصمه، ووقف له «جروشى» معارضا معانداً، وبينما هو فى تميزه من الغيظ، خطر له خاطر توجه به إلى قائده، رجا منه متوسلا بحب الإمبراطور أن يأذن له باقتياد فيلقه وفيلق آخر من الفرسان إلى الميدان، فأطرق «جروشى» هنيهة قبل

(١) هكذا كان يلقب نابليون.

الإجابة مفكراً ... فى هذه المنهة الحائلة تقرر مصير القرن التاسع عشر بأكمله ، فلو كانت لهذا القائد الشجاع فى ميدان الحرب شجاعة معنوية، لو أنه وثق بنفسه ، لو أنه أهاب بعزمه واتبع هاتف إحساسه ، لتغير مجرى التاريخ ، ولكن التابع المطواع يصم أذنيه عن نداء القدر ، ولا ينصت إلا لنداء متبوعه .

أجاب فى حزم : « لا ... فإن أمامنا مهمة محددة . هى اقتفاء أثر البروسيين ، فلا يمكن أن نحيد عنها ، هذه مشيئة الإمبراطور ، فكيف نخالفها ! » . وأبلس الضباط على مضض . وهل كانوا يستطيعون غير الصمت ؟ ومر الزمن . وأفلتت الفرصة بغير عودة . وهكذا تقرر فوز « ولنجتون » .

واصلت الكتيبة المسير . وبدأ القلق ينتاب «جروشى». إنه لايجد للبروسيين أثراً ، فأين يكونون ؟! ألا يجوز أن يكونوا قريبين من الموقعة وفى طريقهم الآن إليها ؟ ألا يكون الإمبراطور محرجاً ؟ وساورت القائد المخلص الهواجس . وازداد قلقاً واضطراباً كان يرى الفرصة مازالت مؤاتية . فالفرسان يستطيعون الوصول إلى «واترلو» فى الميعاد المناسب . ولكن الخواطر المتباينة تقسمته ، وزاده القلق تردداً ، وحال بينه وبين اتخاذ القرار الجرىء الحازم ، فجعل يتلفت لعله يرى رسولاً آتياً من قبل رئيسه يحمل له الأمر بالرجوع إليه . ومر الوقت وهو لايزال يمنى النفس بمجىء الرسول .

كان « نى » فى هذه الأثناء يقذف بجبابرته إلى الجحيم المستعر ، ولا يتراجع عنه إلا لينقض عليه بعزمة متجددة . كر على التل المنيع

أربع كرات . وأخطأه الموت إذ كاد يصيبه ثلاث مرات فقد أصيب تحته ثلاثة جياد الواحد تلو الواحد وهو يواصل الهجوم. وبينما الموقف على هذه الحال من الحرج . إذ رأى نابليون فى الأفق الشرق رقعة سوداء ، فأسرع قلبه فى الوجيب وسائل نفسه : أهو «جروشى» يبادر لنجدته ؟ ولكن الشواهد كانت تدل على أن البروسيين هم القادمون . وكان لابد للفرنسيين من القيام بعمل حاسم قبل أن تصل النجدة إلى «ولنجتون» . فأهاب «نى» بفرقة الفرسان المذخورة للهجمة الفاصلة . وارتمى بها على خصومه . فنالت سيوفها . منهم أى منال ، وشطرت جيشهم شطرين . فتراخت أعصاب المدافعين . وكاد زمام الموقف يفلت من أيديهم ، ولكنهم ظلوا يثابرون مثابرة الأبطال . وتقدم حرس نابليون ذو الشهرة الخالدة فى أثر الفرسان ، وصعد منه عشرة آلاف مقاتل فى التل الرهيب . وتساقط الصرعى منه زرافات ، ووصل السالمون إلى صفوف أعدائهم الأولى ، فحطموا السدود والدروع ، وفتكوا بجنود المدفعية . وأوسعوا خصومهم ذبحاً وإثخاناً . ولكن هؤلاء كانوا يرون « بلوخر » آتياً لشد أزرهم ، وما كان عليهم إلا أن يجلدوا ويصمدوا بضع دقائق أخرى ، فيميل النصر فى كفتهم . وكان كل من بلوخر ونابليون ينصت إلى دقات ساعته. ويعيد النظر إليها كل هنيهة. كان النصر رهيناً بالثبات دقائق أخرى معدودات . وأى نصر كان المنتظر !! نصر ترتقبه الإنسانية كلها واجفة هالعة .

وأخذ الجزع ينال من نابليون . وتصعد الغضب فى محياه وظل يزمجر حانقاً : « أين «جروشى» ! وماذا يصنع الآن ؟! » وجعلت

طلائع البروسيين تقترب من الميدان . وسرى الجزع إلى باقى القواد الفرنسيين . فتخاذلوا ، إلا « نى » العنيد الذى بقى يقاتل كالمحموم ، ويحث رجاله على موالاة الهجوم . وضعفت مقاومة الإنجليز حتى كادوا يستسلمون . ولكن هجوم الفرنسيين ضعف كذلك حتى لم يعد فعالا : وصار الفريقان كالمصارعين الذين أنهكهما الصراع . فثقلت على أعضادهما الحركة ، وعجز كل منهما عن تسديد الضربة القاضية .

ولكن حدث فى هذه الآونة الخطيرة ما لم يخطر ببال . حدث ما بعث آمال نابليون من مرقدها . فقد صوبت الكتيبة المقبلة من الشرق مدافعها إلى التل وأطلقتها على الإنجليز . جاءت النجدة إذاً للفرنسيين . فصاح نابليون طروباً : « ها هو ذا « جروشى » فى النهاية » .

اطمأن على جناح جيشه الأيسر ، فجمع فلوله وأمرها بالانضمام إلى الجيش المهاجم ، وصوب ضربته القاصمة إلى قلب خصومه . ولكنه سرعان ما تبين ضلاله ، فانهارت آماله وافترسه القنوط إذ كان البروسيون هم القادمون . وكانت مدفعيتهم قد أخطأت فى إطلاق مدافعها على الإنجليز . وحرص ولنجتون على ألا تفلت الفرصة من يده . فوقف على قمة ربوته المنيعة ، ورفع قبعته ولوح بها فى الهواء ، ثم مال بها ناحية الفرنسيين . فأدرك جيشه معنى إشارته ، وأدرك أن النصر فى متناوله ، فجمع شمله ، وعقد عزمه ، وشد الأمل عضده ، فنزل إلى عدوه والتحم به ووصل الفرسان البروسيون فى هذه الأثناء ، فاقتحموا الميدان ، وزحزحوا الفرنسيين من معاقلهم ، ثم قذفوا بهم إلى الوراء ، ولم يعد أحد يشك فى العاقبة . فصاح بعض الجازعين : « النجاة لمن استطاعها » .

عبارة مسمومة تبث الهلع فى القلوب . وما رددتها الأفواه الصارخة حتى ألقى كل فرد من الجيش المنهزم سلاحه ، وجرى هائماً على وجهه . وجرف سيل الهاربين الوجلين كل ما صادفه فى طريقه ، واختلط جمعه فلم يعد هناك قائد ومقود . ولم تعد رعية وإمبراطور ، وإنما تعلق كل واحد بالحيلة ، وراح يتلمس وجه النجاة . وإذا بسوء تصرف قائد ضيق الذهن ، يظن أنه يؤدى واجبه ، قد أودى بجيش نابليون العجب : ذلك الجيش الذى قضى عشرين عاماً لم يعرف أثناءها غير الظفر . ذلك الجيش الذى أرهب الأباطرة والملوك ، وقلب الحكومات وثل العروش . ولم يأمل أحد أن تستطيع أوروبا الخلاص منه على هذا الوجه ، فى ذلك اليوم السعيد الطالع .

انتشر النبأ فى البلجيك ووصل إلى مقاطعات ألمانيا ، وعبر البحر إلى انجلترا ، ودقت نواقيس الكنائس ، وهبت الشعوب فرحاً ، ولم يبق أحد يجهله إلا فرداً لا تزيد المسافة التى تفصله عن « واترلو » غير عشرة أميال . هو « جروشى » الذى ظل متنقلا من قرية إلى قرية يتقصى أخبار البروسيين كان يسمع دوى المدافع وبغالها تصيب سويداء قلبه . وما سمعت حتى ازداد قلقه . ازداد تحرقه إلى معرفة ما حصل . وفى صباح اليوم التالى التقى بمؤخرة الجيش البروسى المرتد من ميدان القتال . فانقضت كتيبته عليها ، وشفت منها على مضض الانتظار غليلها ، ومزقتها شر ممزق . وكأنما كان « جيرار » على بينة مما حدث . فأبى الحياة وألقى بنفسه بين نيران المدافع حيث لقى حتفه ، وماذا يفيد هذا الانتصار بعد ما صمتت المدافع فى ميدان « واترلو » ؟! .

أخذ «جروشى» يرقب الأخبار متنقلا كالتائه من قرية إلى قرية، حتى جاءه فارس من ضباط القيادة الفرنسية، وترجل وهو يلهث، فاندفع إليه الضباط يستقون الأخبار. وما قال وهو مكفهر الوجه بأنه لم يعد هناك إمبراطور، ولم يبق لفرنسا جيش وبأن الكارثة عامة والطامة كبرى، حتى أنكر الجمع قوله أول الأمر، وحسبوه منتشياً أو مخبولا، ولكن الحقيقة الكريهة لم تلبث أن تكشفت، فامتقع وجه «جروشى» واستند إلى سيفه، وأخذ جسمه يهتز من هول ما سمع. أدرك أنه سبب الكارثة التى زعزعت أركان فرنسا، ولكن المرءوس المطواع لم يلبث أن صار بطلا فى هذه الساعة العصيبة، واعترف فى شمم بأن مسئولية الكارثة تقع عليه وحده دون غيره.

وسار فى صمت مهيب، وتناهبت روحه آلام عنيفة بدا أثرها فى وجهه المتجهم، فلم يجرؤ أحد على شفاء غليله من هذا الشيخ المعذب بكلمة نقد أو تسفيه، ومشى الجمع وراءه واجماً. وتجلت كفاءة هذا القائد القادر وهو يقود جنوده إلى وطنها، إذ كان جيش أعدائه الذى يفوق كتيبته عدة وعدداً أضعافاً مضاعفة، قابعاً له فى الطريق، حائلا بينه وبين بلوغ قصده، فعرف كيف يغرر به ويفلت منه بمناورات حربية ماهرة تشهد له بالقدرة النادرة.

ظهرت صفاته الحربية الممتازة حينما اعتمد على نفسه، ولم يدن بالطاعة لغيره، بالرغم من أن فرنسا انتخبته بعد ذلك ماريشالها الأول. فقد ظل على خزيه من الخطأ الذى ارتكبه يوم نكبة واترلو.

ودافع عنه بعض المؤرخين. والتمس له العذر فى اختيار الموقف

الذى اختاره يوم المزعة الكبرى ، وارتكن إلى أن نابليون ناط به مأمورية معينة . فكان عليه أن يقوم بأدائها من غير تفريط . ومن غير أن يفكر فى إهمالها والارتداد لنابليون والانضمام إليه فى كفاحه ضد ولنجتون . ولكن هذا الدفاع كانت تكون له وجاهة لو أن جروشى نجح فى أداء مأموريته . لو أنه استطاع الحيلولة بين بلوخر ووصوله إلى نابليون . أما وقد فشل فى ذلك فلا عذر له . كان عليه أن يبث الأرصاد ، وأن يبقى على صلة دائمة بالجيش الرئيسى . كان عليه أن يتخذ كل حيطة ويمنع البروسيين على أية صورة من التسرب إلى الإنجليز .

والتاريخ عملوء بلحظات حرجة فاصلة لا تغنى لديها الصفات التى يتحلى بها الإنسان الممتاز من شرف واستقامة وثبات وطاعة ، وإنما تتطلب الشجاعة المعنوية والإقدام الجرىء والإلهام والثقة ، وترفض كل تردد أو إحجام .

كشف كنوز ألدورادو

الزحف إلى الذهب

إذا ساءت حال إنسان فى بلده ، وأدى به الضيق إلى تنكب الطريق القويم ، ودفعه إلى استباحة الجرائر والمعايب ، ثم صحا ضميره من سباته ودعاه إلى البراءة من ماضيه ، والتكفير عما فرط منه ، وتقويم مازاغ من أمره ، فهو لا يلجأ فى أكثر الأحيان إلى إرادته يستنجد بها ، ولا يعقد عزمه على الثبات لنزعات نفسه . وإنما يهتف به هاتف يغريه بالفرار من موطنه والالتجاء إلى بلد بعيد ، وإلقاء مثالبه وجرائره وراءه ، ويحسب أن تغير ما بنفسه لا يتم إلا بتغيير موطنه ، وأن البلد الجديد سوف يهىء له حياة جديدة ، ويطهر نفسه من أوصاب ماضيه .

رحل « جوهان أوجوست سوتر » من بلدة « رونتبرج » مدفوعاً بذلك الدافع ، بل غادر أوروبا بأمرها قاصداً إلى أمريكا ليقيم المحيط الواسع حائلا بينه وبين حياته القديمة المهجورة . وركب البحر حوالى عام ١٨٣٤ ، (وكان يومئذ فى سن الثلاثين) تاركا وراءه زوجة وأطفالا أربعة . وانتهى به المطاف إلى مدينة « نيويورك » حيث زاول عدة مهن لم يطمئن إلى واحدة منها . وضاقت به المدينة الفسيحة . وبرم بصخبها وضوضائها ، وتاقت نفسه الصديع إلى الريف وأهاب به جمال الطبيعة وهدوء الخلاء . فانتقل إلى « ميسورى » واتخذ الفلاحة مهنة ، واستطاع بعد جهود يسير أن يقتنى مزرعة تكفل له معاشاً ميسوراً .

سمع الناس يتناقلون أعجب الأحاديث عن بلاد الغرب ، ورأى التجار يفدون من تلك الأصقاع النائية المجهولة . ويصفون مناظرها الرائعة . ويذكرون تراءها الطبيعي المهمل . فأخذ روحه القلق يحن إلى المجهول، ويتوق إلى اجتياز المفاوز الشاسعة المأهولة بالهنود الحمر، والجبال السامقة المكللة بالعشب . وما الذي يعوقه عن بلاد الغنى والجمال ؟ إنه لم يهجر وطنه وأهله ليعيش وسطاً بين الغنى والخصاصة وما هي فرصة الإثراء مؤاتية . فلم لا يقدم ويحقق أمانيه ويعود سيداً غنياً مهيباً إلى زوجه وأولاده؟

باع مزرعته وصرّ ثمنها وانتظر أول ركب متجه صوب الغرب لينضم إليه . وفي يوم من أيام عام ١٨٣٨ استقل مركبة كبيرة تجرها الثيران، وغادر البلد في صحبة ضابط وسيدتين وخمسة مبشرين، وتنفس الصعداء إذ انبسط أمامه الفضاء الممتد امتداد الأبد ، وبهر جمال الطريق المسافرين ، وطال السفر وأخذوا يعتادون المناظر المتشابهة حتى ملوها . وظلت الجبال ترفعهم والوهاد تضمهم ، والسهوب تطوى لهم حتى شفهم الملل والكلال . ووصلوا بعد ثلاثة أشهر انقضت على هذه الرحلة الشاقة الجميلة ، إلى قلعة « فان كوفر » . وماتت إحدى السيدتين من جهد السفر. وكانت بلدة « كوفر » مقصد سائر المسافرين. فاضطر « سوتر » إلى مواصلة الرحلة بمفرده . وعبثاً حاول رفقاء الطريق أن يستبقوه معهم . وكم زينوا له المعيشة في مدينتهم . وكم حذروه أخطار الرحيل بمفرده إلى الأقطار النائية الموحشة . ولكن بلاد « الدورادو » كانت شغله الشاغل . وكان كلفه بها قد جرى في

دمائه . فركب لها البحر . ثم قطع فى سبيلها جانباً كبيراً من «ألاسكا» على ساحل المحيط الهادى . وتجشم السرى ، وعانى الطوى ، حتى وصل إلى ثغر بسيط قائم على المحيط ، تائه بين صحراوى الأرض والبحر ، يدعى «سان فرنسسكو» . وليس بين ذلك الثغر القديم وبين مدينة «سان فرنسسكو» المزدهرة فى هذا العصر وجه للشابهة . فقد كان فى ذلك العهد موطن بعض صائدى الأسماك ، تابعا لولاية «كاليفورنيا المكسيكية» التى كانت أخصب ولايات القارة الجديدة تربة ، وأغناها موارد طبيعية .

ما جال «سوتر» فى تلك البقاع . ونزل وادى «سكرامنتو» ورأى الأشجار الباسقة والأعشاب الكثيفة حتى وثق من خصوبة تلك الأرض البكر . وأيقن أن قطوف آماله دانية . وأنه لا يستطيع أن ينشىء فى تلك الربوع مزرعة مثمرة فحسب . ولكنه يستطيع أن ينشىء مملكة مترامية الأطراف ينصب نفسه عليها ملكا .

وعاد من جولته جذلا راضياً . وقابل حاكم الولاية ، وصارحه بما اعتزم من وضع يده على وادى «سكرامنتو» وتمهيده للزراعة والاستغلال . فوافق الحاكم على المشروع ووعد برعايته وتأييده . ونشط «سوتر» للعمل ، فاستأجر عمالا وطنيين ، واقتنى خيولا وماشية وآلات تجارة وزراعة ، وسار إلى بلده الجديد على رأس موكب كبير قوامه ثلاثة أتباع من الأوربيين ، ومائة وخمسون خادماً وطنياً ، وثلاثون عربة محملة أنواع الميرة والذخيرة والآلات المختلفة ، وخمسون حصاناً ، وعـــدد وافر من البغال والثيران والبقر والخرفان . وحط

الرحل على شاطئ نهر مسجور . حيث قامت المستعمرة الجديدة التى أطلق عليها « سوتر » اسم « هلفسيا الجديدة » تخليداً لذكرى بلاده العزيزة عليه .

أشعل النار فى الشجر . فاندفعت ألسنتها مع الرياح والتهمت الغابات الشاسعة ، وانكشفت الارض بهذه الطريقة الهينة منبسطة صالحة للزراعة . ودار العمل . فقامت المنازل الخشبية وتكاثرت ، واتسعت رقعة الارض المزروعة ، وتوالدت السوائم وتضاعفت ، وأثمر المجهود المبذول ، وأربى نجاحه حتى جاوز برج الأحلام . ولكن «سوتر» لم يشبع ولم يهدأ ، وواصل الجهاد . فجاء بأشجار الفاكهة من البلاد النائية ، وزرع منها مساحات مديدة ، وجلب أحدث الآلات البخارية المعروفة ، إذ وجد الأيدى العاملة واليم لا تكفى العمل الكبير ولا تسعف ، وأثث منزله برياش فاخرة جلبها من باريس ، ودفع عن كل شبر من أرضه غارات الهنود الحمر واللصوص الطامعين فى ماله ، ولم يمر على هذه الحال عشرة أعوام حتى صار من كبار الأثرياء ، وذاع اسمه بين بيوت المال الكبيرة فى أوروبا ، وتوهم أن العمل إذا سار على هذا المنوال من التقدم والازدهار ، فلن يلبث أن يصير أغنى رجل فى العالم ، ولما استراح إلى هذه الآمال عاودته بعد أعوام الوحدة الطويلة ذكرى زوجه وأولاده المهجورين فى أوروبا ، فكتب لهم يدعوهم إلى اللحاق به .

* * *

فى ليلة من ليالى يناير سنة ١٨٤٨ جاء « جيمس ميتشيل » النجار إلى سيده « سوتر » ممتقع اللون مضطرباً ، وقدم له حفنة من التبر

المخلوط بالتراب، وأخبره فى صوت متهدج بأن بريق هذا المعدن الوهاج خطف بصره أثناء قيام العمال بحفر قناة فى مزرعة «كولوما» . واحتبست أنفاس «سوتر» واختلج لشدة وقع النبأ . ولم ينتظر الصباح لينتقل إلى تلك المزرعة النائية ، بل جرى إلى عربته فى غير وعى، وركبها إليها غير عابىء بهول الظلام وعصف الريح فى تلك الليلة الشاتية الداجية ، وطار النوم من عينيه ، ولم يكف أثناء الطريق عن مناجاة نفسه : سيصير إذاً أغنى رجل فى العالم . بل سيصيب غنى لم يصبه أحد قبله ولن يصيبه أحد بعده . فمن ذا الذى يملك أراضى شاسعة كأراضيه ؟ وها هى هذه الأراضى تحوى تبراً وهاجا ؟ من الذى يتدفق الذهب من بين أصابعه هذا التدفق؟ هل من شك فى أنه أغنى أغنياء العالم؟

وصل إلى «كولوما» فى الصباح ، وأسرع إلى الكنز المسحور . وفتح العمال سدود القناة فتدفق منها الماء حتى ظهر قاعها الرملى . وانحدر «سوتر» إليه ، وأخذ منه حفنة ما تأملها فى كفه حتى تلألأت ذرات التبر الخالص . وتلفت حوله فرأى رجاله متكأكئين عليه يستطلعون رأيه فيما رأى. فلم يحاول تمويه الحقيقة، واستحلفهم بشرفهم أن يكتموا الأمر حتى يغربلوا التبر وينقلوه إلى مكان أمين ، ووعدهم بالجزاء السخى فى حالة برهم بيمينهم .

ثم عاد إلى عربته . واستوى فيها ساهماً . وظهرت عليه سيما الجد والوقار . وقفل راجعا إلى داره . وطال به الطريق . وأبطأ الزمن . وافترست روحه أطماع عنيفة لا عهد لإنسان بها . وعاد إلى مناجاة نفسه : أهذا الكنز ملكى حقا ؟ هل أنا أغنى أغنياء العالم ؟ ؟

ولكن هل قدر له حقا أن يصبح أغنى أغنياء العالم؟ لا . بل أشقى من فى الوجود ، وأشدهم فقراً ، وأولاهم بالشفقة والرثا .

حدث له مالم يحدث لغيره من الناس . وقع ما لم يقع نظيره فى التاريخ . فقد ذاع خبر منجم الذهب ، وهل يمكن أن يبق مثل هذا النبأ مكتوما ؟ تناقلته الألسنة ، وانتشر انتشار البرق فى سهول سكرمنتو ، فجن جنون القوم ، واندفع خدم «سوتر» وصناعه وزراعه إلى «كولوما» تاركين خلفهم أعمالهم وصناعاتهم ومهنهم ، حاملين ما حصلوا عليه فى لهفتهم وعجلتهم من غرابيل وأوعية لغربلة التبر وحفظه ، وفى ساعات قصيرة ، أمست مزارع «سوتر» الآهلة قاعا صفصفا . وتلف أكثر ما فيها ونفق . فالبقر الحلوب لم تجد من يحلبها ، فانتفخت ضروعها حتى تفزرت . وجاءت الماشية فحطمت قيودها ، وجرت وراء أكلها فى الحقول ، فدهست الحرث وأتلفته . وتعطلت مصانع الجبن وآلات الفلاحة والرى . وفسدت الأنبار ، وعم الخراب .

ولم يقف نبأ العثور على الذهب عند حدود كاليفورنيا ، بل تعداها إلى الولايات المجاورة ، ثم شغل جميع أنواع المواصلات فاهتزت به أسلاك البرق ، وجرى به سعاة البريد ، وتناقله الراكب والراجل ، وطوى البلاد واجتاز البحار ، ووصل من أميركا إلى أوروبا . فبدأ الزحف العام إلى الذهب . وتجمع الناس من الشرق والغرب ، ومن كل حدب وصوب ، من كل ضارب فى الأرض بقدميه ، ومن كل فارس أو راكب عربة ، وانقضوا على «كولوما» فى صفوف متراصة متسابقة لا ترى العين آخرها .

وتوزعت هذه الجموع المحتشدة ، هذه الأمم المنوّعة الأجناس ، المختلفة الأشكال والألوان ، الناطقة بكل لسان ، فى ضياع « سوتر » ومنازله، فاكتسحتها فى طريقها ، ولم يردعها رادع من قانون،أو وازع من ضمير ، أو احترام حق ، أو عاطفة إشفاق ورحمة . بل استماتت فى سبيل الوصول إلى الذهب ، غير معترفة إلا بحق القوة والغصب ، أو خاضعة إلا لعاطفة الأثرة والجشع .

نزل هذا الجمع ربوع « سوتر » عنوة واقتداراً ، واحتلها احتلالا ، وقطع شجر الفاكهة ليبنى منها منازل تؤويه ، واقتحم المخازن فنهب ما تحتويه من فاكهة مجففة وسمن وحَب ، وذبح الماشية والتهمها ، وشق وجه الأرض حفراً كأنما هى أرضه ، ونقّب عن الذهب فى كل مكان، وقلب كل حجر ومدر ، وعاث فى الربوع المخصبة حتى أجدبت .

ولم يقف الهرج والمرج عند حد . بل ظل الخطب يفدح، والكارثة تتفاقم ، فقد تألفت الشركات لتوفير وسائل جديدة للنقل . وأخذ بعضها فى مد سكك حديدية من شرق الولايات المتحدة لغربها ، وفى بناء سفن تدور بركابها حول رأس هورن، وصار لاسم « الدورادو » وقع كوقع السحر . ومرت الأيام وسيل أولئك الوفود يشتد ، حتّى خشيت الدول أن تتحول رعاياها إلى غرب أمريكا . وتترك أوطانها خاوية على عروشها . وانقلبت الهجرة إلى غزوة استباح فيها الغزاة البلاد المغزوّة . فاغتصب أغرباؤهم اراضى « سوتر » ، وأخذوا يبيعونها لضعفائهم، كأنما هى حلال لهم . وقامت على أنقاض « سان فرنسيسكو » — ذلك الثغر القديم الذى سبق لحكومة المكسيك أن نقلت إلى

« سوتر » حق ملكيته وملكية الأراضي المحيطة به — مدينة عظيمة زاهرة . وضاع وسط طوفان القاصين اسم « هيلفيسيا الجديدة » كما ضاع حق مالكها .

حاول « سوتر » الغبين أن يشارك القاصين فى الحصول على شيء من تبره الدفين . وطلب عون أتباعه القدماء . فازوروا عنه وأهملوه ، ولم يهتم أحد منهم إلا بشأنه . وضاع المسكين فى معمعان النهب والسلب . وهجر أراضيه وهو يستنزل اللعنة على الذهب ويوم ظهوره فى قاع الجدول المشئوم . ولاذ بمزرعة نائية مهجورة صفر اليدين . يكاد يستجدى السابلة . فصار مثل « ميداس » الذى اختنق بالذهب الذى تمناه .

ولحقت به فى ذلك الأوان زوجه وأولاده . وكأنما جاءوا بالعهد القديم وما اشتمل عليه من إملاق وشقاء . ولم تلبث الزوجة المسكينة أن لقيت حتفها من شدة حزنها على النعيم المفقود . ولم يطل عهد النكد والضيق . إذ وجد « سوتر » فى أولاده شبابه المتجدد . واعتمد على سواعد أولئك الفتيان الثلاثة فى إدارة مزرعة جديدة . واستعان بأعضادهم القوية على حرث الأرض وتربية الماشية . ولم يلبث اليسر أن آتاه بعد العسر ، بفضل خبرته ومثابرته وخصوبة أرضه .

• • •

انسلخت كاليفورنيا عام ١٨٥٠ من المكسيك ، وانضمت إلى حكومة الولايات المتحدة ، وكان لمنجم الذهب الفضل الأول فى هذا التغيير السياسى . لأن المهاجرين من ولايات الغرب أربوا على عدد القاطنين

الأولين فصارت أكثرية السكان منهم ، وآثروا الانضمام إلى بلادهم الأصلية . وسارعت حكومة وشنطن إلى القبض على ناصية الحال فى تلك المقاطعة الهائجة المائجة . وقضت على الفوضى ، فاسترد القانون سلطانه . وتوطدت دعائم النظام ، وخفت وطأة حمى الذهب .

وما فتحت محكمة «سانفرنسيسكو» أبوابها حتى كان «جوهان سوتر» أول عميل من عملائها . ادعى أنه مالك المدينة وتخومها وضواحيها وما جاورها من البساتين والحقول الممتدة حتى سفوح الجبال وقاضى عشرات الآلاف من الملاك مطالبا برد ما اغتصبوا من أملاكه ومن تبر مناجمه ، وبتعويضه عما تلف من مصانعه الكبيرة وعصور لاته الوفيرة ، وبساتينه الزاهرة ، وسواقيه التى لا تعد . وأرسل ابنه الأكبر «أميل» إلى وشنطن ليدرس القانون ، ثم يباشر بنفسه هذه الدعوى الكبرى ، حتى يأمن خيانة المحامين ، وطالت إجراءات التقاضى ، واستمر نظر الدعوى أربع سنوات .

وفى ١٥ مارس سنة ١٨٥٥ صدر الحكم فى الدعوى . وجد «طومسون» القاضى العدل الذى لم يستخفه وعد ، ولم يرهبه وعيد ، أن «سوتر» محق فى مطالبه ، فقضى له بها . فانتعشت الآمال بعد مواتها ، وإذا بالحظ يعود إليه بعد النحس ، وإذا بالأمل فى الغنى يرجع بعد اليأس منه ، وإذا به يقترب من هدفه .

عاد قلبه إلى الخفوق ، وأعصابه إلى الاختلاج . سيغدو فى هذه المرة أغنى أغنياء العالم بغير منازع ... ولكن هل يرضى القدر بتحقيق هذه الأمنية الكبرى ؟

أغنى أغنياء الأرض ؟ ! كلا . . وكلا . . بل أشأم أهل الأرض طالعا ، وأنكدهم حظا ، وأكثرهم بلاء .

قوبل حكم القاضي «طومسون» بالسخط العام . وأخذ الجرى «من القوم يعلن تذمره . فثار العامة الذين اعتادوا منذ استوطنوا كاليفورنيا العبث بمبادئ القانون ، والاستخفاف بحرمة الحق والعدل . وحال التذمر إلى تمرد . وخطر لبعض الموتورين أن يتوجهوا إلى دار المحكمة محتجين . وساروا في مظاهرة ابتدأت هينة الخطب . ولكنها تطورت فصارت خطيرة غير مأمونة بمن انضم إليها من الرعاع الذين يحفلون أبداً بالقلاقل والثورات . ليرتى لهم الصيد في الماء العكر . وألقوا الوقود في النار بهتافهم الصارخ ضد الحكم الظالم . وبندائهم الحار بسقوط محكمة الطغيان . وهرع الناس إلى المظاهرة من كل ناحيـــة . وانضووا تحت لوائها . ودبت أعصابهم كهرباؤها ، واستفحل أمرها واستشرى حتى استحال ثورة عامة . وأخذت الجموع المتكاثرة تموج كالبحر الزاخر . وتهدر هدير موجه الثائر . وتتوق إلى العدوان والإتلاف . ووصلت إلى المحكمة فأضرمت فيها النار . وتهجمت على القاضي الوقور فأوسعته إهانة وضربا حتى كادت تقضي عليه . ثم غادرت المحكمة فريسة للنيران ، واندفعت إلى مزرعة «سوتر» الجديدة ودهمت في طريقها كل ما صادفها من ماله ومتاعه ، حتى بلغت داره فحاصرتها ، ومارآها الرجل وهي مقبلة حتى أدرك العاقبة ، وحاول الفرار هو وأولاده . فلم يقره هؤلاء على خطته ، إلا أصغرهم . وأبى الآخران إلا أن يصمدا للثائرين ويدافعا عن حق أبيهما ، ويقتسام

بوجهة نظرهما، وحسبا أمر إقناعهم سهلا ، إذ كيف لايقتنعون والحق ظاهر ؟ أليس لدى أبيهما حجة شرعية بملكية المتاع المتنازع عليه ؟ ألم يقم بإصلاح هذه الاراضى شبراً شبراً حتى أخصبت وأثمرت ؟ ألم ينفق شرخ شبابه ويستنفد قواه فى العمل الشاق المضنى حتى وطد هذه المستعمرة الزاهرة ؟ هل فقد هؤلاء القوم كل شعور بالعدالة ؟ هل أقفرت قلوبهم من كل عاطفة إنسانية ؟ هل لم تعد لهم ضمائر تبكتهم ؟

وجابه أحد الأخوين الجماهير الحانقة. وبدأ يؤيد حق أبيه ويسفه ثورتهم الآثمة . فضاع صوته بين الصخب الداوى . وأخذ الرعاع يرجمونه حتى سقط مضرجاً بدمه ، وخطا الحانقون على جثته وهم يقتحمون الدار . ورأى الأخ الثانى أن يموت بيده فانتحر ، وأشعل المهاجمون النار فى المنزل الخرب بعد أن نهبوا كل ما حوى من رياش ومال . وحطموا أثناء عودتهم كل ما بقى قائماً سليما فى المزرعة. وبقروا بطون شائها وماشيتها ، وغادروها يباباً بلقعاً . وكان «سوتر» قد تمكن من الهرب مع ابنه الثالث الذى لحق بعد ذلك بأخويه ، إذ مات غرقاً فى طريق أوبته إلى مسقط رأسه .

* * *

لم يشف «سوتر» بعد فقد زوجه وأولاده وماله من هول كارثة بقاء لياليه ، ولم ينهض عوض من كبوته . فقد قصم الهم كاهله. وطمس عقله الذى لم يبق منه إلا خلية واحدة سليمة تجنح إلى ناحية واحدة من التفكير ، إلا ناحية حقه المهضوم ، والقضايا التى سوف يرفعها لاستعادته .

وعرفت مدينة « وشنطن » شيخاً هرماً يرتدى « ردنجوت » رثاً وجوارب ممزقة ، ويطرق فى هيئته الغريبة أبواب المحاكم والمجالس النيابية والوزارات ، ويطالب بملايينه المغتصبة ... قضى ثلاثين عاماً يسعى وراء هذه الملايين من غير أن يكل أو ييأس ، وعرفه الناس باسم « الجنرال » . واتخذه كل هازل ماجن موضوع مفاكهته فى مجالس اللهو والمجون ، وكانت الحكومة تمنحه إعانة شهرية صارت من رزق المحتالين الذين أدخلوا فى روعه أنهم قادرون على تحقيق مطلبه العزيز المنال .

ظل هذا الصعلوك صاحب الملايين يجرى وراء سراب لامع لا يرى أو يسمع أو يعى غيره ، حتى توفى على عتبة مجلس النواب فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ ، وحمله بعض المارة جثة هامدة ذليلة وفى جيب ردائها حجة تثبت امتلاكه مدينة تعد عاصمة الولايات المتحدة الثانية ، وولاية هى أغنى ولايات الأرض .

كفاح بعثة سكوت

فى طريقها إلى القطب الجنوبى

لم يترك القرن الماضى لابتدى هذا القرن بقعة من مجاهل الأرض لم يطرقها أبطاله ولم يكشفوها ، غير القطبين الشمالى والجنوبى . فقد توغلوا فى مواطن القبائل المستوحشة ، ونقبوا فى الفيافى المأهولة بالوحوش الضارية ، فلم ترعهم الأهوال ، ولم تثن عزمهم الأخطار ، ولم ينكص أحدهم دون تحقيق بغيته ، حتى عرفت الإنسانية بقاع الدنيا التى تقطنها ، إلا بلاد الجليد العميم والليل المستديم ، فقد وقف مجهودهم عند تخومها ، ولم يجتزها منهم غير « أندرية » المستكشف السويدى الشجاع الذى حاول أن يحوم فوق القطب الشمالى فى منطاد يحلق فى سمائه ، ولكنه لم يؤب إلى ذويه ، وجهل الناس مصيره ، حتى عثرت إحدى البعثات بجثته مستقرة بين الثلوج ، سليمة رغم مرور السنين عليها ، كأنما دهمتها المنية يوم العثور بها .

ومنذ فجر ذلك العصر والقطبان محط أنظار الرواد . ولم يكن بد لإنجلترا ، وهى سيدة البحار ، وصاحبة اليد الطولى فى كشف مجاهل أفريقيا وآسيا واستراليا ، من منافسة غيرها فى مضمار الكشف الجديد ، وافتتح باب المنافسة الرحالة « شاكلتون » ، ولكن جهوده لم تتوج بفوز حاسم ، واضطربت أقطار بريطانيا العظمى إذ وصل إلى علمها نبأ تأهب أمريكا لكشف القطب الشمالى ، واستعداد كل من كابتين كوك وبيرى للرحيل إليه ، وأن مملكة النرويج تتشوف إلى

المحيط الجنوبى ، ويوشك الرحالة أموندسن أن يقلع كذلك بسفينة إليه.

وكبر الأمر لدى رجال البحر الانجليز ، ولم تعد المسألة فى نظرهم مجرد منافسة علمية ، وإنما صارت تمس شرفهم القومى ، وكرامتهم الوطنية ، وبينما عوامل القلق وحوافز الحماسة على أشدها فى بلادهم ، خرج كابتين سكوت من غمرة الخاملين ، وتقدم الصفوف ، وأعلن عزمه على إنقاذ شرف بلاده ، والسفر إلى طرف الأرض الجنوبى على أن يواصله فلا يعود أو يحقق مقصده .

وبالرغم من تطلع البلاد إلى كشف طرفى الكرة الأرضية ، لم يهتم أحد بتطوع « سكوت » الفدائى لإرضاء الشعور الوطنى ، لأن اسمه لم يكن من الأسماء الطنانة التى صار لها رنين عذب فى آذان الشعب ، ولم يتوقع أحد النجاح لهذا الضابط البحرى الذى لم يأت طول خدمته البحرية عملا ممتازاً برّز به على أقرانه ، ولم تعن الحكومة أو هيئة من الهيئات بمعونته ، فاضطر إلى الاعتماد على نفسه وخاصة أصدقائه فى توفير العتاد والرجال لإنفاذ مشروعه . ورغم اعترافه من مورد نزر استطاع أن يوفر لبعثته من أدوات اللهو والترف ، ومن مخترعات العلم الحديث ، ما يقرب لها أسباب النجاح ويهونها .

أعد لرحلتـــه سفينة شحنها بتلك الأدوات والآلات . فصارت كمعرض لآخر المخترعات العلمية . وبدا أن هذه المخترعات لم تكن أكثر فائدة ومتعة فى شتى الأحوال ، منها فى هذه الرحلة الخطيرة ، على أنه رغم كافة ما اتخذ سكوت ورفاقه من أهبة . فقد عانوا من

الشدائد ما لم يعانه مستكشف سواهم ، ولم تجهم حيطتهم المحبوكة من حكم قدرهم المحتوم .

بذل سكوت فى سبيل مشروعه غاية ما يستطيع إنسان بذله ، باع منزلا لم يكن يمتلك غيره ، وهجر زوجاً صبية جميلة وطفلا رضيعاً ، وخلفهما بغير مال ولا معين على ما كان يضمر لهما من حب وحنان ، ومن حدب وإشفاق ، وبالرغم من خطر الرحلة وجلال القصد منها ، وما بذل النازحون فى سبيلها من تضحيات ، وما عقدوا العزم عليه من عدم الوقوف من تضحياتهم عند حد ، والجود بأرواحهم عند الاقتضاء ، فقد أقلعت سفينتهم فى هدوء ، ولم يخطر ببال أحد أن يحضر لتحية أبطالها ، ويمن عليهم بكلمة تشجيع أو إيماءة توديع ، فزاد هذا الجحود من قدر عملهم الجليل ، وسجل التاريخ مأساة من مآسى إنكار الذات ، والفداء الصامت ، مما قل أن يحدث له نظير

ودّعوا شاطىء إنجلترا فى اليوم الأول من شهر يونيو سنة ١٩١٠ ، وكان الصيف فى إبانه ، وأديم الأرض متوج بالخضرة الناضرة ، فأشبعوا أعينهم من الألوان الزاهيــــة ، واستشعرت جلودهم دفء الشمس الساطعة ، وتزودوا من هذا وذاك لرحلتهم إلى بلاد الغيم والبرد والقحط ، وراقبوا اضمحلال منظر بلدهم بقلوب واجفة ، وعيون دامعة ، وجال فى أذهانهم هذا الخاطر المحزن المسقم : « هل تقدر لهم رؤية هذا البلد الجميل ثانية ؟ » .

وما انفردت بهم السفينة فى عرض البحر ، وشملهم جو من الإيمان

بعقيدة واحدة ، وعزم متفق . وغرض موحد ، حتى هان عليهم ما أصابهم من إهمال مواطنتهم وقشعت أشجانهم غبطة علوية يشعر بها كل مقدم على أمر كبير ، ومضطلع بأعباء واجب خطير .

وطالت رحلتهم أكثر من ستة أشهر لم يتوقفوا خلالها عند ثغر من الثغور . ووصلوا إلى صحراء الجليد المنبسطة الخالية من أية عشبة نابتة . أو واحة مخضلّة . أو عشب يعيش إلى جانب ينبوع متفجر . صحراء باردة أين من وخز قرها لفح الرمضاء ؟ ! وشيدوا منزلهم وسط جحيم الزمهرير ، ولم يضيّعوا وقتهم عبثاً ، فطاف فريق منهم تلو فريق فى تلك الأرجاء للاستطلاع . وانعقد مؤتمرهم بعد كل رحلة من هذه الرحلات لتبادل الرأى فى كل مايجد لهم ، وقام من بينهم علماء الجغرافيا والتاريخ الطبيعى وطبقات الأرض يحاضرونهم عن آخر ما وصلت إليه أبحاثهم بعد نجواهم المتصل ، وطاب لهم بعد جهد العمل أن يستمتعوا بنتج المخترعات الحديثة . فأنصتوا إلى الحاكى وهو يعيد إلى آذانهم أغانى مطربى بلادهم ، وعرضت عليهم « الكاميرا » صور المناطق الدافئة وهى تتألق فى نور شمسها الوهاجة ، ووجد هاوى المطالعة مكتبة منوّعة الكتب ، وكافحوا الملل ، واستحدثوا الطرب بالتسامر الممتع ، والفاكهة المطربة . ومر بهم الشهر تلو الشهر وهم على هذه الحال من البحث الجدى واللهو المباح ، وانتظروا حلول شهرى ديسمبر ويناير ليستأنفوا سيرهم إلى قمة القطب ، لأن الشمس لا تظهر هناك إلا خلال هذين الشهرين . ولكن شاء سوء طالعهم أن يقفوا على خبر زعزع آمالهم ، وزلزل طمأنينتهم وكاد يثنيهم عن عزمهم . فقد عثر فريق

منهم أثناء جولة من جولاته بخيام البعثة النرويجية مضروبة الأطناب فى موضع أقرب إلى قمة القطب من موضعهم بمقدار مائة «كيلو متر» . فأشرفوا على اليأس لولا أن عزيمة سكوت ثبتت فى مهب هذا النوء الطارىء . وكتب يومئذ فى سجل مذكراته اليومية «إلى الأمام فى سبيل شرف بلادى» على أن هذا الحدث قام فاصلا بين حقبة سعيدة سادها النعيم والأمل ، وحقبة أخرى ثقلت وطأتها على نفوس أولئك الفدائيين .

لم يعد مشتاهم مما يطاق ، وأحرج صدورهم ضيق منزلهم إما أقاموا به ، وسئموا الظلام الشامل والبرد القارس إما تجولوا فى أنحاء أرض الفناء ، ولم تعد أدوات لهوهم تلهيهم ، ولم يستخفهم طرب ، ولا شعروا برغبة فى السمر أو بمجرد الكلام ، ومرت بهم اللحظات كأنها أيام ، والأيام كأنها أعوام ، وصعد الدم فائراً إلى رؤوسهم ، وكاد السأم يفقدهم صوابهم ، وضاقت أزمتهم حتى كادت تنفجر ، وماحان وقت الرحيل حتى طربوا للخلاص من تلك الحال ، رغم ما كانوا يتوقعون وراء هذا الخطوة الجديدة صوب المجهول من أخطار جسام .

وانتظروا طلوع الشمس . وقضوا ليالى لم يكن لهم بمثل طولها عهد ، وأقاموا ربوة من الثلج ليرصدوا الشمس من قتها ، وتناوبوا مراقبتها أياما ، حتى إذا وصل إلى علمهم نبأ طلوعها ، هبوا من مأواهم وهرعوا إلى الربوة ، وشاهدوا قرص الشمس وهو يبزغ ، ولم يسطع ولم يتألق كعهدهم به ، ولكنه أطل ساجياً كالحاً ، ولم يصعد إلى كبد السماء ، ولكنه ظل يسبح إلى جانب الأفق ، ولم تتوهج أشعته وتدفىء

الجو الشاتى ، ولكنه أرسل ضوءاً كاسفاً بارداً كضوء القمر ، وصبغ هذا الضوء الفضى صفحة الجليد ، فبدت الأرض كأنها مكسوة باللجين الخالص . وتوهم القوم أنهم فى دنيا مسحورة .

ولم تكن لديهم مندوحة من الوقت ينفقونها فى تأملات شعرية . فإن أمامهم منافساً عليهم أن يسبقوه . وعهد الشمس فى تلك الأنحاء قصير . والطريق إلى غايتهم شاق طويل ، وانطلقت بهم السيارات ، وأعقبتها زحافات الجليد تجرها خيول وكلاب تحتمل الصقيع جىء بها من سيبيريا ، ولم يطل بهم السير حتى عجزت الآلات عن احتمال البرد ، وتعطلت السيارات فاستعاضوا عنها بالزحافات وخلفوها منفردة فى ذلك العراء الموحش ، ولكن خيول سيبيريا وكلابها أخلفت هى أيضا حسن الظن بها ، وضعضع البرد قوة احتمالها ، وحدّ من نشاطها . ولم يتمكن الراكب من قطع البون المقرر قطعه فى كل يوم ، واحتمل «سكوت» فوق عناء الطريق تنغيص المخاوف والوساوس .

وقسّم الطريق مراحل ، وقضى بأن يترك جانباً من الذخيرة فى نهاية كل مرحلة ليخفف الحمل وتتزود منها القافلة فى طريق الأوبة ، وكان الجمع ثلاثين رجلا . فتخلف بعد المرحلة الأولى عشرة منه . ثم تخلف عشرة آخرون . وماوصل العشرة الباقون إلى خط عرض ٨٧ . حتى اختار سكوت منهم أربعة لمرافقته إلى هدفه ... وتقدموا إلى الأمام خمسة أبطال حاولوا الوصول إلى غاية الأرض وغاية المجد . وخلّفوا زملاء يتلهفون على ذلك المجد الذى أوشك أن يكون فى متناولهم ،

ولكنهم كانوا رجال تضحية صامتة . كما كانوا رجال همة وطموح . فأذعنوا صابرين .

كان اختيار سكوت قد وقع على كل من بوارز Bowers وأوتس Oats وولسون Wilson وإيفانز Evans . وجد أولئك الخمسة في السير إلى الغاية المبهمة الغامضة ، وشعروا بمزيج من الزهو والرهبة ، ومن الاستبشار والقلق . ولكن عزمهم الوطيد لم يترك لهم مجالا للذبذبة والتردد . وتوهموا وهم في سورة الحماسة الا عقبة يمكن أن تعوقهم غير الموت . ولكن متاعب الطريق أخذت تتفاقم . وازداد البرد بازدياد قربهم من القطب ، وجمشت العواصف الثلجية جلودهم ،وكادت تودى بأبصارهم . وازداد الجليد صلابة ، فزلقت عليه أقدامهم ،وأدمتها أسنته المرهفة ، وأوشكت طاقتهم من نهايتها . وأخذت إرادتهم الجبارة تنحل . وبعد انقضاء أيام على هذا العناء المتواصل بدأت عقرب البوصلة تتذبذب معلنة اقترابهم من القطب ، فحركت هذه العقرب الدقيقة آمالا جساماً : وشدت العزائم الواهنة . ووالوا السير مستبشرين . ولكن تلك الدلالة السارة لم تلبث أن فقدت تأثيرها إذ لم يجدوا لها نتيجة . وخذلتهم قواهم من جديد وأنهكهم الإعياء ، ولا يشرح لنا حقيقة ما كابدوا خلال تلك الأيام السود ، وما عانوا من تعاقب اليأس والأمل . مثل مذكرات سكوت ، فإنها تنقل متتبعها إلى القطب فيخال أنه يرافق الأصدقاء الخمسة في تلك الأنحاء . ويتردد ترددهم بين الخوف والرجاء .

. تحدث فيها سكوت عن ظلال السحب القاتمة التي ضاعفت مشقة المسير . وعن احتجاب الشمس أحياناً وجثوم الظلام مما كان يقعدهم

أثناء النهار ، وعاقتهم هذه الحال عن اجتياز المسافات التى فرضوا على أنفسهم اجتيازها كل يوم . وخشوا أن يؤدى إبطاؤهم الذى لا حيلة لهم فيه إلى نفاد ذخيرتهم قبل التمكن من الوصول إلى هدفهم ثم الأوبة إلى سفينتهم . وكان سكوت يفرح لكل خطوة يخطونها ، ويحسب حساب كل خطوة لا تزال تحول بينهم وبين نهاية طريقهم . كتب فى مذكراته : «لا تزال مسافة مائة وخمسين كيلو متراً ممتدة أمامنا . فإذا لم تتغير هذه الحال خذلتنا قوانا» . وبعد أن قضى وزملاؤه يومين غائمين بجهد جرّوا فيهما أرجلهم جراً . كتب ثانية : «لم يبق أمامنا غير مسافة مائة وسبعة وثلاثين كيلو متراً . ولكنها ستكون منهكة شاقة» . ونمت كتاباته بعد ذلك عن هزة الفرح التى كانت تسرى فى كيانه كلما قربت الغاية . وجاء فى بعضها : «علينا قطع أربعة وتسعين كيلو متراً . فإذا عجزنا عن قطعها فقد وصلنا إلى تخوم الفوز» . وكتب يوم ١٤ يناير : «لم يبق أمامنا غير سبعين كيلو متراً ، إننا على مسيرة خطوتين من الهدف» . ثم أخذت الآمال تعمر قلوبهم الموحشة . وتقشع غيهب اليأس الذى غشيهم ، وبدأ لألاؤها يسطع بين هذه السطور : «لم يبق أمامنا غير خمسين كيلو متراً . مسافة ما أتعس قدرها الضئيل . لا بد لنا من الوصول مهما كلفنا الأمر» . وأسكرتهم نشوة الطرب . وخدّرت أعصابهم المجهدة . فلم يشعروا بألم البرد أو تعب المسير . ونسوا أموندسن وبعثه . إذ كيف يخطر ببالهم أن غيرهم يحتمل مثلهم هذا البلاء الذى ينوء به جهد الإنسان . ويجول فى تلك المجاهل التى لم يستنشق هواءها

مخلوق منذ بدء الخليقة . وكتب سكوت فى مفكرته بخط عريض: «منيهة حافلة !. إننا نكاد نصيب الهدف».

ولم يستغرقوا ليلتئذ فى النوم لشدة انفعالهم . وهبوا من مراقدهم مبكرين . وأخذوا فى السير وهم يتساءلون : كيف تكون قمة القطب ؟ هذه البقعة الثابتة التى لا تدور مع الأرض ؟ . وحفزهم الفضول فقطعوا أربعة عشر كيلو متراً فى الصباح ولم يعد لديهم مجال للشك فى النتيجة المرجوة ، ولا مسرب لليأس إلى قلوبهم الطروبة فلم يستريحوا ولم يتريثوا ، وأوسعوا خطام جذلين متفائلين .

ولكن حدث فى تلك الأثناء السعيدة ماأقلق بالهم، رأى «بوارز» عن بعد ذرة سوداء واضحة وسط الفضاء الناصع ، فلفت إليها نظر زملائه فوجموا ، ثم أخذوا يتعللون بالأحاديث ، فزعموا أنها قد تكون ظل سحابة أو سرابا من نوع غير مألوف وتقدموا مضطربين جزعين . وأخذت الحقيقة المريرة تتكشف لهم حتى سفر وجهها الدميم . فقد سبقهم المستكشف النورفيجى إلى الهدف المنشود . ولم يتخايل لهم غير علمه المعقود فوق ذلك الصقع النائى المشئوم .

هووا إلى حضيض اليأس بعد تحليقهم فى سماء الأمل ، وعانوا من مرير الشجن قدراً يكافىء ما تذوقوا من متع النعيم . تغلبوا على كافة الصعاب ، وذللوا شتى العراقيل . وعانوا من أنواع الآلام مالا عهد للإنسان به ، ووصلوا بعد مقاساة تلك الكوارث إلى ضالتهم المنشودة . ولكنهم رغم وصولهم إليها لم يحققوا — لنكد طالعهم — بعض تلك الأحلام التى حدتهم طوال طريقهم الوعر وبعدت بهم عن

الدنيا المعمورة ، وأفردتهم فى ذلك المكان المهجور الفاجع ، وعكف سكوت على قرطاسه وقلمه وبدأ الكتابة بهذه العبارة الوجيعة الصادرة من نفس صديعة . «وعلام كان كل هذا الجهد والعناء ؟! » ، ولم يصف قمة القطب بأكثر من قوله إنها لا تختلف عن سائر بقاعه ولا تتميز بميزة خاصة .

مرت على هذه البقعة ملايين السنين لم يجرؤ إنسان أو حيوان خلالها على الاقتراب منها ، وفى بحر أيام معدودة تعاقبت عليها بعثتان ، واستطاعت هذه الأيام المعدودة التى لا يقام لها وزن بجانب تلك الآباد أن تحقق مالم تحققه قوى الطبيعة الغاشمة ، استطاعت أن تحطم طموح الإنسان الجبار ، ووقف سكوت ورفاقه بجانب علم أموندسن ، ودارو ا بأعينهم فى تلك الأنحاء التى لم يفطرها الخالق لترتادها المخلوقات ، وشعروا بنوع غريب من ألم الفشل ، فقد وصلوا إلى هدفهم ولكنهم لم ينتصروا . وحققوا المعجزات ولم يفوزوا بفضل كبير أو صغير . ورغم أن أموندسن لم يأت أمراً لم يأتوه ، أو يحتمل من المصاعب مالم يحتملوه ، فإنهم تسابقوا فى مضمار له أصول شاذة وأحكام قاسية ، يفوز فيه الأول بكل شىء ، ويخرج منه الثانى صفر اليدين .

وما صحوا من نشوة أوهامهم ، وبطل سحر أحلامهم ، حتى هالتهم خطورة موقفهم وخارت عزائمهم أمام أخطار الإياب ، ولم يكتم «سكوت» شعوره . وكتب فى يومياته يندمر تحفة : «الموت تلفظ فرعاء»

وعادوا أدراجهم يتعثرون : وكان عليهم أن يقتفوا آثار الطريق الذى جاءوا منه لأنهم تركوا فيه ذخيرتهم مجزأة على مراحل ، فإذا

ضلوا عنه ماتوا جوعاً ودنقاً ، وصارت حياتهم رهينة بزوبعة تهب فتطمس معالم الطريق النفيسة ، وتبدلت حالهم فصاروا يكافحون فى سبيل البقاء بعد أن كانوا يكافحون فى سبيل المجد والعلاء . وفت فى عضدهم الوهم والرعب واليأس ، بعد أن كان يحفزهم الطموح والزهو وإرادة الانتصار ، ولم يجدّ لهم فى طريقهم المتشابه المملول أمر طريف إلا عثورهم على الزاد فى نهاية كل مرحلة . فكان توفيقهم إليه يبعث فى نفوسهم الكئيبة بعض الغلالة والبشر ، ولكن الطريق طال عليهم، وانسلخ اليوم يعقبه اليوم وهم بعيدون عن نجمة الأمان ، وعاندتهم الطبيعة الحانقة . فبعثت إليهم بالشتاء مبكراً ، وأخذ النهار يقصر حتى لم يعد يستغرق غير بضع ساعات . وبدأت العواصف الثلجية تتهددهم ولم يعد تعبهم محتملا حتى أوشكوا أن يستسلموا للقنوط ، ويفضلوا راحة الموت على متابعة المقاومة والمكابرة ، وانتظر كل واحد أن يبدأ غيره بإعلان عجزه . وأدهشهم أن تظهر على إيفانس — وهو أضخمهم جسداً وأصلبهم عضداً — أمارات العناء الشديد ، وأخذ يشير لهم من جسده إلى مواضع آلام بعضها حقيق وبعضها وهمى ، ثم أفزعهم أن تظهر عليه دلائل الجنون ، فالمسكين لم يحتمل كل هذه الأوجاع والمخاوف فطاش صوابه ، وفقد الرغبة فى الحياة ، وفى مقاومة الفناء، فدهمه الموت يوم ١٧ فبراير ، وودع زملاؤه جثته بين حزن باد وأنين مكتوم ، ودفنوها متصلبة متجمدة بين الثلوج .

ساروا مطرقين مهمومين . وكأنما كانت هذه الفاجعة فاتحة بؤس جديد . فقد وجدوا لدى وصولهم إلى محطة الذخيرة أن كمية الوقود

غير كافية . فاضطروا إلى التوفير منها رغم حاجتهم الماسة إلى الدفء .
ولم يحتمل أوتس المنكود هذا البلاء الجديد . ووقع بدوره فريسة
للزمهرير . إذ تصلبت رجلاه وتورّمتا ، وصعب عليه المسير فأبطأ فيه .
وأبطأ معه أصحابه . وكان لا بد لهم من التعجيل للوصول إلى المحطة
التالية قبل نفاد الذخيرة ، فحاول المسكين الإسراع . واحتمل فى محاولته
أمضّ الأوجاع . وأحس أنه مصدر خطر جدىّ لرفقائه . فرجا منهم
متوسلا أن يتخلوا عنه وينجوا بأنفسهم . ولكن أنى لهم أن يغدروا
بزميل عزيز ويغادروه على هذه الحال ؟ وانقضى ذلك اليوم القمطرير .
وخيم الظلام ، ونصبوا خيمتهم ، وانضووا تحتها . ولكنهم لم يسمروا
كعادتهم ، وإنما انتشر حولهم جو من الشجن الصامت ، واختلسوا
النظرات إلى صديقهم المصاب ، فوجدوه مكفهر الوجه واجماً ، وعجز
النوم عن مس أجفانهم ، وطلع النهار كاسفاً ، وبينما هم يستعدون
لمواصلة السفر ، سبقهم أوتس إلى ارتداء ملابسه ، واستأذنهم فى
الخروج والتغيب عنهم قليلا ، ولم تمر عليهم آونة ، طوال رحلتهم ،
آلم وقعا من تلك الآونة ، فإنهم فطنوا لما كان ينتويه ، ولم يجهل هو
وقوفهم على مقصده ، وتغافل الجميع عما يحدث تحت ستار التمويه ، ولم
يجرؤ أحد على رفع نظره إلى جاره ، وخرج المسكين متثاقلا ، فحبسوا
الدمع فى عيونهم الذابلة ، وتفطرت عليه أحشاؤهم الوالهة ، وشق
عليهم التزام صمتهم العميق ، وخروجه على هذه الحال دون أن يمد إليه
أحدهم يمينه لمصافحته ، أو يودعه بكلمة عطف وترفيه ، وماغادرهم حتى
التقت أبصارهم متسائلة فى جزع عما يصنعون ، وعقدت الحيرة ألسنتهم ،

ونكأ الإشفاق جراح نفوسهم ، وقبل أن يفيقوا من ذهولهم ، سمعوا طلق مسدس ، فقفزوا من مقاعدهم ، وهرعوا إلى مصدر الطلق ، ولكن المقدر كان قد نفذ .

أصبحوا ثلاثة فازدادت وحشتهم ، وضاعفت ذكريات أمس القريب تباريحهم، وحوّم حولهم خيال صديقيهم ، واستعادت بادرتهم نوادرهما المستملحة ، وعهد صحبتهما الأنيسة ، ولم يوفقوا إلى محو صورة جثتيهما الهامدتين من ذاكرتهم، وأرعبهم أن ينتظرهم مثل هذا المصير ، ولازمهم سوء الطالع ، فوجدوا مؤونتهم فى المحطة التالية قليلة أيضاً ، وبدأ جلَدهم النادر يخذلهم ، وشجاعتهم الفائقة تخونهم ، وأخذت دلائل الجزع الجدىّ تظهر فى مذكرات سكوت ، وامتلأت صفحاتها بمثل قوله : « لم نعد نستطيع احتمال هذه الحال ما دامت على هذا المنوال » أو قوله : « ليكن الله فى عوننا فإننا نبذل جهداً فوق طاقتنا » أو قوله : « هاهى ذى رحلتنا تنتهى بنا إلى خاتمة فاجعة » .

وتعلقوا فى سبيل بقائهم ببقية باقية من عزمهم المخذول ، وطووا مراحى البين الطويل ، واحتملوا تباطؤ اليوم فى إثر اليوم والبرد يزداد واللغوب يشتد ، ولا يظهر لطريقهم المتراخى آخر حتى حل بهم يوم ٢١ مارس المنكود ، فبينما كانوا على بعد عشرين كيلو متراً من موضع زادهم التالى ، إذ هبت عليهم عاصفة ثلجية بلغت من العنف مبلغاً استحالت عليهم معه متابعة المسير فظلوا فى خيمتهم ينتظرون سكون الزوبعة ، وانقضى اليوم بطوله والحال على أشدها ، ودرجة البرد أربعون تحت الصفر ، وأحسوا أن القدر يساجلهم عناداً بعناد ،

ويفوقهم قوة وعدة ، وأنه غلبهم فى هذه المرة على أمرهم ، وتجلت دلائل تسليمهم فى قول سكوت ولم يبق فى وسعنا إلا أن ننتظر معونة الحيه. وانتظروا طويلا بغير جدوى وأثارت محنتهم ذكريات وطنهم البعيد ، وأحبائهم النائين وعهدهم السعيد ، وبدا لهم الماضى مشرقا وهم وسط الضباب الشامل ، وازدادت ذكرى النعيم المنصرم بهجة إزاء البلاء الحاضر . وهاجهم الحنين إلى زوجاتهم وأولادهم ، وتاقوا إلى معاودة العيش الهنىء بينهم ، فعادوا إلى التعلل ببوارق الآمال، وتوقعوا الفرج وتعجلوه ، وثاروا على الزوبعة الثائرة ، واحتدموا غيظاً منها وتململا ، وتمردوا على القدر ولكن تمردهم لم يزده إلا كيداً ومناوأة ، وطالت العاصفة أياماً دون أن تستقر ، فانطفأ آخر بريق لآمالهم ، ولجأوا إلى راحة اليأس بعد عناء القلق ، وانكمش كل منهم فى ركنه ينتظر المصير الكريه، إلا « سكوت » الذى أكبَّ على أوراقه يدون خواطره الأخيرة ، فقد أبى أن يقضى نحبه دون أن يخاطب زوجه وأصدقاءه ومواطنيه ،كتب لهم رسائل وداع شهدت بفضائله الخلقية والنفسية الخارقة، اعترف هذا الرجل الذى كان يبدو جاف الطبع بأن قلبه كان يفيض بحب أصدقائه . ولكنه كتم عواطفه حتى لا يلزمهم مبادلته حبا بحب وتضحية بتضحية . . . وهو لم يكن ليعلن هذا السر الدفين لو لم يكن على قيد خطوة من الموت . وخاطب مواطنيه فأذكرهم واجبهم ، وحثهم على المضى فى أدائه مهما تحملوا فى سبيله من تضحية، ثم كتب إلى زوجته رسالة تضمنت شجناً مكظوما، وجلداً نادرا . أوصاها فيها خيراً بابنه ، وناشدها أن تحسن تهذيبه ، ثم قال :

«بمَ أحدثك عن رحلتي وعن خاتمتها ...؟ على أني أفضل ماحدث على انزوائي كسولا في ركن داري إلى جانب النار الموقدة» . وظهر من خط أسطره الأخيرة أن أصابعه بدأت تنوء بالقلم من فرط الإقواء وألم البرد ، وأنه ظل يكتب إلى آخر لحظة أسعفته فيها قواه ، وكتب على غلاف مذكراته . «أرجو حمل هذا الغلاف إلى زوجتي» ، ثم عاد فأضاف ... «إلى أرملتي» .

وفي نهاية أسبوع طويل عصيب مر عليهم وهم قابعون في ظل خيمتهم ، نفد زادهم فدخل كل منهم كيس مطاط ، واستكان فيه للموت ، مودعاً دنياه من غير جلبة أو ضوضاء ، مستريحاً بعد المدى ابتلاه من عناء ، ورنق في جو الخيمة صمت رهيب .

———

الرئيس ولسون

وسراب السلم بعد الحرب الكبرى

مرت على أوربا ثلاث سنوات والحرب فيها سجال ، والنصر بعيد المنال ، لا تكاد كفته تميل إلى جانب من المتحاربين حتى تعود فتميل إلى الجانب الآخر .

وبدا الخصمان قويين عنيدين ، يعجز كل منهما عن قهر خصمه ، ويأبى أن يقر بعجزه ، وظن العالم أن الحرب لن تضع أوزارها حتى تفنى أوربا .

وتتبعت الولايات المتحدة تلك الحرب القائمة وراء بحارها بقلوب واجفة ، إذ كانت تناصر إنجلترا ، لشدة القربى بينهما ، ولاتحاد لغتهما وتجانس ثقافتهما ، وتشابه نمط الحكم فيهما .

ولم تقف مناصرة الولايات المتحدة لإنجلترا عند حد التمنى والدعاء لها بالنصر ، وإنما أظهر جل شعبها رغبته فى خوض الحرب إلى جانب أصدقائه . ونشطت الدعاية لهذه الرغبة حتى عمت البلاد ، وكادت أمنية الشعب تتحقق لولا وقوف «وودرو ولسون» رئيس الولايات المتحدة فى سبيل تحقيقها .

كان الرئيس يدين بالديموقراطية ، كان من مبدئه احترام مشيئة الشعب ، والنفور من الاستبداد به ، ولكنه رغم تقديسه الحرية ، وإيمانه بحق الشعب فى توجيه سياسة بلده وفى تقرير مصيره ، ثبت له فى هذه المرة معارضاً ، وفرض عليه إرادته ، وحال بينه وبين الحلفاء فى

نضالهم . ولم يسلك هذا السبيل لأنه لم يشارك أمته فى ميولها ، أو لأنه لم يتمن انتصار الدول الديمقراطية . وإنما سلكه نفوراً من الحرب ، وخشية من عواقبها ، وصوناً لأمريكا من ويلاتها .

كان هذا الرئيس ، رغم هيمنته على أمته ثلاث سنوات وإرغامها على الإذعان لرأيه ، يعد بطل الحرية الأمريكية ؛ كان قبل احتراف السياسة عميداً لجامعة برنستون ، فلم يرض إذ ذاك عن جهود الطلبة أبناء الأثرياء فى سبيل تميزهم عن غيرهم ، وتكوين طبقة منهم لها حرمة ومكانة خاصة . ولم يكد يناهض مشروعهم ويعمل على إحباطه حتى وقف الآباء ذوو النفوذ يسندون أبناءهم ويؤيدونهم بجاههم ومالهم . وقام صراع عنيف بين العميد الديمقراطى وبين الأرستقراطية بكل حولها وطولها . وأسفرت المعمعة عن تشبث ولسون بوجهة نظره وتقديم استقالته .

ومن ثم ذاعت شهرته بين الجماهير ، وما قهره أصحاب الجاه والمال ، حتى نصره الشعب وانتخبه حاكما لولاية نيوجرسى ، ثم رئيساً للولايات المتحدة ، وقد ظل فى عهد حكمه هو هو عميد جامعة برنستون ، ينادى بالمســـاواة السياسية والقانونية بين أفراد رعيته ، كما نادى بها فى الجامعة بين طلبته .

ولكن بطل الحرية تنكر لها إبان الحرب الكبرى ، وتصام عن رغبات رعيته ، ولم يسمح لها بأن تشتط وراء أهوائها ، لأنه استهول تلك الحرب التى لم يسبق للعالم عهد بمثلها ، تلك الحرب التى سخرت كل ما استنبط العلم الحديث من مخترعات ومبتدعات ، فى سبيل التقتيل

والتمييز ، تلك الحرب التي لم يَصْلَ بنارها الجيش المحارب فحسب ، وإنما صليَ معه المدنيون من شيوخ ونساء وأطفال وعجزة ، تلك الحرب الهمجية التي انزلق إلى مهمعانها أكثر الدول الأوربية ، فكان على أميركا أن تتجنبها حتى لا تتحول إلى حرب عالمية .

ولم يعمل ولسون على خطته حول الحرب وحده ، وإنما كانت لأميركا سياسة تقليدية لم يشأ الحيدة عنها . كانت حكوماتها تدين بمبدأ مونرو ، مبدأ العزلة والاعتكاف عن العالم القديم ومشكلاته ، كانت تحسب الأمان في تجنب أسباب الشر والانزواء في دارها — مع أن مجابهة الشر أنجع في بعض الأحيان من انتظاره — كانت تَصِمُ ملوك العالم القديم ، وروساء دوله بأنهم يثيرون الحروب لتحقيق أطماعهم وترى أصحاب المصانع وأثرياء التجار يعملون على إذكاء لهيبها لاستدرار الأرباح الوفيرة ، وأن الشعوب تهدر دماءها رخيصة لإرضاء تلك المطامع الفردية . فعلام تسمح هي أيضاً لأبنائها يبذل أرواحهم في هذا السبيل ؟!

لذلك رأى ولسون — رغم عطفه على الدول الديموقراطية — ألا يدفع ببلاده إلى نزاع لاشأن لها به ، ولكن دائرة الحرب اتداحت وتموجت حتى أصاب رشاشها الشاطىء الأميركي . إذ أخذت الغواصات الألمانية تهاجم سفن التجارة الأميركية وتغرقها . وهاج هذا الاعتداء الشعب الذي كان من قبل متحفزاً لألمانيا ، ولكن ولسون لم يعبأ بهياجه ولم يذعن له . وأطمع سكونه البحرية الألمانية فضاعفت

حملها على سفنه ، وكبر الخطب وجلت الخسارة . ولم يعد من الميسور البقاء على سياسة العزلة والسكوت على هذا العدوان .

ولكن كيف يرجع الرئيس عن خطته ؟ كيف ينقض الرأى الذى طالما أعلنه ؟ كان لابد من التماس أسباب يمهد بها تغيير سياسته ، فاتخذ يوم نفسه بأن الحرب طالت حتى لم يعد السكوت عليها فى طاقة الضمير اليقظ ، وأن شقاء الإنسانية بها قد أربى حتى أوجب وضع حد لها ، وأنه إذا أمر بخوض غمارها فلن يرى إلى نصرة خصم على خصمه، وإنما يحارب الحرب ويطغى على الطغيان .

• • •

كانت الجيوش المحاربة قد أفرغت جهدها عندما أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ، فقابلت الشعوب المتحالفة التى برح بها الجوع والثكل واليتم هذا الحدث الخطير بضجة مدوية من الطرب الحماسى ، وغمر سيل الكتائب الأمريكية الموانى الفرنسية ، فازداد الجذل ، إذ استحال النبأ المبهج إلى حقيقة واقعة مرئية ، واستقبل القوم نصراءهم استقبالا هاتفاً عاصفاً ، وسارت صفوف المدد المتدفق من وراء البحار فى طرقات المدن الفرنسية بين عزف الموسيقى العسكرية وتهليل الشعب الطروب .

كانت آونة سعيدة انتعشت فيها الآمال بعد تضاؤلها ، واطمأنت الأعصاب بعد توترها ، وأشرقت وجوه الأهلين لإشراق وجوه الجنود الفتية المستبشرة ، وابتهجت القلوب لبهجة منظرهم فى ثيابهم الأنيقة ذات الحمائل الذهبية البراقة ، ونشطت العزائم لمظهر نشاطهم

المنطوى على العزم الموطّد والثقة الراسخة . مناظر طال عهد فرنسا بها . لأنها لم تعد ترى غير شراذم من جندها تبدو عليهم دلائل الوهن والخور بعد أن ثبط طول الجهاد همهم ، وشككهم فى عقبى النضال .

وخاض الجيش الاميركى المعمعة ، ولم يساعد الحلفاء بحسن بلائه فحسب ، ولكنه شدّ أعضادهم المحلولة ، وأرهف مضاربهم المفلولة ، وبدا لهم النصر كأنه فى متناول يدهم ، ولكن الأيام أعقبت الأيام ، والحرب ثائرة النقع ، والعدو يثبت ثبات المستميت .

وجاء ولسون إلى فرنسا ليشرف على جهود جنوده ، ويضاعف مسعاه فى سبيل السلام ، وما شاهد عناء الأمم المتطاحنة عن كثب ، حتى وجد الواقع أهول مما صوره له الخيال . كان قليل الخبرة بالحياة ، وأرزائها فما نزل إلى معمعانها حتى انتفض لهول ما رأى ! كان فى سالف أيامه منطويا على نفسه ، لا يرى الحياة إلا من خلال الفصول المدبجة ، ولا تعدو معرفته بها ما قرأ عنها وما سمع . كان عالماً نظريا ، وضع كتابا عن نظام الدولة قبل أن يمارس السياسة ويرأس الدولة ، وآمن بدستور بلاده تارخ ، وخفق قلبه الحرّ الكريم لأغانى الشعراء عن حرية الشعوب . فهاله ما رأى من استبداد بضعة أفراد بهذه الجحافل الجرّارة وتسخيرها فى سبيل أغراضهم ، وأبى أن يكون اصطلاء أمته بهذا البلاء المستعر لمجرد خدمة أولئك الأفراد أو لنصرة خصم على خصم ، وإنما أراد أن ينصر النظام الديمقراطىّ الذى يدين به . فينقذ العالم أجمع من غوائل الحروب ، ويصبه أطماع أولياء الأمور ، ويحقق له أحلام الحرية والعدالة .

كان يؤمن بالحق ، ولاغرو فقد كان من أساطين القانون . وما قال يوم ترشيحه لرياسة الجمهورية : « اخترت اليوم مهنة السياسة ، ومهنتى الأصلية خدمة القانون ، وما اعتنقت الأولى إلا لإيمانى بأن طريقها يؤدى إلى الثانية » .

وقد وجد الآن القانون منبوذاً والحق مهدراً . وشعر بماله من حول وسلطان لدى الحلفاء ، وبأنه يستطيع أن يأمر فيجاب ، وكيف لا يكون أمره منهم كذلك ، وهو نصيرهم يوم ادلهم خطبهم ، وبطلهم المنقذ يوم استحكمت أزمتهم ؟ فما الذى يحول بينه وبين وضع أسس جديدة تكفل طمأنينة الانسانية ورفاهيتها ؟ أليست الفرصة سانحة لتحقيق المبادىء الدستورية السامية التى اعتنقها ؟ أليس فى وسعه الآن إحالة الحياة إلى جنة كجنة عدن ؟

أخذ يعقد الاجتماعات ويخطب فيها منددا بالنظم الاستبدادية التى أدت إلى الحرب الضروس ، متغنياً بالحرية والعدالة ، مهيباً بالسلام الدائم . فكانت خطبه أنكى بالمقاومة الالمانية من قذائف جيوشه . كانت كأخطر الغزوات ، ولكنها غزوات رحيمة أحالت أعداءه إلى أشياع مؤمنين برسالته ، وما وثق من وقع دعايته البليغ حتى ضرب ضربته الماضية . فأعلن شروطه الأربعة عشر الشهيرة التى جعلها أساساً لصلح المتحاربين . فاذاع خبرها حتى أخذ الجنود البروسيون المعروفون بشدة المراس يحيون الدعوة إلى السلام . ويلقون السلاح قبل غيرهم ويهجرون الميدان . فلم تجد القيادة الألمانية — إزاء تسرب هذا الروح الجديد بين جنودها — بداً من أن تهادن وتطلب الصلح .

تنفست أوربا الصعداء ، وانجاب عنها عهد الظلمات الذى كاد يطيح بحضارتها ، وترنح الناس من نشوة الطرب ، ولم يكن فرحهم هذا المرة بصلح موقوت أو مبتور . وإنما آمنوا بصدق بشيرهم المأمول ، وبأن فجر العصر الذهبي الموعود يوشك أن ينبثق من وراء القتام .

* * *

كان العالم بأسره مهيئاً لتقبل رسالة ولسون . فالحرب لم تدهم الامم المشتبكة فيها فحسب ، وإنما عمت أرزاؤها كل ناحية من نواحى المعمورة . فركود التجارة ، واقتصار الصناعة على إنتاج أدوات الحرب ، وبوار الزراعة لانصراف الأيدى العاملة إلى الحرب ، وسد مطالب الحرب ، كل هذا انتهى بالعالم إلى عهد من الضيق لم يسبق له نظير . ولا تروج الآمال وتعذب ، مثل رواجها وعذوبتها فى عهد الضيق . فكثر التعلل بسلام هنىء دائم بعد هذه الحرب . وأسرفت الدول المحاربة فى بذل الوعود باحترام العهود وإحقاق الحقوق فى حالة انتصارها لتكسب بذلك الأشياع والانصار . على أن آمال العالم العانى كانت أشبه بأحلام ممتعة لا صلة بينها وبين الواقع . كان أصحابها يتسلون بها . وهيهات أن ينخدعوا فيها ، ويحسنوا الظن بمستقبل الإنسانية .

فما أعلن ولسون رسالته — ذلك الرحيم الذى استطاع أن يضع حداً للحرب الضروس . والبطل الذى جاء من أميركا بلاد الحرية ، ليحرر العالم من العبودية — حتى سرت كهرباؤها فى أعصاب العالم كله . وتولته رعدة طرب جنونى . فهو لم يعد يتعلل بآمال طوال بعيدة

المنال ، ولا يتعلق بأوهام كأطياف المنام . ولكنه يرى الآن وجه الخلاص . يرى أمانيه الخيالية تتحقق ، ولا يتطرق إليه أى شك فى مستقبل الإنسانية . لأنه لا يرتاب فى صدق البشير وقدرته على تحقيق ما يبشر به .

عهد ظهر فيه بى الخير العمم . ظهر فيه الزعيم الفذ الذى لم ينط به رهط من الناس أو أمة من الأمم رجاءها . وإنما تعلق به رجاء الإنسانية كلها ، ولم ينصب نفسه نصيراً لعقيدة أو لمبدأ متنازع عليه ، ولكنه آلى أن يحقق المثل الأعلى المنشود للحياة . وجلجلت دعوته إذ أرهقت تكاليف الحياة الناس فرزحوا تحت أعبائها ، وصرّح الشرّ فكفر الناس بالخير ، واضطرب العدل فعصف الأقوياء بالضعفاء ، وذل العامة فصاروا عبيد سادتهم ، وعبيد أرزاقهم . وما بلغ الضيق أشده حتى ألاح ولسون للعالم بسراب مبادئه ، ولا يثير النخوة شيء مثل إقدام البطل على تحطيم قيود الأرقاء وتحريرهم .

ولم يبق بلد فى أخفى زوايا العالم لم تتردد فى أنحائه أصداء دعوة ولسون ، وخفق قلب مصر مع قلوب الأمم الخافقة ، ولم تحتورها ذرة من الشك فى حلول عهد الخلاص من ربقتها ، واختارت رسلها إلى نصير الحرية الذى نادى بنزع السلاح وحرية البحار وحرية التجارة ، وحق الأمم فى تقرير مصيرها . ولكن حيل بين الأمم الشقية وبين نصيرها ، حتى توضع رسالته موضع البحث والتمحيص ، ثم أرغم على الإدلاء ببيان ينقض بعض شروطه .

وانعقـــد مؤتمر فرساى ، ووقع ولسون ما بين لويد جورج

وكليمنصو . وتخاذل الزعيم الذى استطاع أن يزلزل العالم بأمره أمام هذين الرجلين . دخل المؤتمر وهو فى نظر الكافة ذلك العميد العنيد الذى حمى الديموقراطية الأميركية عبث ملوك المال . دخله وهو بطل الحرب الكبرى وولى نعمة السلام . دخله وهو نصير الإنسانية المرتجى وحاديها إلى جنان الحرية والنعيم . ولكنه خرج منه يتعثر فى فشل لم يمن بمثله إنسان . فشل يناسب ضخامة الآمال والأحلام التى وعدبها .

لم يتقمص فى المؤتمر شخصية الزعيم المستبد الذى يفرض على غيره الطاعة . ولا النبى المؤمن برسالته المتشبث بها ، ولكنه أخذ يتملق أعضاء المؤتمر ، ويستدر عطفهم ويستجدى تأييدهم . فقابلوا تملقه بالإعراض ؛ واستجداءه بالاستخفاف ، وحطموا شروطه الرحيمة تحطيما . وأوصدوا أبواب المؤتمر فى وجه الأمم الضعيفة ذوات المطالب العادلة ، واضطر إلى بذل مجهود كبير ليحمى الأمم المقهورة ، ويحول دون تحميلها مالا تطيق من تعويض ، ودون سلخ مايعز عليها من أملاك ، ولم يتركوه دون تجريعه من حمايته . فطالبوه بالموافقة على تنازل الصين لليابان عن شانتونج — على تعارض هذا التنازل ومصلحة بلاده — فوافق وتعرض بذلك لسخط الصين وسخرية العالم .

والشعوب إذا رفعت أحد الأفراد إلى مقام الزعامة ألهته ، فإذا فقدت ثقتها فى إلهها سحقته . ولم تدم زعامة ولسون غير أشهر هوى بعدها إلى الحضيض ، وعاد إلى بلاده ذليـــلا ، فاستقبله أمته أسوأ استقبال . إذ كانت إبان الحرب تتوق إلى خوضها لمجرد نصرة الحلفاء . فلم يزل بها حتى أدخل فى روعها بأن خوضها الحرب ينتهى إلى تحقيق

أسمى الأغراض الإنسانية . إلى تطبيق قواعد العدل والمساواة بين الشعوب كما قررت الثورة الفرنسية تلك القواعد بين الأفراد . ولكن ساء أمته أن يعجز رئيسها عن تحقيق غايته ، وأن ينتهى به نضاله فى سبيل النظام الجديد إلى زيادة حال العالم سوءاً ، وإلى العبث حتى ببعض المصالح الأميركية ، وإلى توريطها فى التعهد برعاية عصبة الأمم . فلم يجرؤ على مواجهتها وتوارى عن العيون ، وظل حتى آخر أيامه لا يعلم أحد عنه وعن مقره قليلا .

ولم تكتف الأمم بالسخرية منه ، أو الغضب عليه لتفريطه فى الدفاع عن أقدس حقوقها ، عند قدرته على الدفاع عنها وإحقاقها ، بل تنافست كمادتها فى الحملة عليه ، فعرضت به ، وثلمت شرفه ، ووصمته بأن الحلفاء رشوه بالمال ليخون قضية الإنسانية ، وبأنه عاد إلى بلاده يحمل هدايا لا يقل ثمنها عن عشرة ملايين من الجنيهات .

وعلى الذى يتوق إلى المجد ، وينصب نفسه زعيما للجماهير أن يتوقع منها كل ضير . فإن غضبها عنيف كحبها ، وهى لا تعبأ بأن تحطم الدمى التى عبدتها ، ولا يضيرها أن تنعت رجلا عفا طاهراً — مثل ولسون الذى لم يستهوه شىء فى الوجود مثل توفير سعادتها . والذى قلما جاء إلى الدنيا من هو أنقى منه ضميراً وأشرف غاية ، وأنبل عاطفة — بأنه من المرتزقة الأفاكين .

* * *

لم يفشل ولسون لأن لويد جورج وكليمنصو كانا ألبق منه ، أو لضعف إخلاصه للمبادىء التى نادى بها ، أو لمجرد تقصيره فى الدفاع

عنها لدى وزراء الأمم الظافرة فى مؤتمر فرساى ، أو لأى سبب يتعلق بعاطفته وإرادته ، وإنما يرجع فشله إلى سبب واحد ، إلى اصطدام مبادئه بنواميس الطبيعة الإنسانية ، فبادئه خيالية مستحيلة التطبيق عليها . كان يرى إلى محو طبقات الأمم ، كما أراد أن يمحو طبقات المجتمع فى جامعة برنستون . كان يود أن يساوى القوى بالضعيف ، والغنى بالفقير . كان يرغب فى منع أسباب الحرب وتوطيد دعائم السلام الدائم . ولكن الحياة قائمة على تفاوت الطبقات ، وتصادم الطباع وتنازع البقاء ، وما دامت النفس طمّاحة إلى القوة والغلبة ، نزاعة إلى الغنى والجاه . فالكفاح باق بين البشر على أشده .

بذل جهد الجبابرة لحماية ألمانيا من إنزال عقاب صارم بها بعد خذلانها فى الحرب ، وجهد لويد جورج وكليمنصو فى إقناعه ، بخطر ألمانيا على السلام الأوروبى ، وبضرورة قطع مخالبها حتى لا تعود إلى إثارة حرب جديدة . وها هى ذى الأيام تؤيد وجهة نظر السياسيين الأوروبيين ، وتكشف عن حماقتها وبعد نظرهما . وماذاعت معاهدة فرساى ، وعرف الملأ مبلغ محاباة بنودها للدول الظافرة فى الحرب ، وقسوتها على الدول المقهورة ، وتغاضيها عن الدول الضعيفة المطالبة بحريتها ، وما عادت وفود الأمم المخذولة متعثرة فى ذيول الفشل ، حتى تقلصت أضواء الأحلام الساحرة ، ونزلت الأمم من سماوات الخيال إلى دنياها المليئة بالأوضار والأوشاب . ومرت بالإنسانية فترة من القلق والقنوط لم يمر أشأم منها وأحلك ، فترة من القنوط المطبق حلت بعد آمال لم يختبر البشر أعذب منها وأجل .

.أقام كليمنصو ولويد جورج ـــ أثناء مؤتمر فرساى ـــ عقبة بعد عقبة فى وجه ولسون : وأبانوا له مآخذ بنوده وخطر تنفيذها ، فهاله ما تبين من شتى العقبات القائمة دون تطبيق نظرياته ! فقد يقر الفكر النظرية ، فإذا أريد تطبيقها تنكر لها الواقع . كان يرى تحرير الشعوب المحكومة أمراً طبيعيا ، وحقها فى الحرية حقا بديهيا . وفاته أن تحرير تلك الشعوب يهدم إمبراطوريات قامت الحضـــارة على أسسها ، إمبراطوريات توطد لها نظام سياسى واقتصـادى يستحيل تبديله فى أيام أو فى أعوام ، نظام اتصلت شرايينه بمختلف مرافق الدنيا ووصلت ما بينها . وهل يستطيع فرد مهما عظم أن يبدل بمجرد أسطر يخطها حالا استقرت بعد جهاد أجيال وأجيال ؟ فاته أن الدول الكبرى استعمرت الأمم الضعيفة قسراً ، فهى لن ترد إليها حريتها إلا قسراً .

تنبأ له بالفوضى التى سوف تضرب أطنابها فى أنحاء العالم فيما إذا تمسك بمبادئه ، وبالمظالم التى سوف ترتكب باسم تلك المبادىء ، ثم لوحا له بشبح البلشفية ، وصوراه له متحفزاً للوثوب مترقباً أى وهن أو استسلام يبدر من الممالك القوية ليبسط سلطانه على أرجاء الأرض .

ولم يرم السياسيان المحنكان إلى مجرد بث الوجل فى روح ولسون وإجباره على التزحزح عن موقفه ، بل كانا هما أيضا مقتنعين بوجهة النظر التى دافعا عنها ، كانت فرائصهما ترتعد فرقاً من البولشفية، ومن خطرها المحدق بالإنسانية .

وانعقد مؤتمر نزع السلاح ، ومؤتمر الدائرة المستديرة ، وأوسع ساسة أوربا صدورهم لوفود الأمم المستعبدة ، واجتمعت عصبة الأمم .

ولكن لم يبق فرد واحد بلغت به سلامة الطوية إلى الإيمان — بعد فشل ولسون فى فرساى — بهذه المناورات السياسية . لقد كتب الفشل لهذه المجامع والمؤتمرات قبل انعقادها وكم الناس شمل أعضائها وطال اجتماعهم ، ثم تفرقوا على غير جدوى فلم يعبأ إنسان بالتئامهم وتفرقهم. وأسدل الستار على الرواية التى مثلها الساسة الدهاة . وبقى بلاء الانسانية على حاله .

عانى ولسون فى تلك الأيام العصيبة أزمة نفسية جديرة بالإشفاق . رأى مستقبل الانسانية التى يعبدها محبة ، وديعة بين يديه فهو يريد لها السعادة ، يريد أن يشق لها الطريق إليها ، ولكنه يخشى خطر الطريق . يريد أن ينقذها من العبودية . ويخشى أن يكون فى إنقاذها هلاكها . وقد أشرف عليها من عل ، وتاق إلى الصعود بها إلى ذروته ، فأصابه وهو يطل من شاهق ، دوار أى دوار .

ودبج أحد الكتاب الانجليز فصلا عن تلك الأيام التاريخية الخالدة ، وصف فيه الحفاوة التى قوبل بها ولسون فى أوربا .

قال : « إن أحداً من الساسة أو القادة لم يقابل بمثل تلك الحماسة وأنا الذى سمعت هتاف الجماهير له فى شوارع باريس ، لا أذكر أنى سمعت نظير هذا الهتاف المجلجل فى حياتى . شاهدت ، فوش ، يمر فى تلك الشوارع ، وشاهدت كذلك كليمنصو ، ولويد جورج ، والفيالق المنتصرة عائدة من ميدان الظفر . ولكن ولسون سمع وهو فى عربته هتافاً من نوع آخر. هتافاً لم ينبعث من صدر إنسانىّ ، هتافاً غير طبيعى. آه على الرجل الذى لم ين يقسم ويتألق .. وإنى أسمح لنفسى بأن أومن

كل الإيمان بأنه لو طالب فى هذه الآونة الفذة بتنفيذ مبادئه ، وصمم على مطلبه ، لما استطاعت قوة فى العالم أن تحول دون مآربه .

ولكن هذا الرأى لا يعدو أن يكون — كبادىء ولسون — خاطراً وليد الخيال . إذ لن يزال الكون على النظام الذى شاءه الله له لن يزال قوى يستعبد الضعيف ، وغنى يستبد بالفقير ، وألمعى يسخر الجاهل ، حتى يلتمس المسود السيادة ويفوز بها ، فتتغير الأوضاع ، ويصبح العبد حرا والحر عبداً . لن يزال الكفاح مستحرّ الأوار فى فى سبيل الغلبة والسيادة ، لتحقق الحياة بذلك مثلها الأعلى .

فهـــرس

• صدر من السلسلة •

١- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)
٢- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثانى)
٣- الغصن الذهبى (الجزء الأول)
٤- الغصن الذهبى (الجزء الثانى)
٥- كليله ودمنه
٦- ابن جبير
٧- فى موكب الشمس
٨- هاملت
٩- قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور
١٠- الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا)
١١- رمز الأفعى فى التراث العربى
١٢- التراث القصصى عند العرب
١٣- تاريخ العرب قبل الاسلام
١٤- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى
١٥- جماعة أبوللو (الجزء الأول)
١٦- جماعة أبوللو (الجزء الثانى)

١٧- الأساطير

١٨- ابراهيم الكاتب

١٩- ابراهيم الثانى

٢٠- الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر- الجزء الأول

٢١- الاسطورة فى المسرح المصرى المعاصر- الجزء الثانى

٢٢- حديث السندباد القديم

٢٣- أرض كليوباترا

٢٤- زينات

٢٥- أعلام من الاسكندرية - الجزء الأول

٢٦- أعلام من الاسكندرية - الجزء الثانى

٢٧- شريعة الصحراء

٢٨- ديوان حافظ إبراهيم - الجزء الأول

٢٩- ديوان حافظ إبراهيم - الجزء الثانى

٣٠- القصة القصيرة فى مصر

٣١- رسالة الكلم الثمان

٣٢- نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال

٣٣- قصة الأدب فى العالم - الجزء الأول

٣٤- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثانى- القسم الأول

٣٥- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثانى - القسم الثانى

٣٦- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثالث- القسم الأول

٣٧- حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى

٣٨- تولستوى - محمود الخفيف

٣٩- باريس

٤٠- الشوقيات المجهولة - الجزء الأول

٤١- الشوقيات المجهولة - الجزء الثانى

٤٢- شخصيات تاريخية

٤٣- أساطير الحب والجمال عند اليونان - الجزء الأول

٤٤- أساطير الحب والجمال عند اليونان - الجزء الثانى

٤٥- عصر ورجال - الجزء الأول

٤٦- عصر ورجال - الجزء الثانى

٤٧- المآسى التاريخية الكبرى

٤٨- المدائح النبوية فى الأدب العربى

٤٩- ديوان صالح الشرنوبى الجزء الأول

٥٠- ديوان صالح الشرنوبى الجزء الثانى

٥١- حياتنا التمثيلية

٥٢- التلميذة الخالدة

٥٣- أعلام الإسكندرية

٥٤- حياة الرافعى

٥٥- فيراتا

٥٦- أجمل ما كاتب خليل مطران

رقم الايداع : ١٥٥٠٨/٢٠٠٤

شركة الأمل للطباعة والنشر
(جورفيتش سابقاً)

ذاكرة الكتابة

محمد مفيد الشوباشي "١٨٩٩ - ١٩٨٤" شاعر وأديب ومؤرخ من ألمع المفكرين في مصر والعالم العربي في القرن العشرين، وهو من الرواد الذين تركوا تأثيراً واضحاً على الإتجاهات الثقافية العربية الحديثة، حيث أنه كان من كبار الدعاة إلى ربط الأدب بالحياة، والاهتمام بالمشاكل والقضايا العامة التي تؤثر في المجتمع وتتصل بواقع المواطنين، وكان الشوباشي من الأساتذة الكبار الذين استطاعوا أن يجمعوا حولهم كثيرين من التلاميذ المحبين له والذين يؤمنون بأفكاره وآرائه.

وهذا الكتاب عن "ألمع ساعات الحرج في تاريخ الإنسانية" هو كتاب ممتع يكشف عن أسلوب الشوباشي الجميل وثقافته العالية وذوقه الرفيع في اختيار موضوعات فيها الكثير من العمق والجاذبية وغزارة المعلومات والتجربة التي يمكن أن يتعلم منها الإنسان ويهتدي بها في حياته الفكرية والروحية.

الثمن: ثلاثة جنيهات

الأمل للطباعة والنشر